2

من نقد الحداثة إلى نقد الحضارة



ثورات

فضُّ الخطاب التاريخي الأوروبي

محمَّد عبد الرحمن حسن



ارتبطت كتابة الأوروبيِّين لتاريخ العصر الحديث ببلوغ سيطرتهم على العالم قمَّتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فبعد أن أدركوا أنَّهم يعيشون تقدُّماً كبيراً نتج عن غزوهم للعالم واستغلال ثرواته؛ دبَّر المؤرِّخون قصص ثورات متعدِّدة نسبوا إليها نقل العالم إلى عتبة العصر الحديث، للتعتيم على الجانب المُظلم لحقبة الحداثة. ورغم أنَّ بعض المفكِّرين الغربيين رأوا أنَّ هذه الطريقة الاحتفائية التي كُتِب بها تاريخ الحداثة تستحقّ النقد؛ إلا أنَّهم اكتفوا بنقد تأثيراتها السالبة على أوروبا وحدها، وتجاهلوا آثارها المدمِّرة على شعوب العالم الأخرى. وعند النظر إلى العصر الحديث من هذه الزاوية يتَّضح أنَّ الحدث المؤسِّس له لم يكن هو ظهور "مجتمع العقلانية والعلم والصناعة" كما تقول الرواية الغربية الشائعة، وإنَّما هو مشروع السيطرة على العالم، الذي غزت فيه أوروبا الغربية 90% من أراضيه واستولت على نصف قاراته، واستوطنتها بعد أن أبادَت عشرات الملايين من سكَّانها واستضعفت من بقي منهم. وما زال المشروع مستمرَّاً إلى اليوم بأشكال متجدِّدة. من هذه الزاوية، ينتقد هذا الكتاب الرواية الغربية لنشأة العصر الحديث، المتمركزة حول قصص الثورات الأوروبيَّة، موضِّحاً مضامينها وظروف نشأتها، والوظيفة التي تؤدِّيها في التحكُّم بعقول نُخَبِ بلاد الجنوب.

محمَّد عبد الرحمن حسن: مدرِّس النقد والعلوم الإنسانيَّة بكليَّة الفنون الجميلة والتصميم، جامعة النيلين - الخرطوم. صدرت له عدّة كتب بجانب هذا الكتاب، منها:

ذاتيَّات: فضُّ نظرة الفلسفة الأوروبيَّة إلى الإنسان والمجتمع.

فُتوحات: فضُّ وهم التفوُّق الأوروبِّي - غزو أميركا والجنوب والشرق.

اكتشافات: فضُّ خطاب النهضة و(اكتشاف) العالم.

رقم الإيداع 2020/0140 ISBN 978-99942-72-27-3

من نقد الحداثة إلى نقد الحضارة

2



فضُّ الخطاب التاريخي الأوروبِّي

محمَّد عبد الرحمن حسن



فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر – السودان 401
م ع. ث محمَّد عبد الرحمن حسن عبد الرحمن، 1960
ثورات: فضُّ الخطاب التاريخي الأوروبِّي.
محمَّد عبد الرحمن حسن عبد الرحمن. – ط1– الخرطوم:
م.ع. حسن، 2020.
304 ص، 24 سم.
ردمك: 3-27-72-99942-978 ISBN
1.اللغويَّات– نقد. 2. أوروبا– تاريخ– العصر الحديث. 3. الثورات. أ. العنوان.

تصميم الغلاف: حسين عثمان
تنسيق النص: محمَّد عبد الرحمن
رقم الإيداع 2020/0140

الطبعة الأولى
2020



وقْف للنشـر والتوزيع
الخرطوم

www.waqfbook.com
الخرطوم جنوب – جبرة: شارع 14 – 205/1.

المحتويات

مقدِّمة 7

القسم الأول
قصة الثورات: ما قبل وما بعد

الأوضاع الحضارية العالمية في بداية العصر الحديث 19
الرواية الأوروبيَّة لتاريخ العصر الحديث: مضمونها ودواعي الشكِّ فيها 47

القسم الثاني
العصر الحديث القريب (المتأخِّر): القرنان الثامن عشر والسابع عشر

الثورة الفرنسيَّة: إزاحة ثورات الجنوب 63
الثورة الصناعيَّة: اصطناع ثورة 87
الثورة العقليَّة: متلازمة التنوير والتدمير 115
الثورة العلميَّة: خيط نور في ظلام 149

القسم الثالث
العصر الحديث البعيد (المبكِّر): القرنان السادس عشر والخامس عشر

الثورة الدينيَّة: إصلاح لا ثورة 173
الثورة الجغرافيَّة: اليوم المفقود لأسطول ماجِلَّان 187
الثورة التجاريَّة: التحاق بتاريخ الإغريق 211

القسم الرابع
عصر حديث بلا ثورات

مولد فكرتَي الثورة والحداثيِّة 227
مسارات صعود أوروبا الغربيَّة 241
نظرة عامة على الثورات الأوروبيَّة 265
خاتمة 281
المراجع 289
فهرس الأعلام 305

مقدِّمة

تتركَّز مُعظم المعلومات المتداوَلة عالميَّاً عن تاريخ الحقبة التي نعيشها، التي تُسمَّى العصر الحديث، حول منطقة صغيرة هي شمال غرب أوروبا. ومعرفتنا بنشأة هذا العصر وأحداثه الكبرى تدور حول تواريخ بريطانيا وفرنسا وألمانيا، وبقدرٍ أقلّ إيطاليا، فما الذي يجعل تواريخ أُمَمٍ هذه الدول تستأثر بحدثٍ كانت الأرض كلّها مسرحاً له، ويشمل جزءاً مُهمَّاً من تاريخ البشريَّة؟ ما الذي يجعلها تستحوذ على خمسة قرون كاملة من تاريخ العالم، تبدأ بالقرن الخامس عشر وتمتدُّ إلى بداية الألفيَّة الثالثة، دون أن يرِد فيها ذِكر أُممٍ أخرى؟ ما دور الرواية التاريخيَّة التي انفردت بها أوروبا في بناء معرفتنا بالعالم وصناعة تصوُّرنا لأنفسنا، وتثبيت علاقات السيطرة المستمِرَّة إلى اليوم؟

تصدُر أهمِّية هذه الأسئلة عن جانبين، أوَّلهما أنَّ القصَّة التي صاغها المؤرِّخون الأوروبيون عن العصر الحديث تُثير ريبة أنَّها تهدف إلى تقديم صورة إيجابيَّة عن منطقة غرب أوروبا كصانعة للتطوُّر، لتغطِّي على جوانب سالبة في الدور الذي لعبته بلاد تلك المنطقة في تاريخ العصر الحديث. والسبب الثاني أنَّ الشعوب غير الأوروبية، التي تمثِّل حوالي تسعين بالمئة من بشر العالم، في حاجة لأن تعرف جذور المشكلات التي تعيشها اليوم وكيف نشأت لتتمكَّن من حلَّها، وبالتالي لا بدَّ لها أن تفهم العصر الحديث من زاوية تجربتها معه، وهي تجربة تتضمَّن الكثير مِّما أثَّر على هذه الشعوب في الماضي وما زال يؤثِّر على حاضرها.

إنَّ أهم نقد يُوجَّه إلى القصَّة السائدة حول تاريخ العصر الحديث هو أنَّها تحدِّد سماته العالمية اعتماداً على الأوضاع المحلية لأمم غرب أوروبا في أثناء سعيها لمعالجة المشكلات التي كانت سبب تأخُّرها في مطلع العصر الحديث. تمثَّلت تلك المشكلات في استبداد الملوك وتسلُّط الكنيسة ورجال الدين وسيطرة الإقطاعيين على حياة الأوروبيين، وافتقاد المساواة في ممارسة المهن وطرق كسب العيش، وتقييد الحقوق والحريات العامة. ورغم أنَّ كثير من شعوب العالم لم تعِش هذه الأوضاع، فإنَّ المؤرِّخين الأوروبيين يعمِّمونها عليها ليُقال إنَّ أوروبا هي التي قادت الإنسانية إلى تجاوُز تلك الظروف العالمية، وحقَّقت نقلات إيجابية في مجالات الحرية والعدالة والعقلانية وحقوق الإنسان واحترام الفرد. نتج عن هذا التركيز على التاريخ الداخلي لأوروبا استبعاد الكثير من الأحداث العالمية التي جرت خارجها، وأسهمت في نشأة العصر الحديث. ولأنَّ المجتمعات الأخرى كانت تتطوَّر بطُرق مختلفة عن مجتمعات غرب أوروبا؛ استُخدِم مفهوم (الثورة) أداة لقياس تطوُّرها ووُصِفت بأنها ذات نظم تقليدية ينبغي تغييرها لتُبنَى على النسق الأوروبي، فغُزيت بدعوى نقل الحداثة إليها عبر ما سُمِّي (الاستعمار).

هكذا خدمت قصَّة الثورات الأوروبية مشروع السيطرة الأوروبية العالمية، ولأنها أداة تمييز وهيمنة لا أداة معرفة بريئة؛ لا بدَّ أن تُخضَع هذه القصَّة إلى نقد يعالج تاريخ العصر الحديث بناءً على حقيقة وجود شعوب متعدِّدة في العالم، ومن منظور تعدُّد خبراتها، لا من منظور الخبرات المحلية لأمم أوروبا الغربية وحدها.

تصدر أهميَّة هذا الكتاب من سعيه لفتح المعرفة التاريخية على منظورات تستهدف تغيير وضعية استئثار أوروبا الغربية بإنتاج المعرفة وتشكيل وعي البشر. وتستند المطالبة بتغيير هذا الوضع إلى مسلَّمة أساسيَّة، هي أنَّ عملية إخضاع البلاد التي كانت تُسمَّى (مستعمَرات) لم تنته بخروج غزاتها، وأن

السيطرة عليها ما زالت قائمة، فقط تغيَّر أسلوب عملها وأدوات ممارستها. فالأداة الفاعلة حاليّاً في مجال ممارسة وتوطيد السيطرة العالمية هي نظام معرفي ينتج فكراً متمركِزاً حول أوروبا الغربية ليجعل الشعوب الأخرى تسلِّم لها بحقِّ إدارة العالم، ويبرِّر استمرار سيطرتها بأنها كانت المنطقة الدافعة للتاريخ والصانعة لحركته طوال العصر الحديث.

في هذا الكتاب يُواجَه سؤال: كيف كُتِب تاريخ العصر الحديث، وما الوظائف التي خدمتها طريقة كتابته، وما الوظيفة التي تضطلع بها اليوم؟ والفرضيَّة المقترحة إجابة عن هذا السؤال، والتي تختبرها فصول هذا الكتاب، هي: إنَّ رواية المؤرِّخين الغربيين لتاريخ العصر الحديث دُبِّرتَ بحيث تخفي ارتباط نهضة أوروبا الغربية بمشروع سيطرة كان الغزو العسكري (الاستعمار) مرحلته التأسيسيَّة، التي بعد أن ربطت اقتصادات المستعمرات بأوروبا حقَّقت للغزاة سيطرة على عقول شعوب المستعمرات قابلة للاستدامة، أداتها الرئيسية المعرفة التاريخية التي تنقلها المؤسسات التعليمية ووسائل الثقافة والإعلام.

من هنا، فإنَّ الهدف الأول لهذا الكتاب هو المساهمة في تصفية تركة المعرفة التي هيَّأت لأوروبا السيطرة على وعي شعوب العالم والتحكُّم بمصائرها. ولأنه لا يمكن تصفية أيَّة تركة قبل حصرها وتصنيفها؛ فلا بدَّ هنا من خطوتين: أولاهما التمييز بين ما ينتمي إلى فترة العصر الحديث وما لا ينتمي إليه، حتى لا تُلحَق به ظواهرٌ وأحداث تنتمي إلى فترات أخرى، وهذا يخصّ مَهمَّة الحصر. والخطوة الثانية هي توصيف الظواهر الإيجابية والسلبية التي ميَّزت العصر الحديث من جهة تأثيرها على مختلف الأمم، وهذا يخص تصنيف أحداثه.

الهدف الثاني من هذا الكتاب هو تعديل النِّسب التي تظهر بها الجوانب السالبة والإيجابية للعصر الحديث في روايته الأوروبية التي تركِّز على ظواهر

التقدُّم العلمي والتطوُّر التقني والعقلانية وحرية الفرد، وغيرها مما يُحتفى به. وبالمقابل، تزيح كثيراً من الظواهر السالبة التي شهدها هذا العصر، مثل: غزو معظم أراضي العالم وإبادة عشرات الملايين من مواطني ما سُمي "العالم الجديد"، واسترقاق ملايين أخرى من مواطني غرب أفريقيا، والاستيلاء على ثروات معظم بلاد الجنوب، وتفكيك مجتمعاتها ومحو ثقافاتها ولغاتها، وتطوير الأسلحة الفتاكة وتدمير الطبيعة. هذا إلى جانب إشعال حروب قارِّية قضت على عشرات الملايين من الأوروبيين أثناء صراع دولهم على اقتسام العالم الخارجي، وبلوغ الفارق بين الأغنياء والفقراء حداً غير مسبوق في التاريخ، وغيرها من شرور صاغت الوضع المضطرب والبائس لعالمنا الحالي.

عند أخذ هذه الجوانب في الاعتبار، تتغيَّر كلِّياً الصورة الزائفة التي يُروَّج لها عن العصر الحديث الذي تصوِّره الثقافة الغربية عالم تطوُّر وازدهار، ولن يعود الحدث الذي يميِّزه هو ظهور مجتمعات العقلانية والعلم والحرية وحقوق الإنسان كما تقول الرواية السائدة، وإنما ستكون علامته المميِّزة هي مشروع السيطرة الذي أتاح لجزء صغير من أمم العالم، هي أمم غرب أوروبا، غزو 90% من أراضي العالم ونهب ثرواته، والاستيلاء نهائياً على نصف قاراته. ورغم أن بعض المفكِّرين الغربيين رأوا في الطريقة الاحتفائية التي كُتِب بها تاريخ العصر الحديث، والكيفية التي وُصِفت بها الحداثة، قصوراً يستوجب النقد، إلا أنهم نظروا فقط إلى تأثيراتها السالبة على الأمم الأوروبية ولم يحاولوا، بطريقة نظامية، رصد آثارها التي انعكست سلباً على نظرة الشعوب الأخرى إلى نفسها[1].

إن كان نقد العصر الحديث من جهة مفكري مدرسة فرانكفورت وبعض مفكري ما بعد الحداثة قد لفت النظر إلى جوانبه السالبة من منظور مجتمعاتهم؛

---

1 للاطّلاع على عرض مختصر يتتبّع مسارات نقد كبار المفكّرين الغربيين للحداثة، انظر:

Berger, Peter L., Berger, Brigitte and Kellner, Hansfried: *The Homeless Mind: Modernization and Consciousness,* (England: Penguin, 1974). pp. 163-165.

فإنَّ نقده من منظور مجتمعات الجنوب من شأنه أن يكشف عن جوانب ظلَّت خافية إلى الآن. وهذا يؤكِّد مشروعية الجهد الناقد للمعرفة الأوروبية الذي يتطوَّر حالياً في الجنوب، فمعرفة تاريخ العالم وفهم أوضاعه المعاصرة لم يعد شأناً خاصاً بالغرب أو الشمال، كما كان الحال في القرن العشرين وما قبله[2].

تلتقي أطروحة هذا الكتاب مع مساهمات عدَّة تطوَّرت مؤخراً في أفريقيا وأميركا اللاتينية وآسيا تستهدف فض ارتباط المعرفة المعاصرة بمركزيَّة الغرب. وفي الوقت الحاضر تتبلور هذه المساهمات لدى بعض مفكِّري أميركا اللاتينية، مثل: آنيبال كيهانو وإنريك دوسل وآرتورو سكوبار وولتر د. مينولو ورامون قروسفوقل ومالدونادو- توريس، وغيرهم. هذا بالإضافة إلى بعض المفكِّرين الغربيين الذين يتوافق تفكيرهم مع استلهام تعدُّدية وتبايُن خبرات الشعوب.

توجد عدة نصوص حديثة تناولت موضوع هذا الكتاب بطريقة أو بأخرى، أبرزها كتاب جيرمندر بامبرا (إعادة التفكير في الحداثة) الذي يحلِّل الطرق التي صاغت بها مقولات علم الاجتماع الغربي ومفاهيمه صورة أوروبا الحديثة[3]. وكتابها يختلف عن كتابنا هذا رغم محاولتها فهم التاريخ العالمي من منظور التواريخ المحلية المتبنَّى هنا، وتركيزها على ترابط تواريخ وخبرات الشعوب. استهدفت جيرمندر توضيح كيف صاغت مخيِّلة علماء الاجتماع الغربيين صورة ثلاث ثورات هي: عصر النهضة والثورة الصناعية والثورة والفرنسية. لكنها لم تستهدف نقد مفهوم الثورة في ذاته، واهتمَّت بالأحداث التي اعتُبِرت

2 يمكن التمثيل لموقف من ينتقد الثقافة الغربية من داخلها ومَن ينتقدها من خارجها بموقف جاك دريدا تجاه الثقافة الفرنسية منطلِقاً من ميراث الفكر الغربي؛ في مقابل موقف المفكِّر المغربي عبد الكبير الخطيبي الذي يطالب بنقد مزدوج للذات والغرب. أنظر:

جاك دريدا: **أحادية الآخر اللغوية، أو في الترميم الأصلي**، ترجمة عمر مهيبل، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون ومنتشورات الإختلاف، 2008)؛ عبد الكبير الخطيبي: **النقد المزدوج**، (بيروت: دار العودة، 1985).

3 جيرمندر ك. بامبرا: **إعادة التفكير في الحداثة: نزعة ما بعد الاستعمار والخيال السوسيولوجي**، ترجمة ابتسام سيد علام وحنان محمد حافظ، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2016).

تحولات مُهِمَّة في علم الاجتماع، الذي هو مجال تخصُّصِها. هذا بالإضافة إلى أنَّها لم تدرس بقيَّة الثورات التي ترتبط بالتي درستها وتُعدُّ مقدمات أو نتائج لها، فما يميِّز قصَّة الثورات الأوروبية أنَّها تصطنع تماسُكاً بين تحولات متعدِّدة. وبخلاف منظور جيرمنر المقيَّد بمجالٍ تخصُّصي واحد، يتنقَّل هذا الكتاب بين عدَّة مجالات معرفية محلِّلاً خطاب الثورات المختلفة فاحصاً أشكاله ووظائفه.

أيضاً من الكتب الحديثة والمُهِمَّة التي تناولت التاريخ الحديث بطريقة نقدية، كتاب: (هيغل، هاييتي، والتاريخ العالمي) لسوزان بك – مورس[4]. في كتابها هذا انتقدت سوزان فكرة التاريخ العالمي بالتركيز على فهم هيغل وعدد من مفكري التنوير لظاهرة استعباد الأوروبيين لغيرهم. ولأن الكتاب يدرس علاقة ثورة هاييتي بأوروبا في القرن الثامن عشر فهو يقدِّم نموذجاً جيِّداً للنقد الموضعي الذي يدرس حالة مخصوصة، إلّا أنَّه لا يبحث بقدرٍ كافٍ شروط ظهور مفهوم التاريخ العالمي، رغم أنَّه يتضمَّن نقداً له.

أمَّا كتاب المفكِّر اللبناني جورج قُرم (تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب)، الذي يمثِّل المساهمة العربية الأبرز في مجال نقد التاريخ الأوروبي، فهو يتناول الكيفية التي صِيغت بها هوية الغرب بوصفه كياناً متخيَّلاً[5]. ورغم أن الكتاب يستهدف أيضاً نقد طرق اصطناع الحقيقة في الخطاب التاريخي الأوروبي، إلَّا أنَّه يركِّز على الصورة العقلية للمكان، أي مفهوم الغرب، بينما يركِّز كتابنا هذا على الأداة العقلية التي أُنشِئ بها تاريخ الغرب، وهي مفهوم الثورة. أمَّا الوجه الثاني للاختلاف فله طبيعة منهجية تتمثَّل في أن نقد المعرفة التاريخية عموماً يقوم على مقاربة تأويلية ترصد دور مواقع المؤرِّخين، فاختلاف تفاسير الأحداث مصدره تباين زوايا النظر المرتبطة بتباين خبرات مجتمعات المؤرِّخين مع تلك الأحداث.

---

4 Buck- Morss, Susan; *Hegel, Haiti, and Universal History,* (United States of America: University of Pittsburgh Press, 2009).

5 جورج قرم: **تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب**، (بيروت: دار الفارابي، 2009).

تكمن أهمِّية هذه المقاربة، التي تربط تعدُّد التواريخ بتباين المواقع الجغرافيّة في أنَّها تنزع عن مفهوم الغرب وهمَ أنَّه يصف حقيقة واقعية، لأنَّه بحُكم الجغرافيا لا وجود لأية منطقة في العالم هي غرب ثابت دائماً. فبما أنَّ الأرض كرويّة ولا توجد نقطة معينة تمثِّل المركز الذي تقاس بالنسبة إليه المواقع المختلفة؛ فإنَّ كل منطقة تمثِّل الغرب بالنسبة إلى مناطق بعينها، وهي في الوقت ذاته شرق بالنسبة إلى مناطق أخرى، وشمال أو جنوب بالنسبة لغيرها. إنَّ أيَّة منطقة تتحدَّد منسوبة إلى الاتجاهات الأربعة معاً، وإلى المناطق المتعدِّدة التي تحتل تلك الاتجاهات.

هذا يقود إلى المفهوم الذي يُستخدَم به مصطلح الغرب في هذا الكتاب. فحيثما وردَ هنا وصف (غرب) مقترناً بالحضارة، أو الثقافة، أو المعرفة، فهو لا يشير إلى نتاج واحد متجانس إلا في حدود ما تخيَّله مفكِّرو منطقة غرب أوروبا من تجانس بين أُممهم. ففي الواقع يوجد تنوُّع كبير بين تلك الأمم يدعو إلى وضع فكرة تاريخها الواحد موضع نقد، وهذا جزء مما يسعى الكتاب إلى تحقيقه كونه يفحص مطابقة تاريخ العالم بتواريخ بلاد غرب أوروبا.

لقد أوضحت الدراسات المعاصرة أن المعرفة التاريخية تتَّصف بثلاث سمات تبعدها عن الموضوعية التي تدّعيها المعرفة الوضعيَّة، أولها أنَّها تتأثَّر بمصالح وانتماءات الجماعات التي تنتجها، وأنها تخضع للطبيعة الرمزية للُّغة اللفظية، وأنها قريبة من مجال الأدب لتقيُّدِها بالأسلوب السردي. هذه السمات الثلاث تعمل متضامنة لإضفاء صورة "الحقيقة" على ما ينتجه الخطاب التاريخي. وكما عبَّر واحد من أبرز نُقَّاد التاريخانية: "سواء وُجدت الحقائق في الوثائق أم لم تُوجد، فلا بدَّ لها من أن تخضع لصنع المؤرِّخ"[6]، لأنَّه يتَّبع منطقاً معيَّناً في اختيار الوثائق وانتقاء المعلومات واستخلاص النتائج منها، بطريقة تتيح له أن يضفي على نتائجه صورة الحقيقة.

---

6 White, Hayden: Interpretation in History, *New Literary History*, vol. 4, no. 2, (1973). 295- 297. pp. 16-17

تظهر خاصيَّة اصطناع المعرفة التاريخية في أشياء عديدة، أبرزها الطريقة التي تُرتَّب بها الأحداث المختارة قبل الشروع في تحليلها، فترتيبها يمهِّد للتوصل إلى النتائج. ولأن للحاضر تأثير حاسم على المعرفة بالماضي، فالصحيح أن يبدأ ناقد المعرفة التاريخية، على عكس المؤرِّخ، باللحظة التي أُنتِجت فيها الروايات التاريخية ثم يتوغَّل في الماضي ناظراً في طريقة تنظيم الرواية للأحداث، وكيف يضفِي خطابها معنى عليها. على أن يكون الناقد واعياً بأثر اللحظة التي يفكِّر منها وأثر مجتمعه على تشكيل فكره. أمَّا المؤرِّخ الذي يتبع منهجية وضعيَّة، فيختار لحظة معيَّنة من بين عدة لحظات ممكنة معتقداً بقدرته على الإحاطة بالماضي بحياد وموضوعية، مُنكِراً أن وعي الباحث يتحدَّد بوجوده في التاريخ والحاضر الذي يعيش فيه؛ فإنه يناقض المبدأ الذي تتأسَّس عليه المعرفة التاريخية بوصفها دراسة لظواهر مجتمعية، وأن الوعي التاريخي نفسه ظاهرة اجتماعية تنشأ في سياق الزمن.

بأخذ هذه الملاحظة الجوهرية في الاعتبار، تُحَلَّل هنا قصَّة العصر الحديث بطريقة تخالف الطرق التقليدية في فهم التاريخ، التي تبدأ من الماضي وتتقدَّم نحو اللحظة الأحدث. فكما أن الشخص الذي يريد الوصول إلى مكان ما لا بدَّ أن يبدأ من حيث يقف ليتقدَّم شيئاً فشيئاً إلى أن يبلغ الموضع البعيد عنه؛ كذلك يُفترض أن يبدأ فهم تاريخ الظواهر المعاصرة بالفترة الأقرب إلى اللحظة التي يقف فيها ناقد الخطاب التاريخي، باحثاً عن بداية الظاهرة. فمعرفة تاريخ العصر الذي نعيش فيه تتطلَّب البدء من الفترة الأقرب إلى لحظتنا المعاشة لأن معالمه تتركَّز فيها، ثم نرجع بالتدريج إلى الفترات الأسبق التي تظهر فيها خصائصه إلى أن تتلاشى، فيكون موضع انقطاع تلك الخصائص في السلسلة الزمنية هو الموضع الذي يبدأ بعده ظهور هذا العصر، واللحظة التي يجب أن تُتَّخَذ حدَّاً فاصلاً بينه وبين العصور المختلفة عنه، السابقة له.

هذا هو الترتيب المتَّبع هنا في نقد خطاب تاريخ العصر الحديث، حيث يُنظر في التحولات التي أقرَّها الخطاب الأوروبي، وهي سلسلة الثورات، بدءاً

بالثورة الأقرب إلى وقتنا الراهن ثم يُنظَر في التي سبقتها، ثم الأسبق منها. والهدف من ذلك استخلاص منطق ترابط الرواية، وبحث ما تتضمَّنه من ملامح خاصة بالعصر الحديث تميِّزه عن العصور السابقة، والتحقُّق من اللحظة التي يُقال إنَّه بدأ فيها. وهذا النوع من التحليل الذي يمكن أن نسمِّيه "التحليل التراجعي" (regressive analysis) هو الأمثل لمعرفة كيف تُقتَطع المراحل والعصور وتُصنَّف الحقب الزمنية في المعرفة التاريخية.

تستند المنهجية المتبنَّاة هنا إلى أن الحدود الأكاديمية التي أُقِيمت بين مختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية معيقة للمعرفة النقدية، خاصة معرفة الشروط التي يفكِّر ضِمنها الباحث ويفهم من خلالها ظواهر المجتمع. لذا، تطوف فصول هذا الكتاب دونما قيد بين مختلف مجالات المعرفة، فتمرُّ بالمجتمع والسياسة والاقتصاد والتقنية والفلسفة والفن والأدب، بما أنَّها تحلِّل خطاب التاريخ العام الذي يدرس الأوجه المختلفة للماضي. وبما أن هذا الكتاب يستخدم لغة التاريخ وعموم العلوم الإنسانية والاجتماعية، فلا وجود لمصطلحات جديدة فيه تتطلَّب شرحاً سوى مصطلح (التاريخ المحلي)، ويُقصَد به الأحداث المرتبطة بالأوضاع المعاشة لمجتمع معيَّن، مرئيةً من منظور خبرته الخاصة وثقافته وعلاقاته بالمجتمعات المتَّصلة به. ويشير تعبير (التاريخ المحلي) إلى تواريخ جميع الأمم، بما فيها الأمم الأوروبية التي يُقال إنَّها ذات تاريخ عالمي، مثل إنجلترا وفرنسا وألمانيا، فما يُوصَف بأنَّه تاريخ عالمي ليس في الحقيقة إلّا مجموعة تواريخ محليَّة لمجتمعات مترابطة فيما بينها.

لهذا الكتاب أربعة أقسام، يقدِّم أوَّلها صورة عامة لما كانت عليه حضارات العالم في فترة بداية العصر الحديث، يليه عرض مختصر لتاريخ أوروبا الحديث كما يرويه مؤرِّخوها، مع إيراد مبرِّرات الشك في هذه الرواية. ويقدِّم القسم الثاني عرضاً لأربع ثورات يُقال أنَّ أوروبا الغربية شهدتها في القرنين الثامن عشر والسابع عشر، وهي: الثورة الفرنسية والثورة الصناعية وثورة العقل والثورة العلمية. ويتناول القسم الثالث التحولات الثلاثة المتبقِّية المنسوبة إلى القرنين

السادس عشر والخامس عشر، وهي: الثورات الدينية والجغرافية والتجارية. يليه القسم الرابع، الذي يقرأ مسار صعود أوروبا دونما استناد إلى فكرة الثورات، بادئاً بالفترة التي وُلِدت فيها فكرة الثورة بالتزامن مع ظهور مفهوم الحداثة في القرن التاسع عشر، ليصف ولوج أوروبا العصر الحديث من باب الغزو والهيمنة. يلي ذلك فصل يناقش ما توصَّلت إليه الأقسام الأربعة ويستخلِص الوظائف التي يخدمها خطاب الثورات، ويُختم الكتاب بإيراد النتائج المُهمَّة.

ختاماً، لا بدَّ من ملاحظة أن ما يشير في هذا الكتاب إلى مساندة الكنيسة لعمليات الغزو والقمع ويُربَط بالمسيحية، إنما يُقصَد به المسيحويَّة الرومانية التي ورثتها الكنيسة الكاثوليكية، ولا يُقصَد به الديانة المسيحيَّة عموماً. فقد وُجدت المسيحيَّة منذ زمن قديم في الشرق لكنها لم تساند التسلُّط وقمع المعرفة واضطهاد البشر. ويُقصَد بالمسيحويَّة (Christiandom) الأيديولوجيا الدينية التي تعود إلى عهد الإمبراطور قُسطنطين (القرن الرابع الميلادي)، وتضامَنَ فيها الجانبان السياسي والديني لتوطيد سلطة الدولة، ممثلة في الإمبراطورية الرومانية.

أيضاً، ينبغي ملاحظة أن وصف قصَّة الثورات الأوروبية بأنها مُصطنَعة، وهو وصف سيتكرَّر كثيراً في الفصول التالية، لا يُقصَد به أنَّها قصَّة زائفة. إذ لا شك أن التحولات الموصوفة بأنها ثورات كانت بالفعل مُهِمَّة في تاريخ أوروبا، فقول كوبرنيكس بدوران الشمس حول الأرض، وقول ديكارت إنَّ للكون قوانين يُمكن التوصُّل إليها بالعقل، وعناية فلاسفة التنوير بالتسامح الديني، وتحرُّر الأوروبيين من سيطرة الكنيسة ودخول الماكنة مجال الصناعة، كانت جميعها ذات أهمِّية كبيرة لتحسين أوضاع المجتمعات الأوروبية. وليس في نقد هذه التحولات انتقاص من قيمتها لأوروبا، فالنقد يتركَّز على منحها المكانة العليا في ما يُسمَّى "التاريخ العالمي" المكتوب من وجهة نظر أوروبية. والهدف من تكرار وصف الاصطناع هو فضّ اليقين الذي رسَّخه الفكر الأوروبي بأنَّ خطابه التاريخي يصوِّر حقيقة ماضي أوروبا والعالم كما هو.

القسم الأول

قصَّة الثورات: ما قبلُ وما بعد

الأوضاع الحضاريَّة العالميَّة في بداية العصر الحديث

بعد منتصف القرن العشرين، الذي استقلَّت فيه البلاد التي كان الأوروبيون يحتلُّونها، اعتنت أمم الجنوب بالبحث في تاريخها وما تملكه من وثائق تاريخية، فتوفَّرت معلومات جديدة حول الأدوار التي لعبتها حضارات العالم المختلفة في نشأة العصر الحديث. وساهم ذلك في تغيير المعرفة بتاريخه الذي انفرد الأوروبيون بكتابته ووضعوا الأمم الأخرى في خلفيته باعتبارها متلقِّية لتأثيرات الحضارة الأوروبيَّة، وأستُخدِم تاريخ العلم والتكنولوجيا بصفة خاصة لتأكيد تفوُّق أوروبا وأُهمِل تماماً تاريخهما خارجها. قال مؤرِّخو أوروبا بعجز المجتمعات الأخرى عن إنتاج العلم والتكنولوجيا؛ فوصف هيغل حضارات الشرق بأنها ذات تواريخ ساكنة، ووصفها ماركس بأنها ذات طابع تكراري، ودمغها برتراند جيل بأنها ذات أنظمة مغلقة، وأستُنتِج من ذلك عدم قدرتها على تطوير المعارف والصناعات التي كانت قد سبقت الغرب في التوصُّل إليها. وعندما توفَّرت مصادر غير أوروبية للمعلومات حول أوضاع العالم عند بداية العصر الحديث، بدأت هذه الصورة تتغيَّر تدريجياً إلى أن انقلبت تماماً. ففي تسعينيات القرن العشرين صدرت عشرات المجلَّدات في الصين حول تاريخ العلم والتكنولوجيا، قلبت الصورة التي صنعها الأوروبيون عن التاريخ الحديث للعالم، خاصة من جهة علاقته بتاريخ الصين[1].

---

1 للاطِّلاع على حجم العمل الذي تحقَّق في الصين حول تاريخ العلم والتقنية، يمكن الرجوع إلى القوائم المتوفِّرة في المصدر التالي:

Kuhn, Dieter; Reflections on the Current State and Significance of the History of East Asia Technology, *East Asian Science, Technology, and Medicine*. no. 25 (2006), 9-26. P. 18

رغم استمرار الدراسات التاريخية الغربية حتى نهاية القرن العشرين في إهمال تدفُّق المعلومات الجديدة، إلَّا أنَّ الارتفاع السريع للمكانة الاقتصادية لبعض بلاد جنوب شرق آسيا بين هذه الفترة وبداية الألفية الثالثة، لفَتَ نظر المؤرِّخين إلى ضرورة إعادة النظر في مكانة أمم الجنوب في التاريخ. ويُعتبر المؤرِّخ جوزيف نيدام (Joseph Needdham 1900–1995) أوَّل من أوضح للغرب المعاصر أنَّه وُجِدت تكنولوجيا صينية متطوِّرة يجب أخذها بجديَّة عند كتابة تاريخ العلم. وذلك عندما تناول في كتابه (العلم والحضارة في الصين) بعض العلوم التي طوَّرها الصينيون في وقت مبكِّر في مجالات الهندسة والعمارة وتقنيات الري والطباعة والنسيج والزراعة، ويبقى تاريخ العلم في الصين أوسع كثيراً من هذه المجالات المحدودة[2]. تواصلت الدراسات التي جاءت بعد نيدام، وتطوَّرت أكثر مع تطوُّر مناهج دراسة تاريخ العلم والتكنولوجيا، فلم يعُد فَهم تطوُّرهما يقف عند دراسة عوامل المعرفة والإبتكار، فقدرة المعرفة والإبتكار تتداخل مع العوامل الاجتماعية لتحدِّد دور العلم والتكنولوجيا في اشباع احتياجات المجتمع المعيَّن في سياقات معيَّنة. ولم يعُد تفسير التطوُّر التكنولوجي يُفهَم على أنَّه نتاج عبقريَّة عقل فردي أو جماعي، بل صار يُرى نتاجاً لتقاطعات المعرفة مع الأوضاع المحلِّية للمجتمعات والظروف العالمية. ساهمت هذه النظرة في تفكيك معتقدات الأوروبيين بإنفرادهم بقدرة التفكير العلمي دون سائر الأمم، وارتباط العلم بالموروث الإغريقي وحده.

يستهدف هذا الفصل رسم صورة عامة للأوضاع الحضارية التي سادت العالم في بداية العصر الحديث في المجالات العلمية والصناعية والاقتصادية والعسكرية، ورصد الفاعلين فيها ومن قاموا بتطويرها من الأمم المختلفة. يدرس الفصل أوضاع حضارات الشرق من بداية القرن السادس عشر وصولاً إلى

---

2 Bray, Francesca; Technology and Culture in Chinese History, Chinese Science, *Internatuional Society of East Asian Science*, no. 12 (1995), 13-17. P. 14.

القرن الثامن عشر، وينظر في علاقتها بالمعارف التي تلقَّتها أوروبا، وأثرها على تطوُّرها اللاحق.

وضح مؤخراً أنَّ الفترة الواقعة بين بدايتي القرنين الثاني عشر والسادس عشر سادتها حضارات متعدِّدة لعبت دوراً كبيراً في رسم ملامح العصر الحديث، فاق كثيراً الدور الأوروبي الذي اعتمد على هضم منجزات تلك الحضارات وتطويرها. وكان في مقدمتها حضارتا الصين والهند وحضارة شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسِّط (التي تُسمَّى "الحضارة العربية الإسلامية") والتي طُوِّرت عن تراثات حضارية متعدِّدة، منها ما أُخِذ عن الصين والهند ومنها ما أُخِذ عن تراث الإغريق والرومان والفرس. وفي الوقت الذي اندثرت فيه حضارة الإغريق استمرَّ تطوُّر الحضارات الشرقية حتى بعد أن بدأت أوروبا تتطوَّر اقتصاديَّاً وعلميَّاً في القرن السادس عشر الميلادي. إنَّ جذور العلم الذي تلقَّاه الأوروبيون في القرنين الرابع عشر والخامس عشر أثناء ما يُسمَّى عصر النهضة، مصدرها تلاقُح نتاجات هذه الحضارات المتنوِّعة، والتي كان أهمّها علوم الحساب والرياضيَّات الهندية والتكنولوجيا الصينية والطب والصيدلة والكيمياء العربية، والهندسة والجغرافيا الإغريقية، والفلك والتاريخ الفارسِيَّين. وإستمرَّ هذا النوع من التلاقُح العالمي يتطوَّر حول حوض المتوسِّط حتى بداية العصر الحديث، وظلَّت بلاد غرب أوروبا تتلقَّى نتائجه لفترة طويلة بعد ذلك.

تراكمت تلك المعارف وتطوَّرت في سياق التبادُل الطوعي للمعرفة الذي كان منتظماً بين حضارات العالم المختلفة، وليس عبر الغزو وبناء الإمبراطوريات. بدأت أول محاولات عولمة المعرفة في بغداد بترجمة كل تلك العلوم ومقارنتها ببعضها وتصنيف محتوياتها، وتبسيطها عبر شروح المُتون. ولم تُحجَب نتائج تلك الجهود عن شعوب العالم فجرى نقلها وتداوُلها بحريَّة إلى أن وصلت إلى أوروبا عبر الأندلس وإيطاليا، واستمرّ تأثيرها هناك يتزايد طوال العصور

الوسطى. وعندما بدأ الأوروبيون يعرفون مقدار تقدُّم الشرق صمَّموا على الوصول إليه مع بداية القرن الخامس عشر، وكان سبيلهم إلى ذلك استخدام القوة، فأعلن البابا في سنة 1195م بدء هجمات على الشرق سماها "الحملات الصليبيَّة" (the Crusades) بحجَّة تحرير بيت المقدس من قبضة المسلمين، مدشِّناً بذلك مشروع غزو عالمي لن يتوقَّف إلَّا في بداية القرن العشرين باستيلاء الأوروبيين على معظم بلاد الأرض.

في سياق الحملات الصليبية على العالم وصل البرتغاليون إلى سواحل الهند، وكانوا أول أمة أوروبية تصل الشرق عبر رحلة قام بها فاسكو دا غاما فيما بين سنة 1497 وسنة 1499م، فاكتشف البرتغاليون تأخُّرهم وضعفهم مقارنة بتقدُّم حضارات الشرق. لقد أثارت الموانئ الأسيوية دهشتهم باتِّساعها وكثافة حركة التجار فيها وحسن تجهيزها، وانضباط معاملاتها ودِقَّة طُرق إجراء الحسابات، وسرعة ايقاع حركة السفن وارتفاع قيمة التبادُلات التجارية، وتنوُّع البضائع ووفرتها. وتوضِّح سجلات التجارة في منطقة المحيط الهندي آنذاك، أنَّه عند وصول التجار الأوروبيين لأول مرة إلى أسواق آسيا، وجدوا أنَّ حجم تعاملات بعض تُجَّارها تساوي تجارة كل ملوك أوروبا مجتمعين[3]. وفاجأتهم ضخامة أحجام السفن الشرقية، والأعداد الكبيرة للأساطيل التجارية التي تملأ آفاق البحار.

لم يشعر الأوروبيون بتفوُّق حضارات الشرق في الهند وحدها بل لازمهم الشعور نفسه في السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، التي كانت منطقة وُسطى تُبادَل فيها منتجات جنوب وشرق آسيا بمنتجات شرق أفريقيا وبلاد البحر الأحمر. ولأن جزءاً كبيراً من تجارة شبه الجزيرة العربية كان ينتقل عبر مصر وشمال أفريقيا إلى أوروبا؛ كانت سواحلها الجنوبية تستضيف أساطيلاً

---

3 هاري ماجدوف: **الإمبريالية من عصر الإستعمار حتى اليوم**، (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية،1981). ص 106.

تفوق أعدادها أساطيل أوروبا. وكان الوكلاء العرب هم الذين ينقلون تلك المنتجات إلى موانئ البحر الأبيض المتوسِّط، خاصة الموانئ الإيطالية التي ظلَّت حتى القرن الخامس عشر تمثِّل هامشاً للتجارة العربية، وتلعب دور الوسيط بين الشرق وأوروبا[4].

لاحظ التجَّار البرتغاليون منذ الوهلة الأولى جودة البضائع الشرقية، خاصة النسيج الهندي الذي كان سلعة أساسية في التجارة العالمية آنذاك، عجز الأوروبيون عن شرائها زمناً طويلاً لغلائها وعدم قدرة تجَّارهم على دفع ثمنها. ولم يتمكَّن غالبية الأوروبيين من إرتداء ملابس القُطن إلا في القرن الثامن عشر بعد أن غزت إنجلترا الهند واستولت على صناعة نسيجها. وطوال القرن الرابع عشر قنِع الأوروبيون من الحصول على نسيج الهند بنسج الخرافات عنه، إذ لم يتصوَّروا أنَّه من صُنع بشر، وساد لدى عامتهم اعتقاد بأنَّه ينتجه نوع من الجن، أمَّا علمائهم فزعموا أنَّه تصنعه حشرات غريبة![5]. وحتى بعد انفتاح الأوروبيين على الشرق ظلَّت أساطير القُطن تُنسَج في أوروبا، فقد ذكر الرحالة الإيطالي ماركو بولو (Marco Polo 1254– 1324)، الذي كان أوَّل من نقل للأوروبيين شيئاً من المعلومات عن العالم الخارجي بعد وصوله بلاد المغول، إنَّ القُطن تنتجه شجرة بعد أن يبلغ عمرها عشرين عاماً. وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر، الذي ازدهر فيه أدب الرحلات الأوروبية، صحَّح كتاب (رحلات جون ماندفيل) (The Travels of Sir John Mandeville) المعلومات التي ساقها ماركو بولو حول القُطن، فأوضح أنَّ شجرته تُزرع كل عام، وأنه ليس شيئاً آخر سوى ما كان الأوروبيون يسمّونه في بلادهم "صوف

---

4 إنريك دوسل: ما بعد المركزية الأوروبية: النظام العالمي وحدود الحداثة، في: فردريك جيمسون وماساو ميوشي (محرران): **ثقافات العولمة**، ترجمة ليلى الجبالي، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004). ص 23.

5 Baines, Edward: *History of The Cotton Manufacture in Great Britain,* (Cambridge: Cambridge University Press, 2015). P. 56.

الشجر" (tree–wool). وبعدها عرف الأوروبيون استخدام القُطن فاقترضوا إسمه العربي وكتبوه أولاً (cothon)، ثم عدّلوه إلى لفظ (cotton)، المستخدم حاليّاً في الإنجليزية[6].

في الجانب الاقتصادي، كانت نُظم المعاملات الماليَّة في الشرق أكثر تقدُّماً ودقَّة من أوروبا بكثير. كانت التجارة مضبوطة بالفواتير والأوراق المالية مطبوعة والشيكات متداوَلة عند الفُرس منذ زمن قديم، ومنهم عرف العرب طرق استخدامها ونقلوها إلى أوروبا، وما تزال كلمة (شِك) (check) في اللغات الأوروبية تدين إلى أصلها العربي (صِك)[7]. أمَّا الاتفاقيات والعقود التي تحكم الشراكة في رؤوس الأموال وتقسيم عائدات الربح والخسارة بين الشركاء على أسس حسابيَّة، فقد كانت متطوِّرة في شبه جزيرة العرب منذ أزمان قديمة، واستمرَّ ذلك حتى بداية العصر الحديث حين تعلَّمها الأوروبيون. ويظهر رسوخ التقاليد التجارية عند العرب في العناية الكبيرة التي أولاها الإسلام لنظام تداوُل الثروة وتقنين المِلكيَّة وتشريعات التجارة والدَيْن والتعامل بالفائدة وتقسيم المواريث وتوثيق العقود[8]. وللدخول إلى تفاصيل هذه الصورة العامة التي تقارِن أوضاع أوروبا بالشرق في منعطف العصر الحديث، ننظر أولا في الأوضاع الحضارية التي ميَّزت الصّين، المركز الأكثر تطوُّراً في العالم من النواحي العلمية والتقنية آنذاك.

في وقت مبكِّر جداً طوَّر الصينيون تقنيات إنتاج الحديد باستخدام الفحم الحجري، ورغم أنَّ تلك الخبرة انتشرت في مناطق واسعة من آسيا، إلَّا أنَّها لم

---

6 المرجع السابق ص 62.

7 Abu Lughod, Janet L. 'On the Remaking of History: How to Reinvent the Past', in: Kruger, Barbara and Mariani, Phill (eds.): *Remaking History*, (New York: The New Press, Dia Art Foundation, 1998). p. 120.

8 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

تبلغ أوروبا إلَّا بعد قرون طويلة[9]. وظَّف الصينيون الحديد أولاً لخدمة المصلحة العامة، وخاصة في مجال صناعة معدَّات المشاريع الزراعية وحفر قنوات الري، ولم يُستخدَم في تصنيع ممتلكات الأفراد من الأدوات، وبعدها أدخِل في صناعة السلاح[10]. وقد تطوَّرت صناعة التعدين لديهم كثيراً عندما أُدمِجت تقنية احتراق البارود بصهر وصبّ الحديد، ولأن الصينيين عرفوا البارود منذ القرن الثاني عشر؛ كانوا أول أمة في العالم تستخدمه في صناعة السلاح الناري. أمَّا انتشاره في الشرق فلم يبدأ إلا مع هجوم المغول على مناطق العراق وتركيا، فحينها استخدم المغول والعرب رماحاً ذات رؤوس بارودية وقنابل بأوعية حديدية محشوَّة بالبارود لقصف جموع الأعداء ودكِّ القلاع. وبعد سنة 1288م توصَّل الصينيون إلى صناعة البنادق المحمولة باليد، وفي منتصف القرن الرابع عشر أضافوا إليها الطلقات وألحقوا بالمدفع برميلاً يُعبَّأ بالبارود[11]. ثم طوّر الملك تسو يوانتسهانغ (Zhu Yuanzhang)، الذي حكَم الصين بين السنوات 1368 إلى 1398م، هذه التقنية وبواسطتها هزمَ المغول واستولى على مملكتهم الوسطى في آسيا[12]. وفي عشرينيات القرن الخامس عشر أدخل القائد الصيني المسلم تسنغ هي (Zheng He 1371–1453) السلاح الناري إلى جنوب شرق آسيا عبر رحلات بحرية طويلة قام بها في بحر الصين، ومع منتصف القرن الخامس

---

9 المرجع نفسه، ص. 118-119

10 Taylor, Sarah; Early Chinese Iron Technology: Some Social and Historical Implications, *China*, no. 21, XXX The European conference of Chinese studies Proceedings, (1988), 319-338. pp. 343-344.

11 Laichen, Sun; Military Technology Transfer from Ming China and The Emergence of Northern Mainland Southeast Asia (1390-1527), *Journal of Southeast Asian Studies,* vol. 34, no. 3 (Oct. 2003), 495- 517. p. 497.

12 في بداية عهد أسرة منج، الذي اتّسعت فيه جهود الصينيين الحربية، بلغ عدد أفراد الجيش الصيني أكثر من مليون جندي، كان نصفهم مسلحٌ بالبنادق. وبين السنوات 1380 و 1488م بُني مصنعان صينيان للسلاح الناري كانا ينتجان في كل ثلاث سنوات حوالي 300 مدفع و90000 سهم ناري، و3000 بندقية. وفي سنة 1363م، ولأول مرة في تاريخ العالم، استخدم الصينيون السلاح الناري في الحروب البحرية. وفي سنة 1393م صدرت توجيهات عسكرية بأن تُزوَّد كل سفينة صينية بستين بندقية وأربعة مدافع وعشرين رمح ناري وعشرين صاروخ. انظر: المرجع نفسه، ص 498 - 499.

عشر بدأ مسلمو الصين يصنعون المدافع البرونزية الكبيرة. وفي سنة 1462م بلغ تطوُّر السلاح الناري في الصين درجة عليا من الرُقي عندما صُنِعت 1200 عربة ذات عجلات، تحمل كل منها مدفعاً برونزيّاً ضخماً[13].

طوال هذه الفترة لم يعرف الأوروبيون ما يجري في الشرق من نمو متسارع في تقنية صناعة السلاح وتطوُّر فنون الحرب، وظلُّوا يستخدمون السلاح الأبيض والفؤوس والنبال حتى بلغهم، متأخراً، نبأ ما كان يجري في الشرق. حدث ذلك في القرن الثالث عشر عندما نقل الراهب الفرانسيسكاني روجر بيكون (Roger Bacon 1219–1292) إلى أوروبا معلومات تلقاها من كُتب عربية حول ظهور البارود في الشرق واستخداماته الحربيَّة، أورد بيكون ذلك في كتاب وضعه في سنة 1242م وسمَّاه (حول عجائب قوى الصناعات والطبيعة)[14]. وأعقبه البرتو ماغنو (Alberto Magnus 1200–1280) الذي أوردَ في بعض مخطوطاته معلومات اضافية عن السلاح الناري منقولة عن مصادر عربية. مع ذلك لم يعرف الأوروبيون الطُرق العمليَّة لاستخدام البارود في الحرب إلا في أوائل القرن الخامس عشر، عندما نشرَ كاتب غير مشهور اسمه كونراد كيسر (Konrad Keyser) في سنة 1402م كتاباً يضم رسومات توضيحية أعطاه عنوان (المنعة الحربية) (War Fortifications)، نقل فيه من مصادر عربية معلومات حول كيفية تحضير البارود وصناعة الأسلحة النارية[15].

انتقلت تلك التقنيات التي كانت مستخدمة منذ القرن الثالث عشر لدى الجيوش الصينية، إلى أوروبا فبلغتها في القرن الخامس عشر، أي بعد مائتي

---

13 بخصوص النتائج السياسية لذلك التطوّر وأثره على الأوضاع الإقليمية، كتب السياسي الصيني المعروف في ذلك الوقت كيو جُن (Qiu Jun 1431-1495): منذ ظهور هذه الأسلحة، استطاعت الصين هزيمة البرابرة في الجهات الأربع. انظر: المرجع السابق، الصفحة السابقة.

14 Kuhn, Dieter; Reflections…, P. 13.

15 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

سنة من معرفة الشرق بها. ويرى ديتر كوهن أنَّ وصف الأوروبيين للبارود والإختراعات العديدة التي أخذوها عن الصينيين بأنها "اختراعات حديثة"، كما قال فرانسيس بيكون في بداية القرن السابع عشر، جاء بعد مئات السنوات من تلقِّي الأوروبيين تلك الإختراعات بوساطة الشرق، فاعتبروها حديثة في وقت كانت قد صارت فيه قديمة خارج أوروبا، لأنهم أرادوا إضفاء حداثة على زمنهم[16].

في المجالات التي ربطت التجارة بالقوة العسكرية، مثل مجال البحرية، فإنَّ مقارنة مختصرة بين الأساطيل التجارية الصينية في منتصف القرن الخامس عشر والأسطول البرتغالي الذي وصل الشرق في نهاية القرن نفسه، تتيح التعرُّف على مدى تفوُّق الصين على أفضل دول أوروبا من حيث التجهيز البحري في ذلك الوقت. قبل أن يُسِّير ملك البرتغال هنري الملاح أولى رحلات الأوروبيين البحرية؛ دشَّن الإمبراطور تسو دي (Zhu Di 1360–1424) أسطوله التجاري في سنة 1405م، وسيَّرَ رحلاته الطويلة في المحيط الهندي حتى سنة 1433م تحت قيادة الملاح والدبلوماسي الشهير تسنغ. تكونت الرحلات من تسع سفن كبيرة كانت جميعها محمَّلة بالبضائع، رافقتها سفن أخرى أقلَّ حجماً تحمل الماء والخيل والعتاد الحربي والقوارب الخفيفة. عمل ذلك الأسطول، الذي يُقال أنَّه ضمَّ أكبر السفن الخشبيَّة في تاريخ البشرية؛ في مجال التجارة بين الصين وسواحل الخليج الفارسي والسواحل الشرقية لأفريقيا، وقطع مسافات بالغة الطول بالنسبة إلى ما كانت تقطعه الأساطيل في زمنه[17]. واستغرقت

---

16 المرجع نفسه، ص 15.

17 فاقت سفن هذا الأسطول في أحجامها أكبر أنواع السفن الخشبية الأوروبية التي استمرت تصنع حتى مطلع القرن العشرين، بما فيها السفينة الخشبية الأكبر في العالم، والتي بناها الأميركيون في بداية الحرب الأوروبية الكبرى الأولى في سنة 1914م، أنظر:

Gould, Richard A; *Archaeology and the Social History of Ships,* (Cambridge: Campridge University Press, 2011). p. 205.

واحدة فقط من رحلاته سبع سنوات كاملة، جابَ فيها بحر الصين والمحيط الهندي ووصل ممبسًّا في شرق أفريقيا، وعاد بكامل بحَّارته الذين بلغ عددهم 28 الفاً.

يقول مؤرِّخ غربي إنَّ السفينة الواحدة من ذلك الأسطول بلغ طولها أربعمئة قدم، وكان بوسعها أن تحمل في باطنها كل أسطول المستكشف البرتغالي فاسكو دا غاما الذي وصل به إلى الهند وكان يضم أربع سفن فقط، لم يتجاوز طول الواحدة مئة قدم[18]. وكان بوسع سفينة واحدة من الأسطول الصيني أن تحمل في جوفها ثلاث سفن بحجم (سانتا ماريا)، السفينة الأعظم في أسطول كولمبس[19]. ولقد وثَّقت مدونات بعض الأوروبيين الذين تواجدوا في الصين آنذاك احتفال الإمبراطور بعودة أسطوله من رحلاته الطويلة، ويدلُّ وصفهم لها على الرخاء الكبير الذي عاشته إمبراطوريات الشرق في تلك الفترة. احتفالاً بعودة أسطوله بنى الإمبراطور معبداً بوذيَّاً من البورسلين بلغ ارتفاعه 240 قدماً بتكلفة بلغت اثنين ونصف مليون أونصة من الفضَّة.

بالنسبة إلى البرتغاليين، المشدوهين بهذا الرفاه الباذخ، فإنَّ بضائعهم التي حملوها إلى أسواق الشرق آملين أن تدرّ عليهم دخلاً، بدت بالغة الهزال. كانت أثمن البضائع الأوروبية التي حملتها سفن دا غاما أجراس صغيرة تُعلَّق على أقدام صقور الصيد وأساور وعقود من خرز، ومبوَلات نحاسيَّة[20]. ولكي يعوِّض الأوروبيون نفقات رحلاتهم الخاسرة، التي سيُضخِّم مؤرِّخوهم صورتها فيما بعد ويصفونها بأنها (اكتشفات جغرافية)؛ أكثرت أساطيلهم من عمليات

---

18 Pagden, Anthony; *Peoples and Empires,* (New York: The Modern Library, 2003). p. 57.

19 Greer, Margrette R.,Mignolo, Walter D. Quilligan, Maurean, *Reading the Black Legend: The Discourse of Religious and Racial Difference in the Renaissance Empires* (Chicago: University of Chicago, 2007). p 4.

20 Pagden, Anthony; *Peoples…,* p. 51.

القرصنة ونهب شحنات السفن التجارية الآسيوية. فمارسوا اختطاف البحارة وأعتقال كبار التجار والمسافرين بين بلاد الشرق، وأخذوا الفديات الكبيرة من أهل المختطَفين، ومن حكّام بلادهم. ويؤكِّد مؤرِّخ اقتصادي أنَّ حتى منتصف القرن السادس عشر ظلَّت أوضاع الشرق أفضل بكثير من غرب أوروبا، فكانت دوله ذات إنتاج اقتصادي كبير ونُظم سياسية وإدارية جيدة، لأنها كانت دولاً خراجية ذات كثافة سكَّانية عالية، بخلاف أوروبا التي كانت متأخِّرة كثيراً في هذه الجوانب[21]. ونتج عن الممارسات الفوضوية للأساطيل الأوروبية في الشرق انعدام الأمن في الأسواق وضعفت حركة التجارة العالمية حتى أقفرت البحار تماماً عند منتصف القرن السابع عشر، ولم تعد تتحرَّك فيها إلا سفن القراصنة والغزاة الأوروبيين.

أمَّا مديونية أوروبا لحضارة شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسِّط في مجال العِلم فتشكِّل أيضاً جانباً مُهِمَّاً من تاريخها الحديث، لا تفصح عنه نصوص مؤرِّخيها بوضوحٍ كافٍ. فبعد أن تُرجِمَت في القرنين الثامن والتاسع الميلاديَّين العلوم المختلفة، المأخوذة من الهند والصين وبلاد فارس والإغريق، واكتملت مقارناتها وصُنِّفت ودُوِّنت خلاصاتها وشروحها، بدأ الأوروبيون يتلقّون عبر البحر الأبيض المتوسِّط تلك المعرفة العالمية التي جرى هضمها وتوحيد مصطلحاتها وصبّها في وعاء اللغة العربية، فتلقّوا أولاً علوم الفلك والرياضيات عبر الأندلس.

وردَت أول إشارة لبدء استخدام الأوروبيين الأرقام العربية، المأخوذة من النظام الهندي، في كتاب البابا سلفستر الثاني (Sylvester II 999–1003) الذي كان قد سافر إلى كتالونيا قبل أن يتولَّى منصبه، حيث درَس الفلك والرياضيات من المصادر العربية. لكن، الثابت أنَّ الأوروبيين لم يقبلوا باستخدام تلك الأرقام

21 Wolf, Eric R. : *Europe and the People without History,* (Berkley, los Angles, London: University of California Press, 1982). p. 233.

في ذلك الوقت واستمرّوا يستخدمون الأعداد الرومانية المحدودة الوظائف، ولم يألفوا نظام العد العشري السائد حالياً إلا بعد وقت طويل من تلقّيه عن الشرق[22]. أمَّا في مجال البحريَّة والفلك، فلا تظهر معرفة الأوروبيين بطرقها المتقدِّمة التي تعتمد على تحديد الاتّجاهات والقياس الآلي للمسافات، إلا في فترة متأخِّرة أيضاً. فمعرفة الاسطرلاب لا تظهر في تراثهم العلمي إلا في كتاب باللاتينية نُقِل عن العربية في منتصف القرن الحادي عشر، ونُسب إلى كاتب ألماني اسمه هرمان كونتراكت (Hermannus Contractus)[23].

بسبب رفض الأوروبيين الانفتاح على المعرفة الحديثة في القرون الوسطى، تأخَّر وصول كثير من المعارف العلميَّة المتقدِّمة إليهم، فالجبر الذي وصل الأندلس في القرن التاسع الميلادي مع مصنَّف الخوارزمي الذي يحمل عنوان (كتاب الجبر والمقابلة)، لم يصل بلاد أوروبا المجاورة للأندلس إلا بعد ثلاثة قرون، وبدأ ينتشر فيها مع القرن الثاني عشر من خلال ترجمة لاتينية. كانت تلك هي الفترة التي بدأت فيها نهضة العلوم في أوروبا مع توسُّع نطاق الترجمة عن العربية. فما ترجمه حسداي بن شبروط وحده من نصوص الطب العربي فاق كل ما كان متوفراً للأوروبيين من كتب آنذاك في ميدانَي الطبّ والصيدلة معاً[24].

تكاملت المعرفة العلمية المتلقَّاة عن المصادر العربية مع التقنية الصينية في مساعدة الأوروبيين على معرفة ما يجري في العالم الخارجي، ودفعهم للانفتاح عليه. وفي مجال البحرية لم يكن بوسعهم معرفة طرق الخروج من أوروبا والاتصال بالعالم لولا ظهور تلك الآلة الشرقية التي سمَّاها العرب البوصلة، والتي أدَّت فيها الإبرة المغناطيسية دوراً مُهمَّاً في قياس المكان، يقابل

22 Watt, Montegomery; *The Infuluence of Islam on Medieval Europe,* (Edinburg: The University Press of Edinburg). p. 59.

23 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

24 Lewis, David Levering: *God's Crucible: Islam and the Making of Europe, 570-1215*, (New York, London: Norton, 2008). P. 369.

الدور الذي لعبته الساعة في قياس الزمن. أتاحت البوصلة لبحارة القرن السادس عشر تحديد الزاوية التي يسيرون فيها من حيث علاقتها باتجاهَي الشمال والجنوب، وساعدت في تحديد المسافات واتِّجاهات التيَّارات البحريَّة والرياح، وكان الشرقيُّون هم الذين حدَّدوا مواضعها واتجاهاتها في الطبيعة ورسموها على الخرائط، فكانوا أبرز الأمم التي طوَّرت التمثيل البصري للمعلومات، ووضعت الرسوم الإيضاحية للكتب العلمية.

ظهر أول وصف للبوصلة في العالم في كتاب صيني وُضع سنة 1088م، أمَّا في أوروبا فلم يظهر شيء عنها إلا بعد أكثر من قرن، ففي سنة 1200م أشار إليها الكسندر نيكام (Alexander Neckham 1157–1217) لأول مرة[25]. أمَّا الطرق العمليَّة لاستخدام البوصلة فقد تعلَّمها الأوروبيون عن البحَّارة الأندلسيين. وبفضل منظومة التقنيات الشرقية التي تكونت من آلات القياس البحري والخرائط والسفن متعدِّدة الأشرعة، تمكَّن البرتغاليون والإسبان من الإبحار في المحيطَين الأطلنطي والهندي، خارجين إلى العالم في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

في مجال الفلسفة، وعلى مدى القرن الثالث عشر الميلادي وحتى بداية الرابع عشر، الذي ينسب إليه المؤرِّخون الغربيون بدء عصر النهضة الإيطالية؛ بقي الأوروبيون تحت تأثير ابن رشد وغيره من الفلاسفة المسلمين. وعندما تُرجمت النصوص الرشدية إلى اللاتينية في بداية القرن الثالث عشر أثارت عاصفة من الاضطرابات في أوساط رجال الدين، لأنها نقلت إلى أوروبا الغربية الفكرة التي سيكون لها أثر كبير في وضعها على عتبة الفكر الحديث، وهي فكرة أنَّ الحقيقة المطلقة يمكن التوصُّل إليها بالعقل، وأن العقل والوحي يمثِّلان طريقين للحقيقة[26]. وفي تلك الفترة أصبح الاطِّلاع على ابن رشد والإلمام

25 Mikuláš Teich: *The Scientific Revolution Revisited,* (Cambridge: Open Book Publishers, 2015). P. 35.

26 Lewis, David Levering: *God's* ...,. P. 74.

بتفسيره لأرسطو المدخل إلى الفكر الديني في أوروبا، حتى لدى معارضيه. حتى أنَّ توما الأكويني خصّص كتابه الشهير (اطروحة حول حقيقة العقيدة الكاثوليكية) لهدف واحد هو "نقد اطروحات مسلمي ويهود إسبانيا" بحسب تعبيره، وكان يقصد الأعمال الفلسفية لابن رشد وموسى بن ميمون، وشروحهما لأرسطو[27]. هكذا كان الجو الفكري في أوروبا حتى القرن الرابع عشر منشغِلًا إلى حدٍّ كبير بالفكر الأندلسي، وليس له اتِّصال مباشر بفكر الإغريق.

في مجال العلم أيضاً ظلَّ الشرق متقدِّماً على أوروبا حتى القرن السابع عشر، فطوال العصور الوسطى لم يعرف الأوروبيون شيئاً عن أهم فروع الطب الحديث الذي كان يتطوَّر في شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسِّط، أي الجراحة. وحتى بعد معرفتهم به، أصدر البابا في سنة 1163م قراراً منَعَ تعليمه. لذا، لم تتطوَّر الجراحة في أوروبا إلَّا بعد أن عاش الصليبيون في حروبهم ضد المسلمين تجارب أكَّدت لهم جدواها، فاعتنوا بترجمة النصوص العربية التي توضِّح طرقها. توسَّعت الترجمة الطبيَّة من العربية في القرن الثاني عشر مع قسطنطين الأفريقي، الذي انتقل من شمال أفريقيا إلى إيطاليا ليعمل مدرِّساً في مدرسة سالرن (Salerno) حيث ترجمَ عشرات من كتب الطب العربي ضمَّت نصوصاً لابن سينا والرازي وابن عمران وابن العباس وابن الجزَّار وظلت تُدَرَّس في أوروبا حتى القرن السابع عشر، ولم يظهر أول كتاب أوروبي في الجراحة إلَّا في القرن الثالث عشر، أي بعد حوالي مئة سنة من ظهور ترجمات قسطنطين الأفريقي من العربية[28].

---

27 المرجع السابق، ص 75.

28 تذكر الموسوعة البريطانية المختصرة أنَّ قسطنطين الإفريقي وحده ترجم 37 كتاباً في الطب العربي، لكنها تقول إنَّ هذه الكتب "نقلت إلى الأوروبيين الطب الإغريقي"، ولا تشير إلى أنَّها نقلت معرفة جديدة تماماً اعتمدت على منهجية تجريبية. فابن الجزار القيرواني، وهو من أوئل الذين ربطوا دراسة المرض بالفئات العمرية المختلفة اعتمد هذا المنهج، وهو من الذين قام قسطنطين بترجمة نصوصهم. انظر: *Britanica Concise Encyclpedia*: Constantine the African (Chicago, London: Encyclpedia Britanica, 2006). p.455.

في مجال التعليم العالي، تقول الموسوعة البريطانية "بينما لم تظهر الجامعات في الغرب إلا مع العصور الوسطى، فإنها وُجدت في آسيا وأفريقيا منذ زمن قديم"[29]. وقد تأسَّست أوَّل كليَّة طب أوروبية في سالرن أيضاً في القرن الحادي عشر، وكانت تدَرِّس العلوم الطبيعية العربية. وبعدها أُنشِئت أول جامعة بالمعنى الحقيقي في بولونيا بإيطاليا في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، بتأثير الاتصال مع الجامعات العربية في الزيتونة والقيروان.

انتقلت إلى أوروبا فكرة تحويل الكاتدرائيات إلى أماكن لتدريس العلوم الدنيوية من بلاد جنوب المتوسِّط التي كانت تُدرَّس فيها العلوم الدينية والدنيوية في ساحات، أو في قاعات ملحقة بالجوامع الكبيرة في تونس والمغرب ومصر. أُنشِئت تلك القاعات أولاً في جامع الزيتونة في القرن الثامن، ثم في الجامع الأزهر في القرن العاشر، وكانت علوم المنطق والفلك والحساب تدرِّس بجانب العلوم الدينية. أمَّا في شمال أوروبا، فلم تُنشأ جامعة إلا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وهي جامعة باريس التي ظلّت تدرِّس اللاهوت فقط، وتلتها في نهاية القرن نفسه جامعة أوكسفورد في بريطانيا، فهناك أكثر من قرنين يفصلان نشأة أول مؤسسة جامعية عربية عن مثيلتها في أوروبا، وتوجد ثلاثة قرون تفصلها عن جامعات شمال أوروبا.

بتأثير الاتصال مع المسلمين في فترة الحروب الصليبية أيضاً، شرع الأوروبيون في تأسس أولى مستشفياتهم في سنة 1200م، واستمرّ تطوُّرِها بطيئاً لفترة طويلة. وظلَّت عاجزة عن مجاراة مستشفيات المسلمين، سواء في آسيا أو في شمال أفريقيا، حيث كان المرضى يوزَّعون في أقسام متخصِّصة حسب تصنيف الأمراض، كما في النظام الطبِّي السائد حاليَّاً. ثم توسَّع اطِّلاع الأوروبيين على كتب الطب العربية وانتشرت في المؤسسات التعليمية، ففي القرن الخامس عشر الذي طُبِع فيه كتاب جالينوس لأول مرة في أوروبا، كان

---

29 Encyclopædia Britannica: University, publish date: April 27, 2020, https://www.britannica.com/topic/university - Access date: January 07, 2021.

كتاب (القانون) لابن سينا قد طُبِع ثلاث مرات، واستمر يُدَرَّس في أوروبا حتى منتصف القرن السابع عشر[30].

كان معظم الذين عكفوا على ترجمة النصوص العلمية العربية إلى اللغات الأوروبية ينتمون إلى يهود إسبانيا الذين تحوَّلوا إلى المسيحية بعد سقوط حكم المسلمين في الأندلس، وكان أبرزهم ابن داؤود الذي نشط كثيراً في الترجمة من العربية في القرن الثاني عشر. أمَّا المترجم الإيطالي جيرار الكريموني فكان يستخدم فريق مترجمين من طليطلة، ضمّ مترجماً عربياً كان قد تحول إلى المسيحية ولا يُعرَف عنه سوى أنَّ اسمه الأول هو: غالب (Ghaalib)، وأنه توفي في ثمانينات القرن الثاني عشر. وتنسب المصادر التاريخية إلى غالب هذا أنَّه ترجم وحده حوالي مئة عمل علمي من العربية إلى اللاتينية. وفي القرن الثالث عشر اشتُهِر أيضاً ميشيل سكوت (Michael Scott) المتوفَّي قبل سنة 1236م، والذي ترجم لفردريك الثاني ملك صقلية شروح ابن رشد لأرسطو، وكتاب التاريخ الطبيعي لابن سينا.

الشيء الذي يؤكِّد أنَّ الأوروبيين استمرّوا حتى بداية العصر الحديث يتَّخذون النصوص العربية مصادر أساسية للعلم أكثر من المصادر الإغريقية، هو أنَّ كتبهم في بكور العصر الحديث كانت تنقل عن المراجع العربية أضعاف ما تنقله عن المصادر الإغريقية، حسب الإحصاءات المأخوذة من نصوصهم. ففي كتاب طبي أوروبي كُتِب في القرن السادس عشر اقتبس أحد الأطباء الإيطاليين من ابن سينا والرازي أربعة آلاف مرة، بينما اقتبس من جالينوس ألف مرة، ومن أبُقراط مئة مرة فقط. وحسب تعليق مونتغمري واط، فإنَّ هذا يبيِّن بقدر حاسم أنَّه "طوال القرن السادس عشر لم يكن الطب الأوروبي إلا مجرد امتداد للطب العربي"[31]. واليوم يوجد من المصادر العلمية ما يؤكِّد أنَّ

30 Watt, Montegmery; *The Infuluence*..., p. 68.

31 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

الأخذ عن الطب العربي استمرّ في أوروبا حتى القرن الثامن عشر، فحسب قول باحث معاصر يعمل على تاريخ الطب؛ استمرّ الأوروبيون حتى القرن الثامن عشر يعتمدون على الأطباء الشعبيين في المستعمَرات، لأن أوروبا نفسها كانت تعتمد على الطب العربي حتى ذلك الوقت. ويؤكِّد أيضاً أنَّ طرق البحث الطبي لم تتطوَّر في أوروبا إلا في بداية القرن التاسع عشر "حين صِيغت روابط جديدة بين العواصم الأوروبية الاستعمارية ومستعمراتها البعيدة"[32].

كانت المعرفة الاجتماعية في أوروبا أيضاً مجال تأثُّر كبير بالمعرفة العربية. ففي حقل التاريخ بدأت الترجمة عن العربية في القرن الثالث عشر الميلادي عندما قام الفونسو العاشر، الذي تولى حكم قشتالة من سنة 1248م إلى 1252 ولُقِّب بألفونسو الحكيم (Alfonso the Wise)، بترجمة النصوص العربية الخاصة بتاريخ الأندلس، فكتَبَ بعضها باللغة القشتالية التي صارت فيما بعد لغة إسبانيا الرسمية. وظلت النصوص التاريخية العربية مقروءة في إسبانيا حتى القرن السادس عشر وشكَّلت مصدراً مهماً لمعرفة الإسبان بتاريخهم. ثم نهض ألفونسو بمشروع ترجمة للمخطوطات والكتب العربية بالغ الضخامة، فأسَّس معهداً للدراسات اللاتينية العربية في أشبيلية، عُرف باسم المدرسة الألفونسية[33]. وإليه أيضاً يعود فضل تأسيس وتنظيم الدولة الإسبانية، فهو الذي ضبطَ النصوص القانونية ونظَّم المعاملات والحقوق المدنية[34]. ومع تصاعد الحملات الصليبية ضد المسلمين وتشتُّت اليهود داخل أوروبا، انتقلت النصوص العربية والعبريّة معهم إلى داخلها وانتقل نشاط الترجمة إلى عمق أوروبا، وتركَّز في جنوب فرنسا وهولندا، ووصل حتى إنجلترا.

32 ديفيد أرنولد: **الطب ...**، ص. 32-31.

33 ليفي بروفنسال: **حضارة العرب في الأندلس**، ترجمة ذوقان قرقوط، (بيروت، منشورات مكتبة الحياة، د. ت). ص 104.

34 Hamilton, Peter J.: Germanic and Moorish Elements of the Spaish Civil Law, *Harvard Law Review*, Vol. 30, No. 4, (Feb., 1917), pp. 303-318.

لم تقتصر التأثيرات العلمية التي وردت إلى أوروبا في بداية العصر الحديث على ما صدَرَ من الصين وبلاد شرق وجنوب المتوسط وحدها، فإذا انتقلنا إلى الهند فإننا نجد علامات التفوُّق الحضاري واضحة هناك أيضاً. إنَّ الفترة الممتدَّة بين منتصف القرن السادس عشر ومنتصف القرن الثامن عشر، والتي كانت فيها ممارسات قمع المعرفة بواسطة السلطتين الدينية والسياسية مستمرّة في أوروبا؛ تُعدُّ الفترة الأكثر غنى وإبداعاً في تاريخ الهند الثقافي، فقد شهدت فيها علوم الرياضيات والطب والقانون واللغات والمنطق والجماليات رقيَّاً كبيراً[35]. وعن ذلك يقول باحث غربي معاصر "إذا اعتبرنا الحداثة طريقة مختلفة لفهم بنية الزمن [...]، فإننا نلتقي بحداثة كهذه في الهند عند القرن السابع عشر"[36]. في تلك الفترة ظهرت عملية تحديث ارتبطت بحركة تبادُل علمي بين حضارات آسيا المختلفة كانت قد بدأت منذ وقت مبكِّر، ففي القرن الرابع عشر الميلادي نشأ تفاعل بين الحضارات الإيرانية والعربية والهندية أنتج تقدماً كبير في الفلك، وعُرفت تلك الحركة العلمية التفاعليَّة باسم (طاجيكَ) (tājika)، وانتجت معرفة متطوِّرة اعتمدت على ترجمة نصوص فارسية وعربية كثيرة إلى اللغة السنسكريتية.

حتى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر ظلَّت دلهي الموضع الرئيسي لامبراطورية مغول الهند (the Mughal) التي كانت قد تفكَّكت قبل ذلك القرن بقليل. وفي الفترة نفسها فإنَّ الفلكي جاي سنج (Jay Singh) الذي كان أيضاً ملكاً على الهند من سنة 1699م إلى 1734، أقام مرصداً فلكياً كبيراً وخطَّط مدينة جيبور بطريقة هندسية متقنة أوضحت إلمامه العميق بالرياضيَّات، ودلّت على درجة التطوُّر الحضاري الذي بلغته الإمبراطورية في زمنه. والشيء الذي

35 Raina, Dhruv; Revisiting Social Theory and History of Science in Early Modern South Asia and Colonial India, *Extreme-Orient Extreme-Occident,* no. 36 (2013), 191-210. P. 195.

36 المرجع السابق، ص 197.

يوضّح مقدار الثقافة العلمية العالية لذلك الملك هو أنَّه صمَّمَ بنفسه عدة آلات للمراصد التي أسسها، اعتمد فيها على فرع المعرفة المعروف في الفلك العربي باسم (الزج)، وربط ذلك الفرع من المعرفة بالنتائج التي كان قد توصَّل إليها الفلكي الفرنسي فيليب دو لا هير (Philippe de la Hire 1640-1718). بعدها بدأ سنج يتعاون مع البرتغاليين في مجال تبادُل المعرفة العلمية، خاصة في مجال الفلك، فأرسل بعثةً نقلت له جداول فيليب الفلكية في سنة 1730م، ورافقها عالم الفلك البرتغالي خافيير دا سيلفا (Xavier Da Silva)[37]. هذه العلاقات تؤكِّد أنَّ حضارة الهند ظلت تسير قدماً حتى في الوقت الذي بدأت فيه أوروبا تتطوَّر، فاستمرَّت ترتقي حتى منتصف القرن الثامن عشر. وهذا يخالف ما تدَّعيه نصوص التاريخ الغربي المعاصر من أنَّ أوروبا تفوَّقت على كل شعوب العالم منذ القرن السادس عشر، ففي جانب التقنية استمرّت الصناعات الآسيوية تُصدَّر حتى الفترة القريبة من 1730م بكميَّات هائلة لأوروبا، التي ظلَّت تدفع مقابل ذلك الكثير من ذهبها وفضَّتها للصين والهند.

لقد تبيَّن مؤخَّراً أنَّ تأثير الصين على أوروبا كان أوسع بكثير مما يُظن، فمن المطبعة وصناعة الورق، والسفن متعددة الأشرعة، وحتى استخدام تقنية الاحتراق وتوليد الطاقة في الصناعة والمحركات، ونظم استخدام العملة الورقية، وتداول السندات التي يسّرت تطوُّر المعاملات المالية، إلى جانب ما سبق تناوله من صناعات السلاح الناري والمدفعية البحرية، كل هذه الانجازات التي اعتمد عليها الاقتصاد الرأسمالي وساهمت في تطوير التجارة والصناعة في العصر الحديث، تلقَّاها الأوروبيون عن الشرق. ويتَّضح حجم مديونية أوروبا للصين ليس فقط في المجالات الاقتصادية والعلمية والتقنية، وإنما أيضاً في مجال وعي الأوروبيين بذاتهم وبناء هويَّتهم، فقد أوضح بندكت أندرسون الدور البارز الذي لعبته المطبعة في خلق وعي المجتمعات الأوروبية بهويَّاتها

37 المرجع نفسه، ص 200.

القومية، نتيجة تأثيرها الكبير على نشر المعرفة ونزع سلطة الكهنوت، ورفع مكانة اللغات القومية الأوروبية على حساب اللغة اللاتينية[38].

كان الملك هونجوو مؤسِّس أسرة منج الذي حكم الصين بين سنة 1368م و1398م، أول من طوَّر تقنية الطباعة، فاستخدمها قبل الأوروبيين بمئة عام لنشر المعرفة العلمية، وسار على نهجه الملك كانجسي ومن تبعهما من ملوك الصين. ومنذ تلك الفترة كانت رعاية الدولة للمعرفة العلمية، خاصة الطب والفلك وتقنيات الزراعة، قد صارت بمثابة سياسة عامة للدولة الصينية. وبعدها انتقلت المطبعة إلى أوروبا لتُحدِث تأثيراتها التي يُنسَب إليها استهلال العصر الحديث[39]. إنَّ تدقيق النظر في الربط الميكانيكي الذي يقيمه المؤرِّخون الغربيون بين ظهور المطبعة في أوروبا وبداية العصر الحديث يوضِّح عدم صحَّته؛ لأن الطباعة صناعة متكاملة لا تعتمد على المطبعة وحدها وإنما تحتاج صناعات أخرى، أهمها الورق.

تعود صناعة الورق أيضاً إلى الصينيين الذين قدَّموا إلى العالم في القرن الأول الميلادي نتائج بحوث طويلة في هذا المجال كانت مستمرّة نحو قرنين من الزمان، وتوصلت إلى إنتاج رقائق بيضاء ذات سطح ناعم من سليوز القُطن، صالحة للكتابة والطي والحفظ لمدى زمني طويل. وبسرعة شديدة صار الورق بديلاً للجلد الذي استخدمته أمم الشرق لأزمان طويلة في كتابة رسائل حكامها وحفظ نصوصها الدينية وتوثيق آدابها. ومع القرن الثامن الميلادي انتشر استخدام الورق في بلاد العرب وصارت معظم النصوص العربية تُكتب عليه،

---

38 بندكت أندرسون: **الجماعات المتخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها**، ترجمة ثائر ديب، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014). ص. 96 - 99.

39 Jami, Catherine; Introduction: science in Early Modern East Asia; State Patronage, Circulation, and Production of Books, *Early Science and Medicine,* vol. 8, no. 2, (2003), 81-87. P. 38.

وتحوَّلت وظيفة الجلد المرقَّق إلى تدعيم وتقوية أغلفة الكتب والمخطوطات. ومع اتساع تداول الكتب الورقيَّة تطوَّرت في بلاد المسلمين أنواع الخطوط وتحوَّلت الكتابة إلى فن رفيع، وارتقت معها حرفة التجليد والتذهيب والرسم التوضيحي وزخرفة المخطوطات، فوُلدت صناعة الكتاب بشكله الحالي. أمَّا أوروبا فقد ظلَّت لا تعرف شيئاً عن التقدم الكبير في صناعة الورق والكتب في الشرق وشمال أفريقيا حتى القرن العاشر. وأقدم مخطوط ورقي وُجِد في أوروبا يعود تاريخه إلى مابعد القرن الحادي عشر، وحتى بعد ذلك التاريخ ظلَّ الأوروبيون يستوردون الورق بمختلف انواعه من الشرق بواسطة العرب، الذين طوروا صناعته في مناطق متعدِّدة بالعراق وسوريا والجزيرة العربية.

بالنسبة إلى المسلمين، الذين استخدموا الورق في تدوين النصوص الدينية والسيرة النبوية منذ القرن الثامن الميلادي، تميَّز الورق عن رقائق الجلد بمزيّة بالغة الأهمِّية هي صعوبة محو ما يكُتب عليه من دون أن يبقى الأثر واضحاً، وهي الخاصية التي جعلت من العسير جداً، إن لم يكن من المستحيل، تغيير أو تحريف النص المكتوب من دون أن يُكتشف. فكانت هذه الخاصية سبباً مهمَّاً في انتشار الورق بين المسلمين لحرص علمائهم على صحة النصوص القرآنية والنبوية، وتطابُقِها في النسخ المختلفة للمصحف وكتب الأحاديث والسيرة. هذا بجانب ميزاته الأخرى مثل توفُّر المواد الخام التي يُصنع منها في مختلف المناطق، وانخفاض تكلفته وسهولة نقله وحفظه وخفَّة وزنه، مقارنة بالجلد. بعدها أدخل العرب صناعة الورق إلى الأندلس، حيث كانت عجينته تصنع بطواحين تتحرَّك بقوَّة الرياح. أمَّا أوروبا فبدأت صناعة الورق متأخِّرة عن الصين بأكثر من ألف وخمسمئة سنة، ومتأخِّرة عن العرب بحوالي ثمانمئة سنة، وحتى عندما بدأ يوحنا جوتنبرج الطباعة لم يكن لدى الأوروبيين ورق، فطبَعَ نسخه الأولى من الإنجيل على جلد الضأن والماعز.

من البديهي أنَّه لم يكن ممكناً للمطبعة أن تحقِّق نتائج اجتماعية وثقافية في غياب صناعة الورق؛ لأن طباعة نسخة واحدة من الإنجيل كانت تتطلَّب الحصول على جلود مئات من الضأن. ولا يمكن الحديث عن أثر كبير في أوروبا لظهور المطبعة، التي هي نفسها ابتكار صيني، إلا بعد أن بدأت الدول الأوروبية تصنع الورق. إنَّ القول بارتباط العصر الحديث بظهور المطبعة في إيطاليا ليس سوى خرافة تدحضها حقيقة أنَّ عمل المطبعة ظل مرتفع الكلفة لأن الأوروبيين استمروا يستوردون الورق من العرب ومسلمي شمال أفريقيا حتى القرن السادس عشر. ويقول جوناثان بلوم إنَّ أثر صناعة الورق على ظهور الكتاب وانتشار المعرفة وبزوغ الوعي الحديث، لا يقل عن تأثير المطبعة لارتباط الطباعة التام بالورق، وعجزها الوظيفي في غيابه، فانتشار المعرفة يتوقَّف على انخفاض كلفة الكتاب وكثرة النُسَخ المطبوعة منه[40].

لم تبدأ أوروبا صناعة الورق إلا في النصف الأخير من القرن الثالث عشر، عندما بدأ الإيطاليون صناعته بكميَّات محدودة في سنة 1368م بمدينة فابريانو. ولم ينتشر استخدامه في بلاد غرب أوروبا، مثل فرنسا وبريطانيا، إلا بعد أن توفَّر بكميات كبيرة وبأسعار معقولة بين نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. كتب بلوم ساخراً من جهل الأوروبيين في مطلع العصر الحديث:

> **”لم ينس الأوروبيون مديونيتهم لصانعي الورق المسلمين فقط، وإنما ظلوا جاهلين أيضاً بالأصول الصينية لصناعته، حتى إنهم عندما عرفوا في القرن السادس عشر بوجود الورق الصيني اعتقدوا أن الصينيين تعلَّموا صناعته من قدماء المصريين!“[41].**

40 Bloom, Jonathan M.: ‘Papermaking: The Historical Diffusion of an Ancient Technique’, in: Jöns, Heike. Meusburger, Peter and Heffernan, Michael (eds.): *Mobilities of Knowledge* (Springer: Switzerland, 2017). P. 51.

41 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

استمرَّ الأوروبيون يكتبون على ورق البردي حتى القرن الحادي عشر الميلادي، سيراً على تقاليد الرومان الذين كانوا قد أخذوا صناعته عن قدماء المصريين. وكان المصريون قد تركوا استخدام البردي منذ القرن العاشر وبدأوا يصنعون الورق على الطريقة الصينية، بعد أن نقل إليهم العرب تقنيات صناعته. ثم انتقلت صناعة الورق إلى الأندلس عبر المغرب العربي في القرن الحادي عشر ووصلت إلى إيطاليا في القرن الثالث عشر، وهناك تنقَّلت بين بلاد غرب أوروبا حتى وصلت بريطانيا بين نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر[42].

لم تقترب الأوضاع الاقتصادية في بريطانيا، التي يُنسَب إليها السبق في تحقيق تقدُّم اقتصادي في أوروبا، من الأوضاع في الصين إلا في منتصف القرن الثامن عشر. وحتى في ذلك الوقت توفَّرت للصين كل الشروط التي ينسب إليها الأوروبيون تطوير الصناعة البريطانية، وأهمَّها: المِلكية الخاصة للأرض، والتقسيم الاجتماعي للعمل، وحرية القوى العاملة، وسعة الأسواق وتعدُّدها. وإلى جانب هذه الشروط التي يُقال أنَّها أدَّت إلى ظهور الحداثة في أوروبا، وُجِد اقتصاد صيني يعتمد على السوق منذ وقت مبكر[43]. وكان أصحاب الأموال الصينيين يتمتَّعون بنفس الدوافع التي يربطها مؤرِّخو الاقتصاد الأوروبيون بظهور الرأسمالية في أوروبا، مثل: التوجُّه نحو تحقيق الربح الذي يصاحبه انتشار واسع للتكنولوجيا[44].

إنَّ كثيراً من هذه الشروط التي توفَّرت للصين في القرن الثامن عشر لم تتوفَّر لدول أوروبا الغربية إلا في القرن التاسع عشر. ففرنسا، التي صارت

42 المرجع نفسه، ص 55.

43 Lin, Justin Lifu: The Needham Puzzle: Why the Industrial Revolution Did Not Originate in China, *Economic Development and Cultural Change*, vol. 43, no. 2 (Jan., 1995), 269-292. P.269.

44 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

الدولة الأكثر تقدُّماً في أوروبا الغربية بعد بريطانيا، لم يتحقَّق فيها شرط مِلكية الأرض بطريقة تسمح باتِّساع نمو الرأسمالية إلا بعد استيلاء المزارعين على أراضي الإقطاعيين، ولم تتحقَّق فيها حرية العمل الصناعي إلا بعد تحرير الصناعة من سيطرة النقابات الحِرَفيَّة، وكل ذلك تحقَّق في أواخر القرن الثامن عشر مع الثورة الفرنسية، أي بعد سنة 1789م. وهذا يؤكِّد أنَّ فرنسا لم تدخل مرحلة الرأسمالية الصناعية إلا قريباً من بداية القرن التاسع عشر[45]. لذا، لا يمكن رد التطوُّر الاقتصادي في دول شمال غرب أوروبا إلى تفوُّقها في مجال الصناعة أو إلى ظهور الرأسمالية، بما أنَّ أوضاع هذه الدول ظلت مماثلة للصين طوال القرن الثامن عشر. مع ذلك، تفوَّقت بريطانيا وفرنسا على الصين اقتصادياً، ثم تفوَّقتا عليها علمياً وتقنياً بعد ذلك بوقت قصير، فما الفارق الذي أدى إلى ذلك؟

بخلاف الرواية الأوروبية التي تقول إنَّ صعود أوروبا الاقتصادي والعسكري بدأ بتقدُّمها الفكري والعلمي، وإنَّ سيطرتها على العالم كانت نتيجة تفوُّق الجانب الروحي لحضارتها، تُظهِر المقارنة السابقة بين أوضاع أوروبا وآسيا عموماً، والصين بشكل خاص، أنَّ التفوُّق في مختلف الجوانب الحضارية تحقَّق للصين قبل تحقُّقه لأوروبا الغربية بزمن طويل، دون أن تنشأ عن ذلك سيطرة صينية على مناطق بعيدة عنها، كان بوسعها أن تصلها وتحتلها بكل سهولة. وهذا يدعم فكرة أنَّ تفوُّق أوروبا على الصين، الذي بدأ يظهر بعد القرن الثامن عشر، يجب أن يُعزَى إلى سبب آخر غير التقدُّم العلمي والتقني. وليس ثمة خاصية كان لها تأثير على تحسُّن أوضاع دول غرب أوروبا في تلك الفترة سوى أنَّها كانت قد تحوَّلت إلى إمبراطوريات غازية منذ وقت طويل، فاستولت على معظم أراضي العالم وثرواته، واستعبدت عدداً من شعوبه، وتملَّكت نتاجات عمل

45 Wolf, Eric: *Europe* …, p. 118.

مئات ملايين البشر بعنف غير مسبوق، وحولت فضاءات العالم إلى أسواق لسلعها، التي كانت قد بدأت تتحسن بعد سيطرتها على مصادر الثروات. لقد كانت ممارسة الأوروبيين للعنف والتدمير هي امتيازهم التاريخي الوحيد على حضارات الشرق.

لا يدلّ عدم انشاء الصين للمستعمرات في بداية العصر الحديث على عجزها في أية ناحية من نواحي القوة، فإلى جانب تفوقها البشري الذي كان يؤهلها لاجتياح مناطق واسعة من العالم في وقت قصير، كانت متفوِّقة أيضاً في التقنية الحربية. وكما أُشير سابقاً، كانت الأساطيل الصينية قد صارت منذ القرن الرابع عشر كبيرة الحجم، وأقدر على الإبحار لمسافات أطول مما تستطيع السفن الأوروبية، وكانت مزودة بأعداد كبيرة من المدافع النارية التي لم تعرفها أوروبا إلا متأخِّرة. رغم ذلك لم تبدأ الصين بناء أساطيل حربية، بعكس الأوروبيين الذين اتَّخذت كل رحلاتهم التجارية صورة حملات غزو[46]. وبعكس أوروبا، كانت كل عناية الدولة الصينية موجَّهة إلى البناء الداخلي وليس للتوسُّع الخارجي، وكانت سياسة امتناع الصين عن الغزو قد أملتها خياراتها الاستراتيجية، رغم أنَّها كانت قد توسَّعت بقدر محدود في بعض البلاد المجاورة لها، وهو ما طبعها بطابع الإمبراطوريات التقليدية.

حينما بلغت القدرات الصينية البحرية أقصى مدى من التطوُّر وصارت القوة الأكبر في العالم في مطلع القرن السادس عشر، الذي تزامن مع بدء الأوروبيين غزو مناطق الشرق القريبة من الصين؛ قرَّر وزير الحربية الصيني ليو داكسيا (Liu Daxia) في سنة 1477م إيقاف رحلات الأسطول الصيني في المحيط الهندي، معلِّلاً قراره بأن الرحلات التي تبلغ بلاداً بعيدة تنشر الأساطير

46 إنَّ مذكرات الذين سُمُّوا (مكتشفين) أمثال فاسكو دا غاما وماجلان وكولمبس وغيرهم، مليئة بقصص القرصنة وتدمير المناطق التي هبطوها. انظر على سبيل المثال:

Pigafetta; T*he First* ... P. 12.

والخرافات عن العالم وشعوبه[47]. وحتى بداية العصر الحديث لم تتدَّخل الصين في ما كان الأوروبيون يمارسونه من تدمير وغزو في جنوب آسيا، في حين أنَّها كانت بحكم تفوقها التكنولوجي والسكاني الكبير وخبرتها في الطرق البحرية وامتلاكها المعلومات الكافية حول المسارات البحرية، كانت الأكثر تأهيلاً لإيقاف تلك الممارسات. لكن الصينيين اعتقدوا أنَّ الإنتشار الأوروبي في المحيط الهندي أمر مؤقَّت لن يلبث أن يزول، وعلى العكس من توقُّعاتهم استمرَّت الأساطيل الأوروبية تتزايد حتى وصلت بحر الصين في القرن الثامن عشر، وحينها فقط اضطر الصينيون إلى الدخول في مواجهات حربية مع بريطانيا، التي كانت قدراتها وخبرتها العسكرية قد تطوَّرت كثيراً آنذاك بسبب غزوها لمناطق أخرى كثيرة، فخسر الصينيون الحرب.

خلاصة ما سبق، أنَّ الانتباه إلى التاثيرات الواسعة التي مارستها حضارات الشرق على أوروبا، وجمعها إلى بعضها لتشكِّل صورة عامة للأوضاع الحضارية في بداية العصر الحديث؛ يبيِّن أنَّه لولا ما تلقته أوروبا عن الشرق لما تشكَّلت معالم حضارتها على النحو المشهود اليوم. ويوضِّح أيضاً أنَّ أوروبا تفوَّقت على الشرق لأنَّ تلقِّيها للمعارف والتقنيات والنظم الشرقية رافقه عنف مستمر ومنظَّم نتج عنه تدمير الأوروبيين لتلك المراكز الحضارية، التي زوَّدتهم بما سيكون سبباً لتقدُّمهم.

إنَّ المفارقات التي سبق رصدها بين أوضاع الأمم الأوروبية وأوضاع شعوب الشرق في مستهل العصر الحديث، والتي تبيِّن أنَّ التقدُّم الحضاري تركَّز خارج أوروبا حتى وقت قريب من القرن الثامن عشر، تخالِف كليَّاً الصورة التي دبَّرها المؤرِّخون الأوروبيون عن بزوغ فجر العصر الحديث من بلادهم، التي صوَّروها ترمي بضوئها الساطع على العالم الخارجي "المظلم".

---

47 Pagden, Anthony; *Peoples…,* P. 57.

رسمَ هذا الفصل صورة واضحة لتخلُّف الأوضاع في أوروبا الغربية عن بلاد الشرَق وشمال أفريقيا منذ بداية العصر الحديث المبكِّر وحتَّى بداية العصر الحديث المتأخِّر. وبما أنَّ السؤال المطروح حول التاريخ الحديث هو: كيف صعدت أوروبا إلى قمَّة النظام العالمي بسرعة بعد أن كانت متأخِّرة؟ فإنَّ الفصل التالي يستجلي كيف أجاب مؤرِّخو أوروبا ومفكِّروها عن ذلك السؤال بابتكار قصَّة سلسة من الثورات، تردُّ إلى أمم أوروبا وحدها فضل تطوُّرها.

الرواية الأوروبيَّة لتاريخ العصر الحديث:
مضمونـها ودواعي الشكِّ فيها

يتميَّز العصر الحديث بأن انقسام البشر فيه إلى أُمم شمالية مُسيطِرة وأُمم جنوبية أُخضِعت للسيطرة يتَّصف بخاصيتين لم يتَّصف بهما عصر سابق. الخاصيَّة الأولى هي الشمول، إذ لم يحدث أن شملت السيطرة جميع أمم العالم. فأوسع الإمبراطوريات في الماضي، وهما إمبراطورية الرومان في العصر القديم، وإمبراطورية شرق وجنوب المتوسِّط في العصر الوسيط (التي تُسمَّى: الإمبراطورية العربية الإسلامية)، تركَّزت سيطرتهما حول حوض البحر الأبيض المتوسِّط وتمدَّدت إلى بعض مناطق الشرق، لكنها لم تحتل معظم بلاد الأرض. والخاصِّية الثانية المميِّزة لنظام السيطرة الذي يشهده العصر الحالي هي قابليته لأن يُستدام، إذ لم يحدث من قبل أن اكتسبت السيطرة قدرة كهذه على إعادة إنتاج نفسها. فعلى مرِّ التاريخ كان خضوع الشعوب لسلطة الغزاة يزول بمجرَّد خروجهم من الأرض التي احتلوها، أو تخلِّيهم عن الحكم. ويشهد على هذا تاريخ أوروبا نفسها، فالأُمَّة الإسبانية التي أنشأت أول دولة قوميَّة حديثة في أوروبا وُلِدت عقب انتصارها على سلطنة غرناطة الأندلسيَّة في سنة 1492م بعد أن حكمَها مسلمو أفريقيا لفترة قاربت ثمانية قرون، وبمجرَّد التخلُّص من سلطة المسلمين استطاع الإسبان بناء دولة مستقلَّة فكَّت ارتباطهم ببلاد المغرب، التي كان الأندلسيون مرتبطون بها سياسياً وعسكرياً لوقت طويل.

أمَّا سيطرة الأوروبيين على العالم فلم تنته بخروجهم من المستعمرات، ولكنها استمرت عن طريق غرس تصوُّرات ومعارف معيَّنة في عقول النُخب الوطنية، عبر المؤسسات التعليمية وأجهزة الإعلام التي أدخلوها إلى المستعمرات. فقد غُلِّفت جميع العلوم بروايات عن تاريخها تتضمَّن تمييزاً بين الأوروبيين وغيرهم من البشر، وزُعِم أنَّها روايات تاريخية تستند إلى معرفة موضوعية بالماضي. ولتمكين المعرفة الاستعمارية من إزاحة المعارف المحلية التي تزوِّد الشعوب بتصوُّرات حسنة عن ذاتها ونظرة إيجابية إلى تاريخها يتعذَّر معها إخضاعها؛ سُمِّيت المعرفة الأوروبية "معرفة حديثة"، ونُسِبت إلى عصرٍ فُصِل عن فترات التاريخ البشري الأخرى بتقسيم زمني يجعل منه عصراً فريداً سُمِّي "العصر الحديث". وإلى اليوم تستند سلطة ما يُسمَّى المعرفة الحديثة، أو العِلم الحديث، إلى رواية تاريخية تجعل من زمننا الحالي عصراً أوروبياً خالصاً، يُقال أنَّ معرفةً جديدةً وُلِدت فيه، تدين بوجودها إلى مسيرة تقدُّم أوروبية خالصة استطاعت أن تقدِّم إلى العالم حضارة حديثة تختلف كليَّاً عن كل حضاراته السابقة. ولهذا، فإنَّ فهم الوظيفة التي تخدمها المعرفة المعاصرة، المعولمة بشكل متزايد، يقتضي فهم كيف صنعت النصوص التاريخية صورة العصر الحديث التي تُكسِب هذه المعرفة سطوتها، وتُضفي على الأوروبيين تميُّزاً بين بشر العالم.

استناداً إلى معرفتهم بتاريخ أوروبا الذي قسَّموه إلى عصر قديم ووسيط وحديث، صاغ المؤرِّخون الأوروبيون رواية نشأة العصر الحديث كما يلي:

تميَّزت العصور الوسطى، وهي الممتدة بين القرنين الخامس الميلادي والرابع عشر الميلادي، بعدَّة سمات، أبرزها التراتب الطبقي في المجال الاجتماعي، وهيمنة النمط الإقطاعي في المجال الاقتصادي، وسيادة الحُكم الملكي المطلق في المجال السياسي، وشيوع الفكر الديني في مجال المعرفة. ومع توسُّع تجارة بعض موانئ إيطاليا المطلَّة على البحر الأبيض المتوسِّط في

القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديَّين، تراكَمَ لديها قدرٌ كبير من المال ونمت الحِرَف والصناعات الصغيرة، فتحقَّقت ثورة تجارية في إيطاليا ساعدت حكام المدن والتجَّار الأغنياء على الاهتمام بالثقافة ومكَّنتهم من الإنفاق عليها. وظهر في إيطاليا اهتمام بإحياء تراث الإغريق في القرن الرابع عشر استمرّ يتطوَّر حتى القرن الخامس عشر، وأيقظ بقيَّة بلاد أوروبا الغربية من الجمود الثقافي الذي سادها في العصور الوسطى، واتَّخذ ذلك شكل تحوُّل فني وأدبي واسع. وتبع ذلك تحوُّل في مجال الفكر قاده بعض الذين سُمُّوا "الإنسانيون" (Humanists)، الذين شدَّدوا على كرامة البشر في وقت حطّت فيه التعاليم الكنسيَّة من مكانتهم بسبب ما سُمِّي الخطيئة الأولى، أي خطيئة آدم وحواء. شكَّلت تلك التحولات الفنية والفكرية مجتمعة ما يسمَّى عصر النهضة. ثم جاء تحولٌ آخر ارتبط بهذا، وهو إصلاح ديني طالب قادته بالتخلُّص من احتكار الكنيسة للمعرفة الدينية، وترجموا الإنجيل من اللاتينية إلى اللغات الأوروبية القومية ليقرأه الجميع، مستفيدين من ظهور المطبعة في منتصف القرن الخامس عشر، وكانت نصوص الإنجيل قبل ذلك تُكتب وتُشرح باللاتينية، التي لم يكن عامة الأوروبيين يعرفونها. وحسب رواية المؤرِّخين الأوروبيين؛ ترتَّب على حركة الإصلاح ثورة دينية تزامنت نتائجها الإيجابية مع ما حقَّقه عصر النهضة من تقدُّم.

في تلك الفترة، وعقب استيلاء الأتراك العثمانيين في سنة 1453م على القطسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية؛ استعادت أوروبا الغربية صلتها مع التراث الإغريقي إثر هروب علماء القسطنطينية إليها حاملين معهم نصوص العلماء والفلاسفة الإغريق. ساهمت تلك النصوص في نشر التفكير العلمي وغيَّرت العقلية التي كانت سائدة في أوروبا، فانفتحت نحو العلوم. وبإحياء المعرفة البطليموسية حدثت ثورة جغرافيَّة في منتصف القرن الخامس

عشر، فتوجَّهت البرتغال وإسبانيا إلى العالم الخارجي وحقَّقتا (اكتشافات) مهمَّة، كان أبرزها وصول كريستوفر كولمبس إلى أميركا، وبلوغ فاسكو دا غاما الهند.

نتيجة لذلك، حسب الرواية الأوروبية نفسها، شهدت بلاد غرب أوروبا تطوُّراً علميا بدأ في مجال الفلك مع نظرية نيكولاس كوبرنيكس التي أوضحت أن الشمس هي مركز حركة جميع الكواكب، بما فيها كوكب الأرض. واستمر التحوُّل مع الجهود التي بذلها جاليليو في مجال الفلك، ثم نيوتن الذي توصَّل إلى قوانين حركة الأجسام والجاذبية. وارتبطت هذه الأحداث العِلميَّة بتحولات مماثلة في مجال الفلسفة، منها دعوة الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون إلى المنهج التجريبي، وصياغة الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت لقواعد المنهج العلمي، معتمداً على فلسفة عقلانية. وشكَّلت تلك الإنجازات "ثورة علميَّة" نتجت عن استعادة الأوروبيين لتراث الإغريق الفلسفي وعلومهم. هذه التحولات الممتدَّة من الثورة التجارية للمدن الإيطالية مروراً بالثورة الجغرافيَّة ووصولاً إلى الثورة العلميَّة؛ هي التي رسمت فجر الفترة المبكِّرة من العصر الحديث التي تختلف عن مرحلته المتأخِّرة، الناتجة عن موجة ثانية من الثورات.

تستمرُّ الرواية لتقول إنَّ الموجة الثانية من الثورات بدأت في القرن الثامن عشر، فنتيجة لانتشار المعرفة العلميَّة في القرن السابع عشر ظهر تحوُّل في مجال الفلسفة تركَّز في بريطانيا وفرنسا وألمانيا، أكَّد مفكروه تميُّز الإنسان بقدرته على استخدام العقل، وقالوا بضرورة تنظيم المجتمع على المبادئ العقلية لا المبادئ الدينية، لأن العقل مشتركٌ بين جميع الناس، وشدَّدوا على قدرة الإنسان على تحقيق التقدُّم عن طريق العلم وتحكيم العقل في كافَّة شؤون الحياة. وفي مجال العقيدة دافعوا عن نشر التسامح بين أصحاب المذاهب الدينية المختلفة، فوُصِفت فترة القرن الثامن عشر هذه بأنها كانت "عصر تنوير". ونتيجة لانتشار العلم والتفكير العقلي حدث أيضاً تحوُّلٌ في مجال

الصناعة، فاختُرِعت الماكنة البخارية التي بفضل توظيفها في مجال صناعة النسيج حقَّقت بريطانيا تفوُّقاً اقتصادياً كبيراً على بقيَّة بلاد أوروبا، خاصة فرنسا التي كانت تنافسها في المجال الصناعي، وعُرِف التحوُّل نحو الماكنة باسم: الثورة الصناعية. ومن جانبها شهدت فرنسا أيضاً ثورة أحدثت تحوُّلات كبرى في السياسة والمجتمع، فنتيجة لفكر التنوير برز وعي اجتماعي وسياسي جديد كان محوره فكرة الحرية، وأدى إلى اندلاع الثورة الفرنسية التي لعبت فيها الطبقة البرجوازية دوراً بارزاً، وبعدها تحوَّلت فرنسا من الحُكم الملكي إلى الحُكم الجمهوري. استهدفت الثورة الفرنسية تحقيق المساواة بين طبقات المجتمع والتخلُّص من سيطرة الكنيسة وأصدرت أول وثيقة لحقوق الإنسان، حسب الرواية المذكورة. وهنا برزت الحداثة (modernity) في صورتها المكتملة.

نتيجة لتلك الثورات حدث في القرن التاسع عشر تحوُّل في تصوُّر الأوروبيين لذاتهم وعلاقتهم بالعالم، فصارت فردية الإنسان هي محور عنايته. وعبَّرت عن ذلك النزعة الرومانسية التي راجت في الآداب والفنون والفلسفة. رأى الرومانسيون أن المجتمعات كليَّات عضوية مستقلة ذاتيَّاَ، وأن أوروبا الحديثة تختلف جذرياً عن كل العالم القديم. وهنا وُلِدت الحداثية (modernism) التي شدَّدت على اختلاف الزمن الحديث عن ما سبقه، فانتقلت أوروبا من مرحلة الحداثة التاريخية إلى مرحلة الوعي بها، وفهمها فلسفياً.

هذه هي القصَّة السائدة حول تطوُّر أوروبا واحتلالها مركز التاريخ بوساطة ثوراتها، التي يُنسَب إليها ما يميِّز العصر الحديث عن العصور القديمة والوسطى، مثل: اتساع نطاق التمدُّن، وعقلانية المجتمع، وتقدُّم العلم، وتطوُّر الصناعة، ونمو الرأسمالية، وشيوع الديموقراطية والتسامح الديني وثقافة الفردانية، ونشر الحريات والعدالة الاجتماعية، والدفاع عن حقوق الإنسان ... إلخ.

تبدو هذه القصَّة جديرة بالتصديق لحسن حبكتها واتساق منطقها، فكل ثورة تنتج عن ثورة سبقتها، ثم تصبح هي ذاتها مقدِّمة لثورة ثالثة تليهما. بفضل اتِّساق وترابُط هذه الثورات، وبحُكم السيطرة الواسعة التي كانت بلاد أوروبا الغربية قد حقَّقتها عبر الاستعمار؛ فُرِضت القصَّة على كل العالم عبر تدريس التاريخ العام وتواريخ العلوم المختلفة، فظلت مقبولة في التعليم الرسمي والثقافة العامة حتى وقت قريب جداً، بدأت بعده تُثار حولها شكوك كثيرة.

قبل الشروع في نقد هذه القصَّة يجب استخلاص سمتين أساسيَّتَين لها. السمة الأولى أن القصة تتَّخذ التحوُّل الفلسفي المتمثِّل في عصر التنوير حدَّاً فاصلاً بين تحولات موجة الثورات المبكِّرة، التي تضم الثورات التجارية والدينية والعلمية والجغرافية، عن الموجة المتأخِّرة التي تشمل الثورات الاجتماعية والصناعية والعقلية. والسمة الثانية أن القصة تتجاهل الحدَث الأكبر في العصر الحديث الذي يميِّزه عن جميع عصور التاريخ، وهو استيلاء شعوب أوروبا على نصف قارات العالم بعد احتلالها أميركا الجنوبية وأميركا الشمالية وأستراليا، واستوطنتها نهائياً بعد أن أبادت الملايين من مواطنيها واستضعفت مَن بقي منهم.

إلى جانب هذا، توجد مبرِّرات عديدة للشك في صحَّة ما يرويه المؤرِّخون عن استناد العصر الحديث إلى التحولات التي مرَّت بها الحضارة الأوروبية، أبرزها التناقض الذي تتضمَّنه فكرة التلازم بين الحضارة والغزو. فالمؤرِّخون الأوروبيون يرون أن توسُّع أوروبا الخارجي وسيطرتها على العالم أعقبا تقدُّمها الحضاري، بينما يُفترَض، نظرياً على الأقل، أن الأمم تبلغ مرحلة الحضارة بعد وصولها درجة عليا من التقدُّم تتجاوز مرحلة انشغالها بتوفير ضرورات الحياة، بينما الدافع الأساسي للغزو هو الحاجة إلى الحصول على ضرورات الحياة.

فلماذا احتاجت الأمم الأوروبية إلى غزو العالم إن كانت متقدِّمة عليه حضارياً وقادرة على تلبية احتياجات مجتمعاتها؟

إنَّ جميع النماذج التاريخية في المنطقة التي تطوَّرت فيها حضارة أوروبا، وهي المنطقة المحيطة بالبحر الأبيض المتوسِّط، تؤكِّد أن الأمم الأقل تحضُّراً كانت هي التي تغزو الأمم المتحضرة، لا العكس. لقد غزا الرومان بلاد الإغريق في القرن الثاني قبل الميلاد، وكانوا أقل تحضراً منهم. وفي القرن الخامس الميلادي غزا الجرمان الإمبراطورية الرومانية الغربية التي كانت تفوقهم تحضراً. وفي القرن السابع الميلادي غزت القبائل العربية بلاد فارس والروم ذات الحضارات العريقة، واجتاحوا امبراطورياتها الراسخة. وفي القرن الخامس عشر الميلادي غزا الأتراك، الأقل تحضراً حسب رأي المؤرِّخين الأوروبيين، الإمبراطورية الرومانية الشرقية فاجتاحوها كلِّياً.

في كل هذه النماذج كانت الشعوب غير المتحضِّرة هي التي تغزو مناطق الحضارة. وهذا الدليل التاريخي المضطرد في منطقة حوض المتوسِّط، التي تنتمي إليها الحضارة الأوروبية، يرجِّح أن أمم أوروبا الغربية عندما بدأت تغزو العالم في منتصف القرن الخامس عشر كانت أقل تحضُّراً من شعوب الشرق. وهذا يستدعي الشك في أن التحولات الداخلية هي التي وضعت أوروبا على عتبة الحضارة وأنها لم تجتاح العالم إلا بعد تحضُّرها، فالمسار الزمني لنمو أوروبا الاقتصادي يُظهِر ارتباطاً قوياً بتوسُّعها الاستعماري.

لقد تطوَّرت البلاد الأوروبية بالتتابُع التالي: إسبانيا والبرتغال أولاً، وقد صارتا الأُمَّتَين القويتَين في أوروبا حين كوَّنتا مستعمرات في أميركا الجنوبية وآسيا في القرن السادس عشر. وتبعتهما هولندا التي ارتفعت مكانتها الاقتصادية في العالم بعد إنشاء عدة مستعمرات في أميركا وأفريقيا وشرق آسيا في القرن السابع عشر. وبعدها صعدت مكانة بريطانيا وفرنسا حين تفوَّقتا على بقيَّة

البلاد الأوروبية بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، فاستولتا على مناطق واسعة من أميركا الشمالية والبحر الكاريبي وآسيا. ثم التحقت بتلك الدول ألمانيا وإيطاليا، فدخلتا مجال التنافُس الاستعماري في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حين قامتا بغزو بعض مناطق شمال وشرق ووسط أفريقيا. ولأن الأوضاع الاقتصادية تطوَّرت في هذه البلاد الأوروبية وفقاً لهذا الترتيب، المرتبط بتراتب توسعها الخارجي؛ فلا شك أن محرِّك تطوُّرها هو استيلاؤها على الأراضي والثروات الخارجية.

أمَّا السبب الثالث لإثارة الشك في القصة، فهو معلومات إحصائية تشير إلى أن تطوُّر الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في معظم بلاد أوروبا الغربية تحقَّق في بداية القرن التاسع عشر متزامناً مع اكتمال غزوها للعالم، لا قبله. اعتماداً على مقاييس التمدُّن، تقدِّم فترة ما قبل القرن التاسع عشر صورة قاتمة للأوضاع في أوروبا توضِّح مقدار التأخُّر الذي كانت تعيشه. ففي شرق أوروبا لم تكن مساحة الأرض المأهولة بالسكَّان تزيد عن 5%، وبقي حوالي 95% من الأرض مجرَّد غابات موحشة. أمَّا منطقة غرب أوروبا، التي كانت أفضل قليلاً، فقد عاش 85% من سكَّانها في منازل متباعدة وقرى صغيرة، ولم يزد عدد سكَّان المدن عن 15% من المواطنين[1]. في بريطانيا مثلاً، لم يزد عدد المدن عن 810 ولم يتجاوز متوسِّط سكَّانها 300 مواطن للمدينة الواحدة، وفي أوسع المدن لم يزد عددهم عن 2000 مواطن. ويقول أحد الباحثين إنَّه في تلك الأوضاع المتأخِّرة، كان الإنسان الأوروبي يعيش كل حياته في قريته فيُوَلد ويموت دون أن يعلم عن العالم القريب منه شيئاً، لأن متوسِّط المسافات التي كان الأوروبيون يقطعونها طوال حياتهم لم يكن يتجاوز 15 كيلومتراً، بالنسبة إلى الغالبية العُظمى منهم[2]. استمرَّ هذا الوضع في معظم بلاد أوروبا دون تغيُّر

1 Hale, J.R. ; *Renaissance Europe : Individual and Society 1480-1520,* (Berkley, Los Angles: University of Calfornia Press, 1977). P. 32.

2 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

يُذكَر حتى نهاية القرن الثامن عشر، وترتَّبت عليه تبعات اقتصادية مُهمَّة، منها ضعف قدرات الإنتاج الزراعي بسبب محدودية ما يملكه المواطنون من أرض، واستيلاء الإقطاعيين والكنيسة على معظم المساحات الصالحة للزراعة. وتبعاً لهذا، تركَّز النمو في المناطق الريفية ولم تتطوَّر المدن، فقلَّ نموها السكاني وتفاقمت أزمات الغذاء وارتفع تأثير الأمراض على متوسِّط أعمار سكانها. وهذا يوضِّح مقدار التأخُّر الذي ظلت أوروبا تعيشه في الفترة التي تُنسب إليها ثوراتها.

لم تتغيَّر هذه الأوضاع حتى الفترة التي شهدت آخر الثورات الأوروبية، أي الثورة الفرنسية. فقد شهدت مدينة باريس قبيل العام 1789م أزمات غذاء طاحنة هدَّد فيها المواطنون بمهاجمة مخازن الغذاء. وحتى بعد نصف قرن من نجاح الثورة الفرنسية لم يحدث تحوُّل واضح في أوضاع الطبقات الاجتماعية، ولم يظهر سوى تغيُّر محدود في النظام السياسي للدولة، مثل حصول الطبقة البرجوازية على نسبة أكبر لممثليها في الجمعية الوطنية الفرنسية. من ناحية مِلكية الأرض، ظلَّ حوالي ستة عشر مليون من مواطني فرنسا، أي ما يقارب نصف عدد سكَّانها الذي كان يبلغ ستة وثلاثين مليوناً؛ لا يملكون سوى قطعة أرض صغيرة جداً خاضعة لضرائب باهظة تهدِّد بأن تنزعها الحكومة من صاحبها في أية لحظة. وكان غالبية النصف الآخر من الفرنسيين عمالاً وحرفيِّين لا يجدون عملاً ثابتاً ويعيشون في فقر مستمر، وكانت الأقليَّة فقط تنتمي إلى طبقتي البرجوازية والأرستقراطية[3].

هنا ينطرح السؤال التالي: إذا لم تكن الثورة الفرنسية التي يُعزَى إليها وضع أوروبا الغربية على عتبة الحداثة قد حقَّقت تحولاً واضحاً في وضع الفرنسيين؛ فما الحدث الذي يفسِّر التحوُّل الهائل في أوضاع أوروبا ككل عند القرن التاسع

3 كارل ماركس: **الثامن عشر من برومير- لويس بونابرت**، (موسكو: دار التقدُّم، 1972). ص 55.

عشر؟ في الواقع، لا يوجد في سجل تاريخ أوروبا الداخلي ما يفسِّر هذا التحوُّل، أمَّا تاريخها الخارجي فيسجِّل حدثاً كبيراً كان يجري لفترة طويلة قبل ذلك.

مع القرن التاسع عشر كانت ثمانية فقط من بلاد أوروبا الغربية قد تمكَّنت من احتلال أكثر من أربعة أخماس بلاد العالم، فمستعمراتها التي لم تزِد طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر عن 35% من مساحة العالم، قفزت إلى أكثر من 80% من مساحته بسبب النشاط الاستعماري المحموم لبريطانيا وفرنسا وبلجيكا وألمانيا وإيطاليا[4]. وكان هذا التحوُّل هو الوحيد في تاريخ أوروبا المتزامن مع تقدُّمها وترقِّي أحوال أممها، وهو ينضاف إلى الأسباب التي ذُكِرت سابقاً ليُؤكِّد أن التحوُّل نحو العصر الحديث لم يبدأ من داخل أوروبا، وإنما بدأ من ارتباطها بالعالم الخارجي.

هذه هي الأسباب التي تستدعي إعادة النظر في القصَّة التي ترويها النصوص الغربية عن صعود أوروبا وبدء حداثتها، فتصوِّره مرتبطاً بتاريخها الذي يُقال أنَّه شهد تحولات جذرية في الفلسفة والعلم والدين والفن والأدب، أي في مجال الروح والعقل، وإنَّ هذه التحولات الروحية هي التي أنتجت ثورات علمية وتقنية واقتصادية واجتماعية، أدَّت إلى أن تسيطر أوروبا على العالم.

على أساس القول بأنَّ أوروبا استهلت تحوُّل العالم نحو العصر الحديث؛ تقدِّم المعرفة الغربية نفسها في جميع الميادين بوصفها الأكثر صدقاً من معارف كل الأُمم، مدَّعية أنَّ النظرة الموضوعية للتاريخ تقتضي الأخذ بروايتها واستبعاد روايات الأُمم الأُخرى، التي تفتقِر معارفها إلى الموضوعية والحياد العلمي. وعلى العكس من هذا الاعتقاد الذي يقوم على ادِّعاء الموضوعية والدقة المنهجية، فإنَّ التحليلات التي تقدِّمها الفصول التالية لقصَّة الثورات الأوروبية تستبدل التوجُّهات السائدة في التاريخ المعاصر بتوجُّه نقدي يُعالِج الخطاب

4 هاري ماجدوف: **الإمبريالية ...**، ص 113.

التاريخي للحضارة الأوروبية بوصفه خاضعاً لشروط اجتماعية وتاريخية. ومثله مثل كل معرفة أخرى، يرى أن له طبيعة أنثربولوجية تربطه بتقاليد إنتاج المعرفة في الحضارات الأخرى، تجعله مختلف عنها لكن ليس منفصلاً كليًّا.

يمكن تلخيص ما تطرحه هذه المقاربة النقدية في الأسئلة التالية: ما الآثار الاجتماعية التي تترتَّب على المعرفة التاريخية، وما المصالح التي تخدمها؟ من الذي يختار حدثاً تاريخياً معيَّناً ليجعله أساسياً، ويستبعد أحداثاً أخرى؟ كيف تُشكَّل صورة الأحداث والمشاهد التاريخية وتُقتَطع حدود الحقب والعصور؟ كيف تُنشأ السرديات وتُرتَّب الوقائع وتربط ببعضها وتُصاغ الحُجج التفسيرية؟ هذه الأسئلة تركِّز على تقنيات إنتاج الخطاب وعلاقته بالظروف المحلية والعالمية التي يُصاغ فيها، وأيضاً علاقته بمنتجيه ومستهلكيه. وهذا النوع من الدراسة يتَّصل بالتحولات المعاصرة التي نتجت عن العناية بدراسة أوضاع المعرفة، التي تتناول طرائق منتجي الخطاب في استخدامها وإنتاجها.

رغم أن هذا الكتاب يُحلِّل خطاب التاريخ الحديث ملتزماً مراحل القصَّة الغربية نفسها، إلَّا أنَّه لا يسلِّم مسبقاً بأن نقطة معينة في التاريخ، مُقتطعة جزافاً من الماضي، هي التي تمثِّل بداية العصر الحديث وتتكفَّل بتفسيره. إذ لا بدّ من أن نطرح السؤال التالي: كيف يستطيع إنسان مرتبط بانشغالات زمنه الخاص، وصاغت عقليته تصوُّرات كوَّنتها ثقافة مجتمعه المحدَّد، أن يحيط بحقبة طويلة من الزمن الماضي تقع خارج عصره ويقرِّر أن لحظةً معينةً فيها، دون غيرها من اللحظات، هي التي وُلِدت فيها ملامح العصر الذي يعيش فيه؟ وهذا يعني أن نسأل بخصوص تاريخ العصر الحديث: لماذا يختار المؤرِّخون الأوروبيون لحظة تتمثَّل في هذا القرن أو ذاك وترتبط بهذه الثورة أو تلك ويتخذونها بداية للعصر الحديث، فتختلف اختياراتهم باختلاف انتماءاتهم القومية؟

تفحص الفصول التالية التحوّلات الأقرب إلى زمننا الحاضر، ناظرة في اللحظة التي صاغت صورته بوصفه قطيعة مع الماضي، فتبدأ بالثورة الفرنسية التي يُقال إنَّها زوَّدت العصر الحديث بمفاهيم حقوق الإنسان والعدالة والحرية والديموقراطية. ثم ننتقل، رجوعاً، إلى عصر التنوير الذي يُقال أنَّه حقَّق ثورة أرست الأسس العقلية للمبادئ التي أنتجت الثورة الفرنسية. ثم الثورة الصناعية التي يُقال إنَّها سبقت الثورة الفرنسية وكانت نتاجاً لعقلانية التنوير التي نشرت التفكير العلمي. وتشكِّل هذه التحولات الثلاثة، المتركِّزة حول القرن الثامن عشر، كتلة ثورات الحداثة. وفي القسم الثاني يستمر تتبُّع الثورات في العصر الحديث الباكر، فتُدرَس اللحظة الابتدائية التي شهدت مولِد الثورة العلمية ثم الثورة الدينية فالثورة الجغرافية، وأخيراً يأتي الفصل الذي يتناول التحوُّل الذي مهّد لظهور عصر النهضة، وهو الثورة التجارية. وببلوغ هذه اللحظة التي تلامس العصور الوسطى، ينتهي التتبُّع النقدي لقصَّة ظهور العصر الحديث، وتُجمَع خلاصات الفصول للإجابة عن سؤال: هل وُجِدت فعلاً قطيعة حقَّقتها التحولات الأوروبية الموصوفة بأنها ثورات؟ وبرصد اشتغالات تقنيات إنتاج الحقيقة في خطاب الثورات يُستَخلص المنطق الذي دبَّرَ به المؤرِّخون الأوروبيون قصة العصر الحديث. وعن طريق ربطه بالسياقات التي صِيغ فيها، وانشغالات المؤرِّخين بأوضاع مجتمعاتهم المحلية، تُستخلص الوظائف التي أدّتها سردية الثورات الأوروبية، والتي تؤدِّيها في وقتنا الحاضر.

ختاماً، من المهم توضيح أن النقد الذي يُساق هنا لا يستهدف صياغة رواية بديلة للرواية الأوروبية حول تاريخ العصر الحديث، تدَّعي أنَّها أكثر صحَّة، ولكنه يستهدف فهم الطريقة التي دبَّر بها المؤرِّخون الأوروبيون روايتهم، موضِّحاً ارتباطها بمصالحهم وأوضاع أُممِهم ومنظوراتها المحلية، محاولاً أن يسهم في تحرير المعرفة من خطابها المرتبط بالمركزيَّة الأوروبية. وهذا ما

يرسم فرقاً أساسيَّاً بين نقد المعرفة من منظور محلي ونقدها من منظور (ما بعد الاستعمار) الذي يكتفي بتحليل خطاب المستعمِر وردِّ المستعمَر عليه. أمَّا كيف صاغ المستعمِرون نظام معرفة يحقِّق لهم هيمنة على العالم قابلة للاستدامة عبر السيطرة على عقول شعوبه، فهذا ما أهمله نقَّاد ما بعد الاستعمار، وهو ما تهدف الفصول التالية إلى المساهمة فيه.

القسم الثاني

العصر الحديث القريب (المتأخِّر):
القرنان الثامن عشر والسابع عشر

الثورة الفرنسيَّة: إزاحة ثورات الجنوب

كانت الثورة الفرنسية أبرز الأحداث السياسية في أوروبا في القرن الثامن عشر، رغم أنَّها جاءت بعد الثورة الأميركية التي أثَّرت على الأوضاع السياسية والاقتصادية في أوروبا، مثلما أثَّرت على الوعي السياسي والاجتماعي لشعوبها. في سنة 1776م ثار مستوطنو أميركا على بريطانيا التي كانت تحكمهم، وحقَّقوا استقلالهم الذي وُلدت معه أول دولة للأوروبيين في الخارج، وهي الولايات المتحدة الأميركية. أثناء تلك الثورة، دعمت فرنسا الأميركيين ضد بريطانيا التي كانت قد هزمت فرنسا عدَّة مرات في بداية النصف الثاني من ذلك القرن، واستولت على بعض مستعمراتها. وبسبب صرف فرنسا الكبير على دعم الثوَّار أنهكت الديون حكومتها، ورفضت الطبقة الارستقراطية دعمها وطالبت بأن يتولَّى مجلس طبقات الأُمَّة الأمور المالية للدولة بدلاً من الملك. وكان المجلس يضم ممثِّلي طبقات النبلاء والأرستقراطية والبرجوزاية، إلى جانب رجال الدين، ولم يكُن للشعب أو طبقة العامة تمثيل فيه.

لم يستمر عمل المجلس في ظروف الأزمة المالية، ودار صراعٌ شديد بين الطبقات حول حقوق وامتيازات كل منها، فانتقل الصراع بينها الذي كان محتدماً في أوروبا كلها طوال العصور الوسطى إلى مجال السياسة. وكان سبب ذلك أوضاع التمييز التي قام عليها النظام الإقطاعي الأوروبي وشملت كافة مستويات الحياة، بحيث إنَّه لا يمكن فهم بداية حراك التغيير في فرنسا

وانتهائه بالثورة، إلا بمعرفة مدى عمق التمييز بين طبقات المجتمع، الذي كان مسنوداً بسلطتَي الدولة والكنيسة.

تمثَّل المظهر الأوضح للتمييز الطبقي في الضرائب القاسية المفروضة على الطبقات الدنيا، التي كانت تشمل طبقتَي العامة والبرجوازية، ولم يُفرَض إلا القليل منها على الأرستقراطيين والنبلاء. شملت الضرائب كل ما يحتاجه الناس وما يمارسونه من أنشطة يومية، بدءاً بما يملكونه من حيوانات وما ينتجونه من محاصيل وما يتناولونه من طعام، وصولاً إلى السير على الطرقات ونقل الممتلكات والسلع، والتنقُّل الشخصي وعبور الأنهار. وكانت ضريبة الملح تُثقِل كاهل كل فرنسي، وهي ضريبة فرضتها الحكومة لأنها كانت تحتكر الملح في فرنسا منذ سنة 1286م، وكان يدفعها، أو تُدفَع عن كل فرنسي تجاوز عمره ثمان سنوات. ومن حيث حق المِلكية، كانت كل الأراضي الزراعية في فرنسا موزَّعة على النبلاء والأرستقراطيين ورجال الدين، وظلّت الوظائف الإدارية والمناصب السياسية والعسكرية أيضاً حقاً للنبلاء والأرستقراطيين فقط. ومُنع العامة من ممارسة المهن والحرف إلا بتصريحات من الدولة التي كانت تبيعها للبرجوازية. وكانت الدراسة في الجامعات تكلِّف كثيراً من المال، وظلّ المتعلمون يعملون في مجال تعليم أبناء النبلاء والأرستقراطيين، فصار التعليم الجامعي أيضاً محتكَراً للمقرَّبين من الطبقات العليا.

باختصار، كانت كل الامتيازات ومعظم الحقوق العامة مقصورة على الطبقات العليا بقوة القانون، أمَّا عامَّة الشعب فكانوا فلاحين يعيشون ويعملون لدى الإقطاعيين الذين يملكون الأراضي الزراعية الشاسعة، وامتلك بعضهم قرى كاملة بأراضيها ومزارعها وأنهارها وطرقها. وبقي الفلَّاح ملزَماً بطحن حبوبه في مطاحن الإقطاعي، فكان غارقاً في الديون معظم عمره ملزَماً بعمل شبه

مجّاني لسيده، وبهذا كان نظام الإقطاع أقرب إلى العبودية[1]. أمَّا البرجوازية، وهم سكَّان المدن من التجَّار ومنتجي الصناعات الصغيرة التي كان دورها في الحياة العامة يتزايد، فقد ظلَّت أيضاً محرومة من كثير من حقوق الأرستقراطيين والنبلاء. وهذا وضعٌ لم يكن مألوفاً خارج أوروبا.

شكَّلت هذه المظالم التي وسمَت النظام الإقطاعي الدوافع الأساسية للثورة الفرنسية بسبب تصادم مصالح الطبقات، فبينما حرصت الأرستقراطية على استمرار تلك الأوضاع التي تضمَن لها تميُّزها، طالبت البرجوازية بمساواتها مع الأرستقراطية في الامتيازات التي تقدِّمها لها الدولة، ومن جهتها اكتفت طبقة العامة بالتطلُّع إلى خفض الضرائب والحصول على حق ممارسة الحِرَف والخدمة في الجيش.

مع ظهور بوادر الثورة سعى الملك إلى الحدِّ من إمكانية انتشارها برفع تمثيل طبقة البرجوزاية في مجلس طبقات الأمة، فضاعف عدد ممثِّليها فيه. ولمَّا اعترض الأرستقراطيون على ذلك، اتَّحد النبلاء مع البرجوازيين ضدهم، فنشبت حرب أهليَّة في يناير سنة 1789م. ثم تدخَّل العامة، الذين لم يكونوا جزءاً من مجلس طبقات الأمة، وطالبوا بخفض الضرائب ومساواة كل فئات الشعب فيها، كما طالبوا بإلغاء سلطة الإقطاعيين ومساواة الفرنسيين في الحقوق الاجتماعية. وهنا اتّفق ممثِّلو البرجوازية مع ممثِّلي الأرستقراطية على إبقاء النظام المَلَكي بشرط تقييد سلطة الملك المطلقة، واقترحوا أن يتم اختياره بواسطة الشعب وتُزاد الحريات العامة، وتُتاح الحرية الدينية وحرية الصحافة. فاستجاب الملك إلى بعض هذه الشروط.

في هذه الأثناء اندلعت أزمة اقتصادية بسبب انخفاض أسعار الحبوب وكساد سوقها، فثار المزارعون وعمَّت الاحتجاجات وتصاعدَ الصدام بين السلطة

---

1 زينب عصمت راشد: **تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر**، (القاهرة: جامعة عين شمس، 1976). ص 48-50.

الملكية وغالبية طبقات المجتمع[2]. ومع العام التالي، أي في سنة 1791م، رجحت الكفّة لصالح البرجوازية فحُلَّت نقابات الحرفيين وحصل الجميع على حق ممارسة الصناعات والحِرف. رغم ذلك لم تنخفض وتيرة الحراك فهاجمت الجماهير مقر الملك لويس السادس عشر في العاشر من أغسطس سنة 1792م وبدأت محاكمات عشوائية لمعارضي الثورة، ومورس الإعدام بطريقة تعسُّفية وقُتِل كثيرون ظُلماً في تلك الفترة التي عُرفت في التاريخ الفرنسي باسم "عهد الإرهاب". وفي العشرين من سبتمبر أُجري تصويت على قوانين الحياة المدنية فسُمِح بالطلاق وصُودرت ممتلكات الكنائس واستولت تجمعات الجماهير على أراضي الإقطاعيين، ومُنح الشعب حق العمل في الجيش وممارسة المهن المختلفة. وفي بداية سنة 1793م وُجِّهت إلى الملك تهمة الخيانة وأُعدِم في صباح يوم 21 يناير، وتحوَّل نظام الحُكم في فرنسا رسميَّاً إلى حُكم جمهوري. هذه هي القصَّة المختصرة للثورة الفرنسية.

بالنسبة للفرنسيين تتمثَّل القيمة الجوهرية لثورتهم في أنَّها خلَّصتهم من التمييز الطبقي الذي حماه القانون، وفي حصول عامَّتهم على حق ممارسة المهن والتجارة، والمشاركة في الحياة السياسية. ولأن هذه الحقوق كانت مقيَّدة لدى الفرنسيين ومعظم الأمم الأوروبية؛ اتَّخذت الثورة الفرنسية مكانة رفيعة في تاريخ أوروبا كلها. ويمكن أن نلخِّص إنجازاتها في أنَّها حقَّقت للفرنسيين ما كان متحقِّقاً لدى شعوب كثيرة خارج أوروبا فجعلت أوضاعهم مماثلة لبقية البشر، لكنها لم تحقِّق إنجازات تُكسِبها مكانة فريدة في تاريخ العالم، كما تُصوِّرها نصوص التاريخ الغربي. وإن كانت تبدو للأوروبيين حدثاً عظيماً فهذا بسبب المظالم الاستثنائية التي عاشها الفرنسيون وجيرانهم في حقبة الإقطاع، فهي ثورة أتاحت للفرنسيين إزالة سلبيات حياتهم، وليس تحقيق إيجابيات تفوق ما كان متوفِّراً لغيرهم.

---

2 جورج ليفير: **عصر الثورة الفرنسية**، تعريب جلال يحيى، (بيروت: دار الكتب الجامعية، 1970). ص 133.

عملياً، كانت طبقة البرجوازية هي المستفيد الأول من الثورة، أمَّا عامة الشعب والفئات الفقيرة فلم تُحقِّق لهم شيئاً كثيراً. وكان من بين ما حقَّقته الثورة (إعلان حقوق الإنسان) الذي تَبَنَّى منه الدستور الفرنسي نصاً يشير إلى أولوية العدالة والمساواة بين الناس. ولقد أوجدت هذه الإنجازات حماساً كبيراً للثورة في بلاد غرب أوروبا لأنها أثبتت إمكانية التخلُّص من النظامين الإقطاعي والملكي وتسلُّط الكنيسة، فأثَّرت الثورة على معظم بلاد غرب ووسط أوروبا وعلى بعض مفكِّري ألمانيا خاصة، وصارت نموذجاً للتقدُّم.

يناقش هذا الفصل دلالة التحولات التي حقَّقتها الثورة الفرنسية في تاريخ أوروبا، وما يُعزَى إليها من مكانة جوهرية في العصر الحديث، خاصة ما ينسبه إليها الفكر الغربي من نشر قيم العدالة والحرية والمساواة على نطاق عالمي. يتناول الفصل مآلات أهداف الثورة ويقارن بينها وبين ثورات أميركا اللاتينية، مثل ثورة بيرو التي سبقتها وثورة هاييتي التي أعقبتها، ليخلص إلى تقييم مكانتها في العصر الحديث من منظورٍ غير متمركز حول تاريخ أوروبا. وقبل ذلك نتعرَّف على تقييم الأوروبيين أنفسهم للثورة لتوضيح مواقف كبار المفكِّرين منها ومقدار اتفاقهم أو اختلافهم حول مكانتها في التاريخ.

بلغت تنوُّعات آراء المفكِّرين الأوروبيين حول الثورة الفرنسية حد التناقض، فقد مجَّدها المؤرِّخ جول ميشليه إلى حد أنَّه اعتبرها تمثِّل التطابق بين إرادة الأُمَّة وإرادة الرب، ورأى توكفيل أنَّها ملتبسة الملامح ومتضاربة النتائج، أمَّا جاك بيرك فقد عدَّها كارثة. وفي السنوات التي أعقبت الثورة وضح للكثيرين عدم اكتمال مشروع التحرُّر الذي نادت به، فرغم أنَّ ماركس وصفها بأنها "أضخم ثورة عرفها التاريخ" من جهة أنَّها حرَّرت البرجوازية، إلَّا أنَّه بحُكم منهجه الجدلي ربَطَها بجانب سلبي ترتَّب عليها، هو توسيع نطاق العنف، فأشار إلى ما ترتَّب عليها من غزو فرنسي للقارة الأوروبية، وما كانت تحمله

من وعيد قمع برجوازي للعمال، يسكن رحم المستقبل. وبالمقارنة مع لحظات تالية في تاريخ فرنسا، لم يتَّخِذ ما حقَّقته الثورة دلالة تحوُّل حاسم عند ماركس، فقد اعتبر ثورة باريس التي حدثت في سنة 1871م أول ثورة حقيقية شملت نتائجها قطاعات واسعة من الشعب الفرنسي، وذلك لسببين في رأيه: الأول هو طابعها البروليتاري الواضح، والثاني أنَّها كانت ذات مضمون اقتصادي واجتماعي تجاوزَ الاكتفاء بتغيير النظام السياسي والقوانين، وهو ما توقفت عنده ثورة 1789م. وتوقَّع ماركس أن تتَّجه البرجوازية بعد الثورة إلى قمع الشعب لتحافظ على المكاسب التي حقَّقتها لنفسها على حساب طبقة العامة.

اليوم أيضاً تتباين المواقف من الثورة الفرنسية، فإيمانويل والرشتين يرى أنَّها نشرت مبادئ الحرية والمساواة والإخاء، وألهمت حركات التحرر الوطني[3]، أمَّا من حيث نتائجها في فرنسا فيرى أنَّها فشلت أكثر مما نجحت، وأنها لم تحقِّق تحوّلات أساسية لا على الصعيد السياسي ولا الاقتصادي[4]. ويوافق إريك ولف أيضاً على أنَّها لم تحقِّق تحولات كبيرة، فيقول عنها:

> **"لقد كانت ثورة ضد الأرستقراطية بكونها حرَّرت الفلاحين من دفع الخِراج وفتحت الطريق إلى الجمهورية الثالثة، لكنها لم تمهِّد الطريق إلى التطوُّر الرأسمالي. إنَّ البرجوازية التي حرَّرتها الثورة لم تكن طبقة رأسمالية صناعية، بل كانت برجوازية حِرفيين وأصحاب محلات وتجَّار ومستثمرين صغار، فالصناعات الثقيلة لم تتطوَّر في فرنسا حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر"**[5].

---

3 ايمانويل والرشتين، وآخرون: **الاضطراب الكبير**، ترجمة عصام خفاجي وأديب نعمة، (بيروت: دار الفارابي، 1991). ص 10.

4 Wallerstein, Immanuel; *The Modern World System III, Mercantilism and the Consolidation of World European Economy 1730-1850,* (San Diego, California: Academic Press, 1974). p. 52.

5 Wolf, Eric: *Europe and the People without History,* (Berkley: University of California Press , 1982). p. 118.

توضِّح المراحل التي أعقبت الثورة مدى تواضع نتائجها، فحكومتها التي لم تستمر إلا ثمان سنوات (1791-1798) هي فترة حُكم الجمعية التشريعية والجمهورية الأولى؛ كانت مجرَّد خطوة في طريق طويل للتحرُّر ولم تُحدِث تغيرات تُذكَر في تلك الفترة القصيرة. وبعدها مباشرة استولى نابليون بونابرت على السلطة في سنة 1799م فعاد حُكم الفرد في صيغة إمبراطور عسكري، ومع تبنِّي نابليون لأفكار الثورة وشعاراتها شجَّع التوسُّع الاستعماري معتبراً أنَّه يتوافق مع مَهمَّة نشر مبادئ الثورة. بعد نابليون عاد الحُكم الملكي مع لويس الثامن عشر (1814-1824)، وتلاه تشارل العاشر (1824-1830) الذي حلَّ مجلس النواب وقيَّد حرية الطباعة وحق التصويت الذي كان محدوداً في الأصل. ولم تعُد الديموقراطية إلى فرنسا إلا عندما ثار العمال على الملك لويس فيليب، الذي حقّق بعض الإصلاحات فرفع عدد مَن يحقُّ لهم التصويت بتقليل كميَّة الممتلكات التي كانت شرطاً للتصويت. وفي سنة 1848م اندلعت الثورة على فيليب فيما عُرِف في تاريخ فرنسا باسم الجمهورية الثانية وتولَّى حُكم فرنسا لويس بونابرت، المسمَّى نابليون الثالث، وهو ابن أخ نابليون بونابرت، بعد أن جاء بما يشبه الانقلاب. وفي عهده حصل كل الرجال على حق الانتخاب، الذي كان مقيَّداً قبل ذلك بحجم ما يملكه الفرد، فلم يكن يحق لمعظم الشعب المشاركة في اختيار الحاكم. خلاصة هذا، أنَّه على امتداد ما يقارب ثمانين عاماً بعد الثورة، التي لم تحكُم سوى ثمان سنوات، حُكِمت فرنسا بأنظمة ملكية أو فردية مطلقة ولم تتوسَّع فيها الحقوق أو تستقر الديموقراطية إلا بعد ما يقارب القرن.

يُستنتَج من هذا أن الثورة الفرنسية لم تكن لحظة تحوُّل فاصل في تاريخ فرنسا، وإنما كانت جزءاً من مسيرة طويلة جداً تعرَّضت لانتكاسات كثيرة. والصحيح أنَّها كانت بداية لعملية تحوُّل اجتماعي وسياسي بطيئ ومتقطِّع،

تحقَّقت نتائجه تدريجياً عبر سلسلة ثورات، لا بثورة واحدة. لذا، فإنَّ اختيار لحظة معينة في مسار تلك التحولات واتخاذها لحظة مرجعية دون لحظات الفشل التي أعقبتها والانقطاعات التي مرت بها، يشكِّل جزءاً من محاولة اصطناع تاريخ عظيم يتقدَّم من نجاح إلى نجاح، يكتسب قيمته لدى الفرنسيين وحدهم. في الخارج لم تكتسب ثورة الفرنسيين معنى يُذكر في وقتها، سواء في بريطانيا أو بقيَّة دول أوروبا. وفي ألمانيا يُفسَّر حماس بعض مثقَّفيها للثورة الفرنسية ببؤس الأوضاع الداخلية لألمانيا التي كانت مجموعة دويلات ضعيفة مفكَّكة سيطرت عليها النمسا وفرنسا، فحَلُم مثقفوها بدولة موحَّدة ذات سيادة ألمانية تتمتع بحُكم جمهوري، مثل فرنسا.

بنظرة عامة تظهر ملاحظتان مُهمَّتان حول الفترة التي تلت الثورة الفرنسية. أولاهما أنَّه على مدى السنوات الثمان التي استمرَّت فيها حكومة الثورة اقتصر تطبيق شعار الثورة: حرية وإخاء ومساواة، على الفرنسيين وحدهم. أمَّا بالنسبة إلى شعوب المستعمرات فلم تكن شعارات الثورة تعني شيئاً، لأن تسلُّط الفرنسيين عليها ظلّ مستمراً، والمُثُل التي رفعتها الثورة لم تحقِّق إزالة علاقات الاستبداد التي فرضها عليهم الفرنسيون. لقد كان مفهوم "الإنسانية" الذي تضمَّنه دستور الثورة يشير إلى إنسانية الفرنسي، وفي أكثر معانيه اتساعاً كان يشير إلى الأوروبي، ولم يُقصَد به عامة البشر. والملاحظة الثانية هي تصاعد نزعة التوسُّع الخارجي في فرنسا بعد الثورة، إذ وُظِّفت فكرة الثورة لتطوير الممارسات الاستعمارية التي كانت فرنسا قد نشطت فيها قبل حوالي قرن من بداية الثورة، فقبل مضي عشر سنوات على نجاح الثورة بدأ نابليون يغزو أوروبا بحُجَّة نشر مبادئ الثورة، وسعى للسيطرة على بعض بلاد الشرق وشمال أفريقيا، فبدأ بغزو مصر وفلسطين. ولأن نجاح الثورة اعتمد على استخدام القوة في تصفية الحسابات بين بعض أطرافها السياسية، توافقَ توظيف العنف مع نزعة التوسع الاستعماري الفرنسي، فتماثلت نتائج الثورة في الداخل والخارج، وأفرزت نتائج مضادَّة لما نادت به شعاراتها.

يُنسَب إلى نابليون العمل على نشر قيم الثورة ومبادئها في أوروبا، فقد مدحه هيغل لأنَّه عندما اجتاح ألمانيا قدَّم لمواطنيها وعوداً بإصلاحات سياسيَّة. لكنَّ تلك الوعود لم تلبث أن تلاشت، وأحبط هيغل. أمَّا غزوه لمصر في منتصف سنة 1798م، فيمكن أخذه مثالاً لما أعقب الثورة من توجُّه نحو توسيع نطاق الهيمنة، والتعرُّف على هذا الجانب يتطلَّب عدم الاعتماد على الرواية الفرنسية والرجوع إلى النصوص التاريخية المكتوبة من وجهة نظر المصريين، رغم ندرتها.

تُبيِّن النصوص التي دوَّنها المؤرِّخ المصري عبد الرحمن الجبرتي بين نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، والتي وثَّقت للغزو يوماً بيوم، أن نابليون لكي يسيطر على المقاومة المصرية اعتمد على توزيع منشورات صاغ فيها صورةً لفرنسا تركِّز على مبادئ الثورة. شدَّد فيها على فكرة المساواة بين البشر عموماً، وألبسها ثوباً دينياً لنزع الشرعية عن حُكم المماليك وإضفاء شرعيةٍ على حُكم الفرنسيين. حسب قول الجبرتي، كتب نابليون للمصريين في منشوره الأول، الموقع بتاريخ 6 يوليو 1798م:

> **"إنَّ جميع الناس متساوون عند الله، وإنَّ الشيء الذي يفرِّقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملّكوا مصر وحدهم ويُختصوا بكل شئ حسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق؟"**[6].

في بقيَّة منشوره هذا وعدَ نابليون أهل مصر بإشراكهم في إدارة بلدهم واتاحة الفرصة لهم للحصول على المناصب العليا، ويُلاحظ أن هذين الوعدين مستخلصان من مطالبة البرجوازية الفرنسية أثناء الثورة بالمشاركة في السلطة

6 الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن): **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج 3، (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1998). ص 5.

وفتح وظائف الدولة أمام الجميع، فاستخدمهما نابليون في مصر ليخلق لسلطة الغزاة صورة جاذبة. ولأنه لم يكن مهتمّاً بمعرفة أوضاع المصريين أو تعديلها اكتفى بإسقاط أحوال الفرنسيين عليهم، وحاول توظيف صورة فرنسا باعتبارها بلداً استجاب إلى مطالب شعبه الثائر، ليضمَن خضوع المصريين له. ولم يكتف نابليون بتبرير الغزو الفرنسي لكنه طلب من المصريين قبول الأتراك والفرنسيين حكاماً[7]. لقد نظر الفرنسيون إلى المصريين على أنهم موضوع امتلاك تتقاسمه القوى الاستعمارية، فوضعوهم في مكانة أدنى من الأوروبيين رغم أن ثورتهم ركَّزت على فكرة المساواة. وبما أن نابليون افتتح منشوره بعبارة أن البشر متساوون ولا يفرق بينهم إلا العقل، وهي مقولة تعود إلى فكر التنوير، ثم اصطنع فرقاً بين الفرنسيين والمصريين فلا بدَّ أنَّه كان يفترض تدنِّي عقل المصريين عن الفرنسيين.

إنَّ تجاوز مزاعم سعي الفرنسيين إلى نشر العدالة والمساواة في مصر يوضِّح أن الهدف الفعلي لغزوها كان خدمة المصالح الاستراتيجية والاقتصادية لفرنسا. ولقد أدرك ذلك الجبرتي منذ البداية فقال إنَّ تلك الأهداف كانت تتضمَّن فتح المجرى الذي يصل النيل ببحر السويس للسيطرة على الطريق التجاري الذي يربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط، لأن تجارة بريطانيا مع الهند كانت تمر به، ففي تلك الفترة كان الصراع بين فرنسا وبريطانيا على أشدّه[8]. إذاً، لم تغب حقيقة الغزو الفرنسي عن معاصريه من المثقفين المصريين، أمَّا التصوُّرات الرائجة لدى المثقفين العرب المعاصرين حول أن الحملة الفرنسية حملت إليهم الحداثة وقيمها الإيجابية، فهي نتاج المزاعم الاستعمارية التي

7 الشيء الذي يشير إلى أن نابليون لم يكن معنياً بتحقيق العدالة أو المساواة بين البشر، أن منشوره تحدَّث عن الجواري من ناحية أن امتلاكهنَّ يجب أن يكون حقاً عاماً، فتحقيق المساوة بين المصريين يعني تعميم حق الرجال في استعباد النساء، وهو يضعهنَّ مع الخيل كموضوعات للتملُّك والاستخدام العام.

8 المرجع السابق، ص 73.

صاغها المؤرِّخون الأوروبيون حول الثورة الفرنسية، والتي تمثِّلها بأنها حملت التحرُّر وقيم العقلانية والإنسانية إلى شعوب العالم التي كانت تعيش القهر والاضطهاد.

إنَّ ربط الخطاب النابليوني حول مصر بالأوضاع التاريخية التي صيغ فيها هو الذي يسمح بفضّ ذلك الخطاب والتعرُّف على محتواه ووظائفه. وبغض النظر عن سطحه الذي يركِّز على أطروحات الحرية والعدالة والمساواة، يُلاحظ أن الفرنسيين مارسوا في مصر الاستبداد الذي مارسه الغزاة الأوروبيون أينما حلوا، فأوقعوا بهم جميع أنماط العنف التي مارسها الأوروبيون على شعوب أميركا عندما غزوها في القرن السادس عشر، وإن وُجِد فارق كبير فهو في أعداد الضحايا. لقد استخدم الفرنسيون أجساد ضحاياهم من المصريين وسيلة لتحويل الفضاءات العامة والمدن إلى فضاءات رعب وساحات عرض للعنف الغاشم، فبعد إذلال وتعذيب رجال المقاومة، كانت رؤوسهم تُقطَع وتُعلَّق فوق بيوتهم وفي الشوارع لإظهار سطوة الغزاة، وإمعاناً في إرهاب الثوار وإذلال أهل الضحايا[9].

لم يتغيَّر موقف الفرنسيين من شعوب المستعمرات بعد الثورة لأن التقاليد الراسخة في التمييز بين الأوروبيين والبشر الآخرين لم تكن مستهدَفة بالتغيير، فاستمر الحال كما في بقيَّة بلاد أوروبا. والشيء الذي يؤكد استمرار التمييز هو أن الغزو الفرنسي لمصر والشام وبلاد الكاريبي لم يلق اعتراضاً من قوى الثورة في فرنسا، أمَّا غزو البلاد الأوروبية فحظي بنقد صريح. بعد الثورة بوقت قصير ظهرت دعوات لمشروع سلام قُصِد منه التوصُّل إلى تعايشٍ آمن بين الأوروبيين، يمنع الغزو المتبادَل الذي كان يتزايد في سياق صراعهم على

9 المرجع نفسه، ص 132.

امتلاك أراضي العالم. ولم يكن مشروع السلام ذاك معنياً بحصول شعوب المستعمرات على شيء من السلام رغم أنَّه سُمِّي "مشروع السلام العالمي".

في منتصف القرن التاسع عشر كتب المفكر الفرنسي بيير- جوزف برودون (Pierre-Joseph Proudhon: 1809-1865)، أحد أهمّ مفكِّري الاشتراكية، داعياً إلى تحقيق توازن بين الإمبراطوريات الأوروبية التي تصارعت على غزو دول أوروبا الضعيفة، مثل إيطاليا وبولندا. عارض برودون التوسُّع الإمبراطوري داخل أوروبا معتبراً أنَّه يُهدِّد أمنها، وتنبَّأ بظهور تحالف برلماني للبرجوازية يحقِّق الأهداف الاجتماعية التي فشلت في تحقيقها ثورة 1848، واعتبر أن الحرب بين الأمم الأوروبية لن تنتهي إلا بنهاية الظلم الواقع على عمَّالها[10]. وعلى طريقة تمجيد الثورة الفرنسية، اعتبر برودون ثورة 1848م حدثاً مهمَّاً في تاريخ الإنسانية كلها، لا في تاريخ فرنسا وحدها، فخاطب في بيانه البرجوازية الفرنسية رافعاً مكانتها في التاريخ بقوله: "يا رجال الأعمال الفرنسيين، إنَّ المبادرة إلى تحقيق التقدُّم للإنسانية رهن أيديكم. إنَّ العامل غير الماهر يقبل بكم سيِّداً له، ونموذجاً"[11].

يطالب برودون البرجوازية الفرنسية بأن تقود الإنسانية كلّها نحو التقدُّم، وهذا يماثل ما رآه ماركس في نفس الفترة، عندما اعتقد أنَّ خلاص الإنسانية يتوقَّف على قدرة البروليتاريا الأوروبية على انتزاع السلطة من الطبقة البرجوازية. لقد تركز اهتمام الفكر الأوروبي بعد الثورة الفرنسية على دور البرجوازية في التاريخ العالمي، فصار خلاص جميع شعوب العالم عند برودون وماركس ومفكرين آخرين، يرتبط بما وعدت به البرجوازية من خلاص لمجتمعات أوروبا. وهذا التصوُّر الذي يرى أن مصير الإنسانية كلها يتحدَّد بما يجري في أوروبا

10 Prichard, Alex; *Justice, Order and Anarchy,The International Political Theory of Pierre-Joseph Proudhon,* (London and NewYork: Routldge, 2013). p p. 44-45.

11 Proudhon, Pierre-Joseph; *The Idea of the Revolution of the Ninteenth Century,* (New York: Haskel House Publishers, 1969). P. 6.

هو الذي يؤسِّس للخطاب الذي يعزو إلى الثورة الفرنسية نشر التحرُّر والمساواة، ويتغاضى عن الثورات الكبيرة المتعددة التي كانت تجري خارج أوروبا بهدف التحرُّر من الاستعمار.

بما أن التمييز بين الشعوب ظلَّ مستمرّاً ولم تستهدف الثورة الفرنسية إلغاءه؛ فإنَّ عالمية قيم الحرية والعدالة والمساواة لا يمكن ربطها بتلك الثورة بقدر ما يمكن ربطها بالثورات التي قادتها شعوب الجنوب في تلك الفترة، وعلى رأسها ثورة بيرو التي انطلقت في سنة 1780م، أي قبل الثورة الفرنسية بتسع سنوات. هناك ثار تحالف عريض من مختلف طبقات الشعب على الإسبان الذين حكموا بيرو بعد أن كانوا قد نجحوا في غزوها في سنة 1535م. بدأت الثورة في مدينة كوثكو، وكانت مطالبها الرئيسية هي مساواة المواطنين بالإسبان وتحقيق العدالة برفع مظاهر الاضطهاد وإزالة الضرائب المجحفة وتحرير الفلاحين من سيطرة مُلاَّك الأرض، المماثلة لما كان إقطاعيو أوروبا يمارسونه ضد شعوبها[12]. وكانت المطالب والشعارات مماثلة لما ستقوم به الثورة الفرنسية بعد عدة سنوات، لكن أسبقية ثورة بيرو على الثورة الفرنسية لا يُشار إليها في التاريخ الحديث الذي كتبه الأوروبيون، لأنهم قمعوها بعنف.

من حيث سعة تأثيرها على وعي الأميركيين ومن حيث الرقعة الجغرافية التي شملتها، تعدُّ ثورة بيرو أكبر الثورات في تاريخ أميركا اللاتينية، فقد غطت منطقة شاسعة ضمَّت بيرو وبوليفيا وأجزاء من تشيلي وكولمبيا والأرجنتين. قُبيل اندلاع الثورة كانت أوضاع مواطني بيرو قد تدهورت كثيراً، فانتُزِعت حقوقهم المادِّية والثقافية وأُخضِعوا لاستغلال كان أقرب إلى نظام الاستعباد. ولمَّا لم تستجب السلطات الإسبانية لمطالب المواطنين اندلعت الثورة المسلَّحة، فحرَّرت العمال في المناطق التي تركَّزت فيها صناعة النسيج، والتي كانت

12 Walker, Charles F.: *Tubac Amaru Rebellion,* (U. S. A., Pelknap Press, 2014). P. 6.

بمثابة معتقلات ضخمة، وقام الثوار بتوزيع إنتاج العمال عليهم. قاد الثورة جوزيه غابرييل (Jose Gabriel 1738–1801)، الزعيم المحلي الذي نسَب نفسه إلى توباك أمارو (Tupac Amaru 1545–1572) زعيم بيرو في بداية الغزو الإسباني، فعُرِف غابرييل بين أهل بيرو باسم توباك أمارو الثاني، تقديراً لمكانته. وفي سنة 1781م حاصر الثوار مدينة كوثكو فاستسلمت لهم، واتسع نطاق الثورة فحُوصرت مدن مُهِمَّة أخرى كبيرة، منها مدينة تشاركا. وعندما بدأت علامات نجاحها تلوح في الأفق تدخَّلت إسبانيا ودعمت أصحاب الأصول الأوروبية لتمنع اتّساع نطاق الثورة، فاستعاد الأوروبيون سيطرتهم على المدن المحاصرة.

قبضَ الإسبان على زعيم الثورة توباك أمارو وزوجته ميكالا باستيداس (Micaela Bastidas). وفي الثامن عشر من شهر مايو سنة 1781م قُيِّدت أيديهما وأقدامهما ورُبِطا خلف حصانين، وبدأ جرُّهما على الأرض لمسافة طويلة أوصلتهما إلى ساحة في وسط المدينة، وهناك وجدا كل أعضاء أسرتيهما، الصغيرة والكبيرة، قد قُبض عليهم. وبعدها أجبرهما الجلادون على مشاهدة جميع أفراد أسرتيهما يُقتلون واحداً بعد الآخر. قُدِّم العرض على طريقة "العنف المسرحي" الذي كان الأوروبيون يمارسونه ضد شعوب الأميركتين بعد وصول كولمبس إليها، اعتماداً على تراث التعذيب الموروث عن محاكم التفتيش في أوروبا. بدأ العرض بإعدام الابن الأكبر للزوجين، وتتابعت عمليات الإعدام حتى قُضي على كل الأسرة، ثم قُطِع لسان الزوجة ميكالا وخُنِقت حتى الموت. وبعدها قُيِّدت أطراف توباك أمارو إلى أربعة خيول اندفعت بقوة في الاتجاهات الأربعة فتخلَّعت أطرافه من مواضعها دون أن تنفصل عن جسده، ثم قُطع رأسه. في الفصل الثاني من مسرحية العنف جزّ الجلادون رؤوس وأطراف كل قتلى الأسرة وأُرسِلت إلى مدن بيرو التي شاركت في الثورة، ليُطاف بها بين سكانها، كما سيفعل نابليون لاحقاً في مصر بجثث الثوار. أمَّا أصغر أبناء

توباك أمارو والذي كان في سن الطفولة، فقد تعرَّض إلى نوع فريد من التعذيب، إذ أبقوه وحده على قيد الحياة لكي يشاهد تفاصيل تعذيب وتمزيق أفراد أسرته واحداً بعد الآخر، ثم أرسلوه إلى إسبانيا حيث سُجِن هناك لمدة عشر سنوات.

بسبب حرص الأوروبيين على التعتيم على العنف الذي قُمِعت به تلك الثورة العظيمة، ضرَبَت نصوص مؤرِّخيهم ستار صمت حديدي حولها لم يُرفع إلى اليوم. كانت ثورة بيرو أول ثورة في العصر الحديث تستهدف تحقيق الحرية والعدالة والمساواة بغضِّ النظر عن فروق القومية والطبقة والثقافة، فكانت أوسع غاية من ثورة فرنسا التي اقتصرت على تحقيق مصالح جزء من مواطنيها. حقَّقت ثورة بيرو الكثير لشعوب أميركا في مجال رفع وعيها بحقوقها وحقوق عامَّة البشر، وكانت الخطوة التي مهَّدت لاستقلال بيرو عن حُكم الإسبان، وبعد ذلك ألهمت شعب هاييتي نضاله ضد الفرنسيين[13]. لكن المؤرِّخين الغربيين يردون فضل النضال من أجل الحرية والمساواة وحقوق الإنسان إلى أوروبا فقط، ويخصُّون بها الثورة الفرنسية متجاهلين أسبقية نصال الشعوب الأخرى.

رغم أن بعض المؤرِّخين المعاصرين يعدُّون ثورة بيرو أضخم من الثورة الأميركية، إلا أن الرواية الغربية السائدة حول العصر الحديث تتجاهل أنَّها تشكِّل مع ثورة هاييتي وثورة الولايات المتحدة، منظومة الثورات التحررية الأولى، التي بدأت خارج أوروبا. وبهذا المعنى، كانت الأوضاع واحدة على جانبي المحيط الأطلنطي في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، فثورة استقلال الولايات المتَّحدة والثورة الفرنسية تدينان إلى المناخ الثوري العام الذي ساد المنطقة وشمل ثورات أميركا اللاتينية. لقد كانت ثورات الولايات المتّحِدة وبيرو وبوليفيا وهاييتي ذات أثر عالمي بدأ خارج أوروبا، ولكي تُفهَم الثورة الفرنسية بطريقة تاريخية صحيحة يجب أن تُدرج في منظومة تلك الثورات

13 للاطلاع على معلومات حول ثورة بيرو مأخوذة من مصادرها المحلية، انظر:
Stavig, Ward and Schmidt, Ella: *The Tupac Amaru and Catarista Rebellions: An Anthology of Sources*, (Indanapolis, Cambridge: Hackett Publishing Company, 2008).

وتُفهم في سياقها وباعتبارها تالية لها وتحتل مكانة محدودة بينها. لقد حقَّقت ثورة هاييتي تحرُّراً أوسع مما حقَّقته الثورة الفرنسية لأنها أزالت كل ظواهر التمييز من تراتب اجتماعي واستعباد واستعمار وتمييز عنصري. وللتعرف على ما حقَّقته ثورة هاييتي وموقف ثوار فرنسا منها، الذي يكشف حدود قيم وشعارات ثورتهم، يجب عرض بعض مراحلها باختصار.

في أواخر أغسطس سنة 1789م، وبمجرَّد نجاح الثورة الفرنسية، علِم مستعبدو هاييتي بإعلان حقوق الإنسان الذي نشرته الجمعية الوطنية الفرنسية، وما تضمَّنه من عبارات صريحة تنصُّ على أن جميع الناس أحرار ومتساوون. رحَّبَ مستعبدو هاييتي، الذين كان عددهم يساوي عشرة أضعاف أحرارها الفرنسيين والمولَّدين، بذلك الإعلان. لكن قيادات الثورة الفرنسية لم تعمِّم مبادئها على مُستعبَدي المستعمرات أو تُطبِّقها بحيث تؤدِّي إلى تحريرهم، فاستمر الاستعباد محمياً بالقوانين الفرنسية فترة عامين بعد نجاح الثورة، وحتى الهاييتيون الأحرار ذوي الأصول غير الأوروبية، مُنعوا من حقوقهم بموجب قوانين العنصرية. وفي سنة 1791م أعدمت سلطات هاييتي الفرنسية مواطناً ملوَّناً طالب بحقه في التصويت، رغم أنَّه كان ينتمي إلى طبقة الأحرار الأثرياء. فبحسب ما سمعه ذاك المواطن من شعارات الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان ظنَّ أنَّه أصبح مساوياً للفرنسيين وطالب بحقه في التصويت، فقُبِض عليه وعُذِّب بأن حُطِّمت عظامه على عجلة مخصّصة لذلك، ثم قُتِل ببطء.

على طول السنوات الأولى للثورة الفرنسية استمرّ القَمع الفرنسي لمواطني هاييتي المطالبين بالمساواة بعنف بالغ، وبعد أن انتظروا نيل حريتهم دون جدوى، انطلقت ثورتهم في أغسطس سنة 1791م، وبحلول السنة التالية نجح الثوار في السيطرة على ثلث هاييتي وتوسَّعت سلطتهم حتى كادوا أن يسيطروا على كل الدولة. وفي سنة 1793 انتهزت بريطانيا وإسبانيا فرصة الاضطرابات السياسية في فرنسا وأعلنتا الحرب عليها. وفي ظل هذه الظروف الضاغطة،

وبعد مماطلة دامت ثلاثة أعوام من نشوب الثورة الفرنسية، وحتى لا تفقد فرنسا دخل هاييتي التي كانت تمثِّل أقوى مصادر اقتصادها، اضطرت حكومة الثورة إلى إصدار قرار بتحرير مستعبدي هاييتي في سنة 1794م. واشترط حاكم هاييتي الفرنسي تنفيذ القرار بأن يُحارب المحرَّرون الهاييتيون إلى جانب الفرنسيين ضد البريطانيين والإسبان. وعندما أدرك الثوار أن الفرنسيين لا يرغبون في منع العبودية وإنما يريدون إيقافها مؤقَّتاً لاستغلالهم في الحرب، تيقَّنوا أن شعارات الثورة الفرنسية لم يُقصد منها إلا مساواة الفرنسيين ببعضهم، لا مساواة الآخرين بهم. وهنا أعلن زعيم الثوار الهاييتين توسيان لوفِرتور (Toussaint Louverture 1743-1803)، ذو الأصل الأفريقي، أن هاييتي دولة مواطنين أحرار بموجب دستور أعلنه في سنة 1801م، فاستقلَّت الدولة وحكمت نفسها منذ ذلك الوقت[14].

صدَقت توقُّعات الثوَّار، ولم يستمر تحرير المستعبَدين الذي أقرَّته حكومة الثورة الفرنسية سوى سبع سنوات فقط، ففي سنة 1802م أعاد نابليون العبودية[15]. وبعدها تعرَّضت هاييتي إلى حصار فرنسي طويل تسبَّب في تدمير اقتصادها، وفُرِض عليها تقديم تعويضات باهظة عن مواطنيها الذين حررتهم، ومن أجل عتق رقاب مواطنيها دفعت هاييتي الملايين إلى فرنسا، المتمسِّكة بما تسمِّيه (حقوق الإنسان). وحتى الربع الثالث من القرن العشرين استمرت هاييتي تدفع أموالاً استنزفت قدراتها، وتسبب الحصار ودفع التعويضات في تحويل هاييتي، التي كانت من أغنى بلاد العالم، إلى واحدة من أفقر بلاد النصف الغربي من الكرة الأرضية، واستمر فقرها إلى الوقت الحاضر. ويبقى هذا التعامل الذي لقيه

14 أدان الأوروبيون ثورة هاييتي بممارسة العنف ضد الفرنسيين، رغم أن عنف الثورة الفرنسية في الفترة التي عُرفت باسم "عهد الارهاب" فاق عنف ثورة هاييتي بكثير، فبينما فاق عدد ضحايا الثورة الفرنسية المليون، كان بينهم حوالي 40 الف قتيل، بلغت جملة متضرِّري ثورة هاييتي 160 الفاً، وكان عدد قتلاها أيضا أقل من قتلى الثورة الفرنسية.

15 لما عادت فرنسا إلى تقنين الاستعباد بعد الثورة، استمرت فيه قرابة نصف قرن ولم تمنعه إلا في سنة 1848.

شعب هاييتي، بسبب رغبته في التحرُّر من الاضطهاد، أوضح تعبير عن أنَّ الثورة الفرنسية لم تكن ذات توجُّه إنساني ولم تخلِّف أثراً عالمياً.

يتخفَّى التمييز في الخطاب التاريخي الأوروبي لأنَّه يستخدم لغة وصفية لثورات الجنوب تتيح استبعادها من التاريخ. فيُشار إلى ثورة بيرو في نصوص المؤرِّخين الغربيين باسم "ثورة توباك أمارو"، وكذلك الحال مع ثورة بوليفيا التي تسمَّى "انتفاضة الأخوان كتارا" (Catara Brothers)، وتُسمَّى ثورة هاييتي "ثورة العبيد"، فجميعها لا توصف بأنها ثورات شعوب لتبدو مجرَّد حالات تمرُّد. وهذا بخلاف ما يفعله المؤرِّخون الغربيون مع ثورات الأوروبيين التي تُسمَّى: الثورة الإنجليزية، والثورة الفرنسية، والثورة الأميركية.

إنَّ تصنيف الأحداث التحرُّرية من جهة أنَّها ثورة أو انتفاضة أو تمرُّد يعتمد على معايير يضعها المؤرِّخون الغربيون لاصطناع فرق بين الأمم الأوروبية والشعوب الأخرى، وهذا النوع من التوصيف يستهدف منع أن يتطوَّر لدى شعوب العالم وعي قومي بإمكانية مقاومة السيطرة الغربية. ويصدق هذا على الطريقة التي يكتب بها الأوروبيون اليوم التاريخ المعاصر لمعظم شعوب الجنوب، فثورة السودانيين التي حقَّقت لهم استقلالاً تامَّاً عن الاستعمار التركي والأوروبي في القرن التاسع عشر يسمِّيها المؤرِّخون الغربيون "الحركة المهدية"، وثورة الليبيين تُسمَّى "حركة عمر المختار" وثورة المصريين تُسمَّى "الحركة العُرَابية"، فجميعها حركات منسوبة إلى أفراد، لا إلى شعوب. وهذه اللغة تتيح للخطاب الأوروبي استبعاد ثورات التحرر الوطني المضادة للاستعمار من مدوَّنة التاريخ العالمي، وتخصيصها للأحداث التي عاشتها الأمم الأوروبية وحدها. وهذه اللغة وطريقة التوصيف تخدمان غرضهما بطريقة أكثر فاعلية عندما يستخدمهما مثقفو الجنوب إذ يستمرون في تسمية ثورات أوطانهم بأسماء القادة والأفراد، متجاهلين إرادة شعوبهم التي أنجزتها.

بمثل هذه التقنيات الخطابية أزاح المؤرِّخون الغربيون ثورة هاييتي من تاريخ العصر الحديث، وتجاهلها فلاسفة التنوير ورأوها أمراً مفارقاً للعقل و"حدث لا يمكن تصوُّره"، كما قال أحدهم[16]. ورغم التمجيد العالمي الذي تلقاه الثورة الفرنسية إلى اليوم، فإنَّ ثورة هاييتي ما زالت خارج قدرة الغرب على قبولها كحقيقة تاريخية[17]. وعلى العكس من مفكري الشمال يرى مفكرو أميركا اللاتينية، أن ثورتي بيرو وهاييتي تستدعيان إعادة التفكير في مفهوم الثورة بقدر يؤدِّي إلى التمييز بين مَعنيَين للتحرر: تحرُّر بالمعنى السياسي، وتحرُّر بالمعنى الفكري الذي يعني الانعتاق من التبعية في مجال إنتاج المعرفة[18]. بينما كانت الثورة الفرنسية تعني لمواطني أميركا اللاتينية استمرار ميراث التمييز الذي طوَّره الأوروبيون طوال العصر الحديث؛ كانت ثورات بيرو وهاييتي وبوليفيا تعني لهم التحرُّر الحقيقي الذي يساوي بين جميع البشر.

بهذا المنظور، فإنَّ قيم التحرُّر والعدالة والمساواة وتعميمها لتصبح من الحقوق الأساسية للإنسان عامة، لم تتحقَّق في فرنسا ولا أوروبا، وحقَّقتها الثورات غير الأوروبية التي لم تكن ذات غايات جزئية واستهدفت إجتثاث الجذور العميقة للتمييز بين عامة البشر. والحقيقة الواضحة أن أمم أوروبا الغربية هي التي كانت تسعى لمنع تحول تلك القيم إلى واقع تعيشه الإنسانية. وبالعكس منها كانت أمم أميركا اللاتينية قد ناهضت التمييز في كلِّيته، ممثَّلاً في ظواهر الاستعمار والاستعباد والعنصرية في كل القارة، لا في رقعة محدودة. وكانت التعبير الأشمل عن إرادة تحقيق العدالة والمساواة بين جميع البشر، دونما تمييز بينهم على أساس الإثنية أو الطبقة أو النوع، فنساء هاييتي حصلن

16 جيرمندر ك. بامبرا: **إعادة ...**، ص 227.

17 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

18 Mignolo, Walter, D: Delinking: ‘The Rehtoric of Modernity, The Logic of Coloniality and the Grammar of De-coloniality’, in: Mignolo, Walter D. and Escobar, Arturo (eds,): *Globalization and the Decolonial Option,* (New York: Routldge, 2010). p 310.

على حريتهن كما رجالها، بخلاف ما جرى في الثورة الفرنسية التي لم تحصل فيها النساء على حقوق اجتماعية وسياسية مساوية للرجل، وتسبب ذلك في تأخُّر أوضاعهن كثيراً، فحق الانتخاب مثلاً لم تحصل عليه النساء الفرنسيات إلا في سنة 1944م[19].

من جهة أخرى، لا يجب النظر إلى العنف الذي مارسه الفرنسيون ضد ثوار هاييتي معزولاً عن العنف الذي مارسه الثوار الفرنسيون في عهد الإرهاب، ففرانسوا فوريه (Françios Furet) يرى أن الإرهاب كان متضمَّناً في الثورة الفرنسية منذ البداية. وحسب رأيه، اعتمدت فكرة الثورة على ما سمَّاه "وهم السياسة"، أي الاعتقاد بقدرة السياسة على حل جميع مشكلات المجتمع، فبما أن الثوار اعتقدوا أن كل شئ يمكن إصلاحه بالسياسة، اعتقدوا أيضاً أن كل شئ يمكن إفساده بالسياسة، فتصاعدَ خوفهم من الثورة المضادة وتسبَّب ذلك في ممارستهم للإرهاب الشامل بين سنتي 1794-1793م. ويقول فوريه إنَّ قادة الثورة ومعارضيها تشاركوا نفس الخطاب الذي يركز على دور القوة، فكان التحوُّل الذي حدث في فجر الثورة الفرنسية في أساسه تحولاً في الخطاب السياسي، نتج عنه تحوُّل سياسي ارتبط بممارسة الإرهاب[20].

لم تحقِّق الثورة الفرنسية تحرُّراً جذرياً لأنها احتفظت بدوافع ممارسة القمع، وقامت على فكر عنيف أصبح عقيدة رسمية لها. والبعض يعزي ذلك إلى أن

19 انعكست نتائج هذا التأخُّر على المواقف السياسية للنساء الفرنسيات، فدعمن الإتجاهات السياسية المحافظة أكثر من الرجال، ولم يتغير ذلك إلا في سبعينيات القرن العشرين، انظر:
Mossuz-Lavau, Janine: Women and Politics in France, *French Politics and Society*, vol. 10, no. 1 (Winter 1992), 1-8. P. 1

20 جمعت الباحثة ربيكا سبانغ بين مفهوم فوريه لنشأة الحداثة ومفهوم هابرماس الخاص بارتباط ظهور المجال العام بنشأة قطاع برجوازي متعلم في نهاية القرن السابع عشر، وإدارته حوارات عقلانية في فضاءات مختلفة شملت الصحف والمقاهي والصوالين والساحات العامة... إلخ. وخلصت من ذلك إلى أن التحول الذي حدث في فرنسا تحـقَّق في مجال الخطاب. انظر:
Spang, Rebecca L.: Paradigms and Paranoia: How Modern is the French Revolution? *The American Historical Review*, vol. 108, no. 1, (February 2003), 124-148.

زعماء الثورة تبنَّوا فلسفة كوندياك (Etienne de Condillac 1714-1780) التجريبية، التي تعود جذورها إلى فلسفة جون لوك، فاتَّخذوها سلاحاً لمحاربة العقائد الدينية والسياسية التي ركّزت على ثبات المبادئ العقلية. ولم يقف تبنِّي الثوَّار لتلك الفلسفة عند استحسانها فقط بل إنَّ حكومة الثورة فرضتها فلسفةً وحيدة للدولة "... فكان الفلاسفة الوحيدون المُعترَف بهم أثناء عهدها هم "الأيديولوجيون"، كما أصبحوا يُسمّون فيما بعد"[21]. وهم أتباع مذهب كوندياك في المعرفة، وبينهم دستي دي تراسي (Destutt de Tracy 1754-1836) الذي كان أول من استخدم لفظ الأيديولوجية. إنَّ اعتماد الثورة الفرنسية على أحادية المذهب وقمع التعدُّدية يجد ترجمته في مواقفها من حقوق الشعوب الأخرى، وليس فقط في موقفها من خصومها السياسيين داخل فرنسا.

تتركَّز التقنية الخطابية التي صنع بها المؤرِّخون الغربيون فرقاً بين ثورتي فرنسا وهاييتي في دور اللحظة التاريخية المعيَّنة التي تُختار مرتكزاً للخطاب. فتصوير الثورة الفرنسية على أنَّها حدث عظيم اقتضى فصْل تاريخ فرنسا عن تاريخ هاييتي التي كانت جزءاً من فرنسا في فترة الثورة. وهذا عكس ما يفعله المؤرِّخون الأوروبيون عند كتابتهم تاريخ أحداث الثورات الأوروبية، مثل الثورة العلمية. لكي يتمكَّن المؤرِّخون من إنشاء صورة متماسكة لثورة علمية، جمعوا بين فضاءات زمانية ومكانية بعيدة عن بعضها لاصطناع روابط بين أحداث تناثرت على امتداد قرنين من الزمان، وتوزَّعت على بلاد غرب أوروبا، مثل: نظرية كوبرنيكس في الفلك وفيزياء نيوتن وفلسفة ديكارت. أمَّا في خطابهم حول الثورة الفرنسية فيستخدمون تقنية معاكسة تفصل بين الفضاءات المتَّصلة ببعضها، لأن فصل تاريخ فرنسا عن مستعمراتها يحُول دون وضعها في سياق واحد معها يسمح بمقارنة ثورتها بثورات تلك المستعمرات.

21 هنري د. إيكن: **عصر ...**، ص 21.

إنَّ القطيعة التي تقيمها نصوص التاريخ الغربي بين فرنسا وهاييتي لا تبرِّرها المسافة الجغرافية، لأن الثورة الفرنسية رُبِطت عند المؤرِّخين الغربيين بالثورة الأميركية التي جرت في منطقة تبعد عن فرنسا مثل بُعد هاييتي منها تقريباً. ولذا، فإنَّ القطيعة المصطنعة بين ثورة هاييتي والثورة الفرنسية ذات طبيعة مفهومية، صاغتها مخيِّلة تمييزية تفصل ما تعتبره فضاء (تحضُّر) يخص فرنسا وأوروبا، عن فضاء (البربرية)، المنسوب إلى هاييتي.

ملخَّص هذا الفصل أن الثورة الفرنسية لم تكن ذات مضمون عالمي من حيث شعارات الحرية والإخاء والمساواة، لأن قادتها اعتبروها خاصة بالفرنسيين. واستثارت الثورة أيضاً نزعة قومية تمجِّد روح الأُمَّة، فغذَّت دافع التوسع الاستعماري بأن وضعت فرنسا فوق كل بلاد العالم. وأوضح الفصل أن الثورة تكتسب قيمة في تاريخ فرنسا ووأوروبا بسبب أوضاع التمييز التي عاشها الأوروبيون، فما حقَّقته الثورة من تقدُّم في مجال المساواة في الحقوق بين بعض فئات الأُمَّة الفرنسية، مثل حق ممارسة المِهَن وفتح الوظائف للجميع، لا يعدُّ تقدُّماً إلَّا في ظل التفاوت الذي كانت قوانين الدول الأوروبية وأعراف مجتمعاتها تحميه، ولا يُعدُّ تقدُّماً بالنسبة إلى أمم العالم التي لم تكن أوضاعها الطبقيَّة تعيق حقوق المِلكيَّة والعمل. وبهذا تبقى معظم انجازات الثورة الفرنسية بلا دلالة كبيرة خارج التواريخ المحلية للأمم الأوروبية. وحتى الديموقراطية التي حقَّقتها لم ترسخ إلا بعد زمن طويل، فقد عادت الأنظمة الملكية والدكتاتوريات إلى الحُكم عدة مرات.

من الناحية النظرية، ارتفعت مكانة الثورة الفرنسية في الفكر المعاصر بتأثير ربطها بتحوُّلٍ سبقها، هو عصر التنوير الذي يُقال إنَّه أحدث ثورة في الفكر الفلسفي والاجتماعي والسياسي. لذا، فإنَّ ما قُدِّم هنا من نقد للثورة الفرنسية لا يكفي لأن ينزع عن تاريخ العصر الحديث مركزيته الأوروبية، إذ يمكن قول إنَّه إذا كانت الثورة الفرنسية ليست الأولى في مجال التحرُّر

والتغيير الاجتماعي، أو أنَّها أخفقت في تحقيق شعاراتها؛ فهي تتفوَّق على ثورات أميركا اللاتينية لأن انتمائها إلى سياق عصر التنوير يجعلها نتاج تحوُّل فكري وروحي أرسى الممارسة الثورية على أسس عقلانية، بينما كانت ثورات أميركا انفجارات عفويَّة. لكن النظر في عصر التنوير يوضِّح أن الفكر الذي ساده كان مثله مثل الثورة الفرنسية غير معني بتحقيق المساواة بين البشر في عمومهم، ولم ينهض على أسُس عقلانية تسمح بتعميم مبادئه، كما سيوضِّح الفصل المخصَّص له في هذا الكتاب.

في هذا السياق الذي يُلحِق تحولات أوروبا الغربية في القرن الثامن عشر بعقلانية عصر التنوير والمعرفة العِلميَّة التي يُقال إنَّه أشاعها؛ يصف المؤرِّخون الأوروبيون تحولاً تقنيَّاً كان قد سبق الثورة الفرنسية بأنَّه يمثِّل "ثورة صناعية"، يضعها البريطانيون على قدم المساواة مع الثورة الفرنسية. ويتوجه الفصل التالي إلى فحص خطاب هذه الثورة، مستقصياً موضع القطيعة التي رسمت بداية العصر الحديث.

الثورة الصناعيَّة: اصطناع ثورة

يعتقد أصحاب المنظور الاقتصادي لتفسير التاريخ أن العصر الحديث بصورته الناضجة، الموافقة للسمات التي تميِّز الحداثة، بدأ مع تحوُّل الاقتصاد الأوروبي من الرأسمالية التجارية إلى الرأسمالية الصناعية، ومع اختلافهم حول زمان ومكان ذلك التحوُّل، فهم يضعون أسبابه داخل أوروبا. وحين يصبحون أمام مَهمَّة تحديد الدولة التي مرَّت بالتحوُّل الاقتصادي قبل سواها، يتبنُّون مواقف تردَّه إلى هذه الدولة أو تلك حسب انتماءاتهم القومية، أو الفكرية. مثلاً، الذين يربطون نشأة الرأسمالية الصناعية بالطبقات الاجتماعية يردُّون التحوُّل إلى صعود دور الطبقة البرجوازية عقب الثورة الفرنسية، ويقبلون بالرواية الفرنسية لنشأة الحداثة، أمَّا الذين يرون أن التحوُّل حدث أولاً في أدوات الإنتاج فيؤرِّخون له بظهور الثورة الصناعية، متبنِّين القصَّة البريطانية لنشأة الحداثة.

يناقش هذا الفصل مكانة ما يُسمَّى "الثورة الصناعية" في تاريخ العصر الحديث، والتي ينسب إليها المؤرِّخون أنَّها حقَّقت تفوُّقاً اقتصاديَّاً كبيراً لبريطانيا على بقيَّة دول العالم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ويتركَّز البحث هنا على الكيفية التي صِيغت بها صورة تحوُّل جذري نحو استخدام الماكنة في الصناعة، رغم الطبيعة البطيئة والمتقلِّبة المعروفة عن التحولات التقنية عموماً. يرصد الفصل تناقضات القصَّة مستفيداً من النقد الذي بلوَره بعض المؤرِّخين المعاصرين، ويفسِّر تطوُّر اقتصاد بريطانيا في تلك الفترة بتوسُّعها الخارجي، وظهور منتجات غير أوروبية يسَّرت توجُّه الاقتصاد البريطاني نحو الصناعة،

أهمها صناعة السُكَّر. يبدأ الفصل بعرض تاريخ فكرة الثورة الصناعية واختلاف وجهات نظر المؤرِّخين الغربيين حولها، وتبايُن تعريفاتها عندهم.

كان الكاتب الإنجليزي آرثر يونغ (Arthur Young 1741–1820) أوَّل من استخدم لفظ ثورة لوصف تحولات الصناعة، وذلك في سنة 1787م عندما وصفَ تحوُّل ماكنة غزل القطن إلى غزل الصوف بأنَّه ثورة، مشيراً إلى تحوُّل جزئي في توظيف الماكنة. ولم يُستخدم اللفظ بمعنى التحوُّل الذي يشمل النظام الاقتصادي كله إلا بعد خمسين عاماً من تلك السنة، حين كتب الفرنسي ج. أدولف بلانكوي (J. Adolphe Planqui 1798–1854) في سنة 1837 مقالاً صكَّ فيه تعبير الثورة الصناعية، ثم تبنَّاه فردريك إنجلس واستخدمه في سنة 1845 في كتابه (وضع الطبقات العاملة في بريطانيا)[1]. أمَّا ماركس، فقد أشار في كتاب (الأيديولوجيا الألمانية) إلى أن "البرجوازية البريطانية تقوم بعملية تثوير للصناعة"، دون أن يشير إلى طبيعة العملية الثورية التي حقَّقتها[2]. ورغم ورود التعبير في بعض النصوص الفرنسية والألمانية أثناء القرن التاسع عشر، فإنَّ الكاتب الذي ثبَّت استخدامه في اللغة الإنجليزية هو مؤرِّخ الاقتصاد البريطاني أرنولد توينبي (Arnold Toynbee: 1852–1883)، وذلك عندما استخدمه في سنة 1884م في عنوان كتابه (محاضرات في ثورة القرن الثامن عشر الصناعية في إنجلترا)، فأعطى التعبير بُعداً يربط النمو الاقتصادي بإحلال المنافسة الحرة محل الاحتكار. وبعد منتصف القرن العشرين رأى المؤرِّخ البريطاني إريك هوبسبوم أن أول جسر حديدي أقامته بريطانيا كان يمثِّل العلامة الفعلية على بداية عصر الحداثة[3].

1 Corfield, Penelope J.: *Britain's Political & Industrial Revolutions: As seen by Eighteenth- Century Observers and later Historians,* (UK: Royal Holloway University of London and Newcastle University, 2013).

2 ميشيل فاديه: **الأيديولوجية: وثائق من- الأصول الفلسفية**، ترجمة أمينة رشيد وسيد البحراوي، (بيروت: دار التنوير، 1982). ص 44.

3 Hobsbawm, Eric: *The Age of Impire 1875-1914,* (New York: Vintage books, 1987). P. 13.

كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد شهد اتِّساع نطاق التصنيع في أوروبا الغربية وحدوث تقدُّم تقني، خاصة في مجال صهر وتصنيع الحديد. وفيه واجه المؤرِّخون الأوروبيون ضرورة تفسير ذلك التقدُّم، خاصة في بريطانيا التي كانت الإمبراطورية الأكثر اتساعاً، وبسبب تدفُّق الثروات إليها ظهر اعتقاد بأنها كانت الأقوى اقتصاداً بين كل دول أوروبا، بينما أوضحت بعض الدراسات المقارنة التي أجريت حديثاً أنَّها لم تكن كذلك. ورغم أن بريطانيا تميَّزت عن كل الدول بأنها الأكبر استحواذاً على أراضي وثروات العالم، لم يربط مؤرِّخوها طوال القرن التاسع عشر تطوُّر اقتصادها بنشاطها الاستعماري، وربطوه بتحوُّل جرى داخلها، فأصبح تعبير الثورة الصناعية يشير إلى تحوُّل يُعدُّ تتويجاً لعصر التنوير، ليُحكَم وصلها بسلسلة الثورات الأخرى[4].

في القرن العشرين، توسَّع استخدام مفهوم الثورة الصناعية في التفكير الفلسفي والتاريخي والاجتماعي، وصار أداة لتفسير الكثير مما جرى في العصر الحديث. في الربع الثاني من القرن العشرين حاول الفيلسوف البريطاني برتراند رسِل تفسير عدد من الظواهر الإجتماعية في بريطانيا عن طريق ربط نموها الاقتصادي بعوامل بعيدة عن العمليَّات المؤثِّرة على الاقتصاد بطريقة مباشرة، مثل: الزواج والإنجاب والجنس. وتجنَّبَ الإشارة إلى عوامل النمو ذات التأثير المباشر، مثّل التحكُّم بمصادر الثروات الطبيعية وتوسيع أسواق التجارة العالمية، المرتبطيَن بالغزو الاستعماري[5].

الشيء الذي يدلُّ على أن الروابط الاستعمارية أثَّرت في بريطانيا آنذاك على الصعيدين العملي والنظري، أن الفيلسوف والاقتصادي البريطاني جون

4 يقول المؤرِّخ البريطاني أرنولد ج. توينبي (1889 - 1975) إنَّه في الفترة الواقعة بين الإصلاح الديني والثورة الصناعية مرّت المجتمعات الأوروبية كلها "بثورة عقلية وروحية أكبر من أي ثورة مرت بها من قبل"، انظر:

أرنولد توينبي: **تاريخ البشرية، ج 2**، (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، 1988). ص 282.

5 Russell, Bertrand: *Marriage and Morals,* (New York: Liveright, 1929). p.3.

ستيوارت مِل استخدم تعبير الثورة الصناعية في كتابه (مبادئ الاقتصاد السياسي) الذي صدر في سنة 1884م، وهي السنة نفسها التي استخدم فيها توينبي التعبير، فكتب: "إنَّ حدوث ثورة صناعية في بريطانيا ممكن بسبب التطوُّرات التي تشهدها الصناعة"[6]. أوردَ ستيوارت مِل ذلك في سياق تطوير نظريته الاقتصادية التي اعتبر فيها المستعمرات فضاءات كفيلة بحلِّ مشكلات الاقتصاد البريطاني، فكان تعبير الثورة الصناعية عنده من أدوات التخطيط الاقتصادي الذي يقوم على توقُّع نجاح حلول مستقبلية في ظل الأوضاع الاستعمارية، ولم يكن أداة وصف لحدث تاريخي محدَّد وقع داخل بريطانيا، كما سيستخدمه بعد ذلك المؤرِّخون معتقدين أنَّه يطابق واقعة تاريخية موضوعية.

في الغالب، لا يشير تعبير الثورة الصناعية إلى دخول الماكنة البخارية مجال صناعة النسيج فقط، وإنما يشير إلى نتيجتين ارتبطتا بذلك، هما: اتِّساع توظيف التقنية في ميدان الصناعة، وتأثيرها إيجاباً على الأوضاع الاقتصادية في بريطانيا بقدرٍ حقَّق لها تفوُّقاً على فرنسا، المنافِسة لها. إنَّ إطلاق لفظ ثورة على استخدام الماكنة في الصناعة لا يفيد في فهم التحوُّل الذي حدث، لأنَّه يكتفي برسم حد فاصل بين حقبتين تاريخيتين دون أن يوضِّح طبيعة التحوُّل. فهل شكَّل ظهور الماكنة تحولاً سريعاً، أم كان عملية طويلة الأمد؟ وبما أن الثورة ذات طابع جذري وسريع؛ فإنَّ الإجابة على هذا السؤال هي التي تحدِّد إمكانية وصف ما حدث بأنَّه ثورة أم لا. ولأن استخدام التعبير لم يأتِ إلَّا بعد مئة سنة تقريباً من الفترة التي يُقال إنَّها شهدت النمو الاقتصادي لبريطانيا؛ مال المؤرِّخون إلى تحديد سمات ذلك التحوُّل بطريقة تجعل منه حدثاً سريعاً ومؤثراً ليتوافق مع مفهوم الثورة. أي أنَّهم سلَّموا أولاً بحدوث ثورة في تاريخ بريطانيا الحديث، ثم سعوا إلى العثور على الحدث الذي يناسبها[7].

---

6 Coleman, D.C.; *Myth, History and the Industrial Revolution,* (London and Rio Grande: The Hambledon Press, 1992). P. 20.

7 Corfield, Penelope J.: *Britain's…*, p.11.

ردّ المؤرِّخون ظهور الثورة الصناعية إلى عوامل مختلفة، فبعضهم نسبها إلى تطوُّر سبقها في مجال الزراعة أتاح توفير الغذاء للعاملين في الصناعة، وردَّها البعض إلى ارتفاع عدد السكان، ونسبَها البعض إلى التطوُّر الحِرفي وتنظيم العمل، وأرجعها آخرون إلى انتصار البرجوازية، وربطها غيرهم بتوسُّع التجارة العالمية. وبهذه الطريقة وُضِع كل شيء تحت اسم الثورة الصناعية، مما جعل المصطلح لا يحمل دلالة تاريخية سوى إشارته إلى حدث يُنسب إليه نمو اقتصادي، لا يُعرف كنهه أو اللحظة التي يحتلها في التاريخ. وحتى من يربطون نمو اقتصاد بريطانيا بتطوّرها الصناعي يختلفون في تحديد تأثير الصناعة على الاقتصاد، فالبعض يردُّه إلى حدوث تراكم في رأس المال، والبعض يردُّه إلى ارتفاع فائض الإنتاج الذي يحفِّز زيادة إنتاجية العمل[8]. ويختلف المؤرِّخون أيضاً في الإجابة عن سؤال ما الذي أنتج التكنولوجيا التي حقَّقت الثورة الصناعية؟ فأبرز مؤرِّخيها، وهو ديفيد لانديز، ينسبها إلى مبدأ التحدِّي والاستجابة، بينما يفسِّرها روزنبرغ بفكرة السلسلة الإلزامية، التي تعني أنَّ تطوُّر أحد عناصر العملية الصناعية يتسبَّب في تطوير بقيَّة عناصرها، اعتماداً على مبدأ تكامُل الأدوار[9].

من حيث الفترة الزمنية التي شهدتها الثورة الصناعية لا يوجد أيضاً اتِّفاق عليها بين المؤرِّخين. ولأنهم مختلفون حول العلاقة بين المراحل المختلفة لتطوُّر الرأسمالية، التي تُفهم ضِمنها علاقة الماكِنة بالصناعة، وُجِدت ثلاث روايات تتدرج تفسِّر نشأة الرأسمالية. تُعنَى الأولى بالظروف التي تطوَّرت فيها، وتركِّز على القرنين الرابع عشر والخامس عشر اللّذَين برزت فيهما أزمة النظام الإقطاعي، وانحسرَ فيهما عدد سكَّان أوروبا بسبب الطاعون الذي كان قد أودى

8 انظر الفصل الثاني من:
Mokyr, Joel (ed.); *The Economics of the Industrial Revolution,* (U. S. A.: Roman & Littlefield Publishers, 1985).

9 المرجع السابق، ص 28.

بحياة أكثر من ربعهم في منتصف القرن الرابع عشر. أمَّا الرواية الثانية فتخصّ مجالات الإنتاج التي حدث فيها التحوُّل، وهي التجارة والزراعة والصناعة، وتقول إنَّ تقدُّم التجارة سبق الصناعة في المرحلة الأولى، ثم تطوَّرت الصناعة في المرحلة التالية. والرواية الثالثة تخصّ التحولات التي حدثت في طبيعة النظام الرأسمالي وتربطه بظهور نظام المصنع ككل، لا الماكنة وحدها[10]. ومصدر عدم الاتفاق بين هذه الروايات أن المؤرِّخين يفكِّرون في الحدث المعيَّن بحسب انتماءاتهم وتبايُن مجالات تخصُّصهم، فيختار كل منهم عناصر التحوُّل التي توافقه. وفيما يلي عرض لبعض الأُطر النظرية التي تسبَّبت في اختلاف المواقف من الثورة الصناعية.

يرى نوربرت واينر أن تحوُّل الصناعة نحو الماكنة في نهاية القرن الثامن عشر كان محدوداً، لأن جميع الاختراعات تتطلَّب مرور فترة طويلة قبل أن يحيط التقنيون والمجتمع بإمكاناتها الكامنة. ويؤكِّد أن الماكنات ظلَّت محدودة الفاعلية في القرن الثامن عشر لأنها كانت تحتاج إلى قدر كبير من طاقة التشغيل، ولم تصبح مؤثِّرة إلا مع تشغيلها بالكهرباء في القرن التاسع عشر[11]. يقترب واينر من موقف ماركس بخصوص الفترة الزمنية التي استغرقتها الثورة الصناعية، فهو يربطها بحدوث تغيُّر في طبيعة العمل، معتبراً أن ما جرى في القرن الثامن عشر كان مجرَّد بداية لتحوُّل حقيقي سيحدث في القرن التالي. وبالنسبة إليه لم يحقِّق اختراع الماكنة البخارية ثورة بذاته، لأن الثورة جاءت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وتحديداً بعد سنة 1870م، مع الماكنة التي تدير عدة ماكنات أخرى، فتفرض نظاماً آليّاً على عملية الإنتاج برمَّتها. يرى ماركس أن عملية مكننة الإنتاج هي التي أحدثت الثورة، لأنها أضفت

10 انظر مقدمة الكتاب التالي:

Park, Marten; *Early Modern Capitalism; Economic and Social Change in Europe 1400-1800,* (New York: Routledge, 2001).

11 Weiner, Norbert: *The Human Use of Human Beings, Cybernetics and Society,* (Anchor Books, 1950). P. 145.

طابعاً موضوعياً على عملية الإنتاج كلها. وفي رأيه أن التحوُّلَ حدث لأن الماكنة حين صارت تُدار بماكنة أكبر؛ أتاحت الاستغناء عن دور العامل في تشغيل الآلات، فصار الإنتاج الآلي مكمِّلاً لبعضه. وهذا الانتقال من العمل المجزّأ إلى العمل المتَّصل، حوَّل تماماً علاقة العامل بنتاج عمله[12].

إذن، رغم أن تعبير الثورة الصناعية لم يُبتَكر إلا بعد أكثر من قرن من بروز الظاهرة التي يصفها، وهي دخول الماكنة في مجال الصناعة؛ فإنَّ الشيء الذي غلب على الأدبيات التاريخية والاقتصادية التي روَّجت للتعبير هو عدم اتفاقها على سماته وفترته الزمنية ومراحله. ورغم أن هذا الاضطراب يُفقِدِ التعبير جدوى استخدامه في الخطاب التاريخي الحديث، فإنَّ لدى المؤرِّخين المعاصرين ما يكفي من حيل الخطاب للاستمرار في إعادة تشغيل التعبيرات ذات الوظائف المؤثرة، فما زال تعبير الثورة الصناعية مستخدَماً حتى في نصوص من يُعدُّون نُقَّاداً للمركزية الأوروبية. وعند التدقيق في الكيفية التي يوُظَّف بها التعبير حالياً يتَّضح أن هذا الاستمرار ليس بلا دلالة. مثال ذلك ما ينسبه كاتب معاصر إلى فترة ما بعد سنة 1760م، فهو يقول إنَّ المؤرِّخين رصدوا بروز ظاهرة جديدة في تاريخ المجتمعات الإنسانية في تلك الفترة، مضمونها "إنَّ الاقتصاد البريطاني اتَّجه نحو نمو مستدام ذاتياً يعتمد على المعرفة المفيدة"[13]. إنَّ توظيف مصطلحات معاصرة مثل الاستدامة الذاتية والمعرفة المفيدة، يضطلع بوظيفة إعادة شحن تعبير الثورة الصناعية، الذي فقد جدواه التفسيرية، بطاقة دلالية جديدة بربطه بمصطلحات مستحدَثة تنتمي إلى الخطاب العلمي المعاصر. وبهذه الطريقة يُمدَّد عمرُ أدوات تحليلية فقدت صلاحيتها المنهجية في الخطاب التاريخي حول العصر الحديث، عبر عملية تحديث لمحتواها (updating).

---

12 Marx: *Capital,*…. pp. 355-360.

13 Joel Mokyr: Why was the Industrial Revolution A European Phenomenon? *Supreme Court Economic Review*, Vol. 9, (Fall 2002). P. 12.

إنَّ الحيَل التي يُوظَّف بها تعبير الثورة الصناعية لإعطاء انطباع بحدوث تحوُّل جذري، تظهر عند أبرز المدافعين عن فكرتها، وهو ديفيد لانديز. يعتقد لانديز أن الثورة تضمَّنت سلسلة اختراعات، لا اختراعاً واحداً، ويذكر منها ثلاثة هي: إحلال الماكنة محل الجهد الإنساني، وإحلال الطاقة الجامدة محل الطاقة الحية، وإحلال المعادن محل الكائنات الحية، حيوانية أو زراعية[14]. هنا يفكِّك لانديز حدثاً واحداً، هو اختراع الماكنة البخارية، ليحصل على ثلاثة عناصر تُسهم فيه، هي: آلة العمل وطاقة البخار وقوَّة الحديد. وتظهر الحيلة في أن لانديز يعتبر الماكنة تركيباً من هذه العناصر من جهة أنَّها اختراعات في ذاتها، بينما كانت قيمة الماكنة البخارية تكمُن في أنَّها مجرَّد تركيب لهذه العناصر التي كانت مستخدمة من زمن قديم، وليست اختراعات منفردة تحقَّقت في بريطانيا. ففي طواحين الهواء كانت الآلة التي تدور بالطاقة غير الحيَّة تعمل منذ زمن قديم، ومنذ وقت طويل أيضاً استُخدِمت تقنية توليد الحركة بالاحتراق في الصين، ثم أخذ الأوروبيون عنهم ذلك. كما أن استخدام المعادن في الصناعة لم يكن شيئاً جديداً؛ فقد استُخدِم قبل ذلك بمئات السنوات في الأدوات الزراعية. لكن، بفضل مبادئ التحليل يتمكَّن لانديز من التوصُّل إلى استخلاص الكثرة من القلَّة، فيشتقّ من الماكنة البخارية اختراعات متعدِّدة ينسِب إليها تأثيرات عميقة. ورغم أن بعض تلك الاختراعات تم تلقِّيه عن حضارات غير أوروبية، يلحقه لانديز بالماكنة البخارية ليُكسبه فاعليته القصوى في تاريخ بريطانيا الحديث.

بهذه الطريقة يستولي الخطاب التاريخي الغربي على ما طوَّرته شعوب أخرى منذ أزمان سابقة، ليلحقها بالإضافة الوحيدة التي حقَّقها الأوروبيون.

---

14 Landes, David S.; *The Wealth and Poverty of Nations: Why Some Are Rich and Some So Poor,* (New York and London: W. W. Norton & Company, 1998). P. 186.

وبهذا تُصطَنع لحظة فارقة يُزاح كل ماقبلها لتُتّخذ بداية مرحلة جديدة في التاريخ البشري، ثم يُتخذ ظهور الطاقة التي تدير الماكينات نقطة تمييز بين نظام المانيفاكتورة ونظام المصنع[15].

بالنسبة إلى نتائج ظهور الماكنة في بريطانيا، لا يوجد ما يدلّ على أنَّه نتج عنه تحوُّل مُلاحظ في الصناعة آن حدوثه. فهناك ما يؤكِّد أنَّه جرى تلقِّي الماكنة بفتور في بريطانيا والبلاد المجاورة لها. فحين أدرك الأوروبيون، وخاصة الفرنسيون، حدوث تحوُّل صناعي فيها، سمُّوه "النظام الإنجليزي". ولم يكن هذا مجرَّد تعبير ينسب كلمة "النظام" إلى الأُمَّة الإنجليزية، لكنه كان تعبيراً عن أن الفرنسيين نظروا إلى دخول الماكنة مجال الصناعة بوصفه حدثاً يخصّ أُمَّة بعينها، ولم يروا فيه تأثيراً للتقنية على الإنتاج عموماً، كما لم يروا له أثراً على الأوضاع الاقتصادية العالمية، خاصة من جهة تأثيره على التنافس بين الأمم الأوروبية. هذا يعني أن الفرنسيين لم ينظروا إلى تحوُّل الصناعة نحو المكننة باعتباره لحظة مُهمَّة في التاريخ الاقتصادي. وفي ألمانيا أيضاً نُظِر إلى اختراع الماكنة بتشكُّك، بل اعتبره بعض المفكِّرين علامة تحوُّل سلبي، فاحتقره هيغل ولم يرَ له مكاناً في المستقبل، واستبعده من الأحداث المؤثِّرة في التاريخ الحديث. وفي الولايات المتَّحِدة، التي تأسّس فيها أول مركز صناعي بعد حرب الاستقلال عن بريطانيا، لم يلقَ التحوُّل نحو الماكنة اهتماماً؛ لأنَّه لم يكن قد تطوَّر فيها توجُّه قوي نحو الصناعة حتى بعد استقلالها، فظهر فقط اهتمام محدود بها في الربع الأخير من القرن الثامن عشر. ومع استقلال الولايات المتَّحِدة أصرَّ توماس جِفرسون على ضرورة أن تستمر بلداً زراعياً؛ لأن أوروبا تحتاج إلى المحاصيل النقدية التي تنتجها الولايات المتحدة، ويمكن أن تحصل مقابلها على ما تريد من صناعات أوروبا، حسب رأيه. وكان

15 يعرَّف المصنع بأنَّه وحدة عمل تضم مجموعة عمال ينتظم عملهم حول نقطة مركزية، هي الماكنة التي تُدار بطاقة غير حية.

الكسندر هاملتون هو الذي تبنَّى فكرة أن تتحوّل الولايات المتحدة إلى دولة صناعية منافسة لبريطانيا. يوضِّح موقف جِفرسون أن الإنتاج القائم على الصناعة المعتمِدة على الماكِنة لم يخلق ميزة فارقة لبريطانيا عن الأمم المعتمِدة على الإنتاج الزراعي، حتى فترة نهاية القرن الثامن عشر[16].

بخلاف ما يتعلق بأوضاع الصناعة نفسها توجد عدة أسباب أخرى تحُولُ دون الاعتقاد بحدوث تحوُّل سريع وثوري في دخول الماكنة سوق العمل والإنتاج الصناعي، وهي أسباب تخص الأوضاع الاقتصادية في أوروبا عامة طوال النصف الأول من القرن الثامن عشر. أهمها ضعف القدرة الشرائية في أوروبا، وضآلة الإنتاج بسبب ارتفاع كُلفة المواد الخام في بريطانيا وأوروبا في بداية ظهور الماكنة. ففي تلك الظروف كثرت الصعوبات أمام دخول الماكنة البخارية مجال تصنيع النسيج، وخضع صانعها أركرايت إلى عدة محاكمات. وكان أحد العوامل الحاسمة في قبول الاختراع هو تحوُّل موقف مجتمع العمل من رفض دخول الماكنة مجال صناعة النسيج إلى قبوله. فطوال النصف الأول من القرن الثامن عشر لم تلق آلة أركرايت قبولاً من عمَّال صناعة النسيج، فقد حُطِّمت عدة مرات بواسطة مجموعات منهم، لأنهم اعتبروا أنَّها ستؤدِّي إلى الاستغناء عن العمَّال. لكن، مع إزدياد تدفُّق قطن المستعمرات إلى بريطانيا، وتجاوُز كميَّاته قدرات العمال على التصنيع اليدوي، بدأ قبول دخول الماكِنة البخارية في الصناعة، لأنها ساعدت في تقليل الجهد المطلوب من العمَّال. وهكذا توقَّف استيعاب الاختراع في الصناعة البريطانية على توفُّر شروط توسُّع السوق، وتطوُّر قوى الإنتاج، وارتفاع القدرة الشرائية في أوروبا. وهذا ساهم فيه تدفُّق المواد الخام واتِّساع تداول المال في أسواق أوروبا الغربية نتيجة توسُّع نشاطها التجاري في المستعمرات.

---

16 Goloboy, Jennifer (ed.); *Industrial Revolution: People and Perspectives,* (Santa Barbara-Denever: ABC- CLIO, 2008). P. xiv.

يكمُن قدرٌ كبير من ضعف قصَّة الثورة الصناعية في أنَّها تنسب تأثيراً كبيراً وشاملاً إلى ظاهرة تؤخذ معزولة عن السياقات التي تجعلها مؤثرة. فالآلات عموماً، سواء أكانت بخارية أم كهربائية، تصبح فاعلة في ظل أوضاع اجتماعية واقتصادية معينة هي التي تعطيها دورها في عملية الإنتاج، وليس للآلة في ذاتها دور حاسم في عمليةٍ تتكامل فيها أدوار قوى العمل والمجتمع والأسواق والمواد الخام. ونتيجة لتعدُّد أدوار تلك العناصر فإنَّ تأثير أي تحوُّل يطرأ على أحدها يحتاج زمناً طويلاً لتتوافق معه بقيَّة الأدوار.

كان دخول الماكِنة في صناعة النسيج البريطانية عملية طويلة الأمد استغرقت حوالي نصف قرن من الزمان، ولم يتحقَّق بين يوم وليلة كما يوحي لفظ الثورة، فالعملية اقتضت التوافق مع ظروف معقدة أحاطت باقتصاد بريطانيا المعتمد على العالم الخارجي. ومنذ بداية تدخُّل بريطانيا في الهند عبر نشاط "شركة الهند الشرقية" بين سنتي 1600م و1700م، ظلَّت صناعة النسيج الهندي، الخالص والمصبوغ، متقدِّمة جداً على الصناعة البريطانية، خاصة في كالكتا، واستمرَّ التفوق الهندي لأكثر من قرن. وطوال ذلك الوقت فاق النسيج الهندي في جودته كل نسيج أوروبا واستمر يغزو أسواقها، خاصَّة في بريطانيا، ولم يكن شراؤه ممكناً إلا لأصحاب المكانة العالية من الأوروبيين. وفي سنة 1700م اضطرَّت بريطانيا لمنع استيراد القطن من الصين وإيران وفرضت غرامة على من يلبس منتجاته العالمية، دعماً لصناعتها المتواضعة التي كانت قد بدأت آنذاك تحاول تقليد النسيح القطني الهندي.

بعد سنة 1720م بدأت منتجات بريطانيا تتحسَّن، لكنها ظلَّت أقل جودة من الإنتاج الشرقي كله، الهندي والصيني والإيراني، وحتى منتصف القرن الثامن عشر لم يتحقَّق لصادراتها إلا توسُّع محدود في أسواق النسيج. وترتَّب على هذا الفشل أن توجَّه البريطانيون إلى حلّ آخر ليكسبوا نفوذاً واسعاً في السوق، فشرعوا في تدمير الصناعة الهندية. بدأ مُلَّاك شركة الهند الشرقية يخطِّطون

لغزو الهند في سنة 1757م عن طريق استمالة الأمير جعفر، المعارِض لملك الهند، فتحالف معهم وهُزم الملك، وبدأت الشركة البريطانية تفرض سيطرة على الهند لتتولى إدارتها رسمياً. ومنذ تلك الفترة بدأت صناعة النسيج في بريطانيا تتطوَّر حتى بلغت مكانة متقدِّمة. ومن ناحية أخرى، فإنَّ تتبُّع المسار التاريخي لظهور الماكنة أيضاً يوفِّر دليلاً قويَّاً على أن التفوُّق الحاسم لاقتصادات أوروبا على بقيَّة بلاد العالم لم يحدث إلا في القرن التاسع عشر، لأن دخول الماكنة في صناعة النسيج البريطانية استغرق حوالي نصف قرن.

كان مسلمو الشرق أول من استخدم العجلة في غزل القطن، ومنهم انتقلت إلى الصين ثم إلى أوروبا في القرن الثالث عشر، حيث تطوَّرت عملية المكننة. كانت البداية عندما اخترع البريطاني جون ويات (John Wyatt 1700– 1766) آلة نسيج تعمل بالأسطوانات في سنة 1738م. وفي سنة 1765 استطاع البريطاني جيمس واط (James Watt 1736– 1829) معالجة مشكلة تبدُّد طاقة بخار ماكنة النسيج باختراع مكثِّفٍ. وفي سنة 1769 اخترع بريطاني آخر، هو ريتشارد أركرايت (Richard Arkwright 1732–1792) الإطار المائي الذي أتاح تحريك دواليب المغزل بآلة بخارية كانت تطويراً لماكنته التي تعتمد على الأسطوانات. وعدَّل صامويل كرومبتون (Samuel Crompton 1738–1827) في سنة 1779 ماكِنته لتتمكَّن من مضاعفة إنتاجها من الغزل 10 مرات، وبعده أضاف لويس بول مغزلاً يعمل بأسطوانة في سنة 1784م[17]. واستمرَّت التحسينات على آلة واط حتى العام 1787، عندما أمكن برمجة عمل الآلة عن طريق التحكُّم في معدَّل وصول الطاقة من مركز التبخير بمنظِّم له كُرات.

17 حسَّن جيمس واط ابتكار توماس نيوكمن الذي كانت آلته تعمل بنظام البخار الذي يندفع في اسطوانة لرفع المكبس، وبعد أن يفرغ البخار يهبط المكبس ليندفع البخار فيرفع المكبس من جديد، وهكذا. ولأن عملية التفريغ كانت تؤدِّي إلى تبديد البخار، ظهرت حاجة إلى طاقة مستمرة. فأضاف واط مكثِّفاً يسترجع البخار حتى لا تُفقد طاقته. وفي سنة 1780م صمَّم آلة مزدوجة الفعل، يتناوب فيها البخار العمل من وجهَي المكبس، فضاعف القوة المتحصَّل عليها من نفس كمية الطاقة.

هذه السلسلة من الاختراعات والتحسينات، الممتدة لحوالي ستين عاماً، توضِّح أن التحوُّل كان يجري في عدة مجالات وعلى فترات متباعدة يصعب اتخاذ واحدة منها لحظة مركزية لثورة في تاريخ تطوُّر صناعة النسيج البريطانية. وهذا المسار الطويل نفسه لحق به مسار مكمِّل يربط عملية النسج بعدة مراحل في تلك الصناعة، فأحد مؤرِّخي صناعة النسيج البريطانية، يرى أن عملية المكننة ارتبطت بعمليات مركبة مرَّت بها صناعة النسيج، منها: الغزل والنسج والتبييض والصباغة والطباعة. وهذا يفتح تاريخ تطوُّر الصناعة على حقيقة ارتباطها بمناطق أخرى خارج بريطانيا، لأن تكامل تلك المراحل كان يعتمد على مواد تُنتج خارج بريطانيا[18]. وهذا بدوره يلفت النظر إلى عوامل أخرى لا تتَّصل بتقنيات التصنيع، منها فرض الجمارك على النسيج المستورد لبريطانيا ومستعمراتها، مما يُبرِز دور السيطرة حتى في عملية التطوُّر الصناعي نفسها. أيضاً، اعتمد نجاح صناعة النسيج البريطانية على قدرة الأسواق الأوروبية على استيعاب منتجاتها، وهذا بدوره اعتمد على ارتفاع القدرة الشرائية لدى الأوروبيين التي تحقَّقت مع تدفُّق ثروات المستعمرات وتوزيعها على نطاقات واسعة داخل أوروبا. من الواضح أن توفُّر هذه العوامل المختلفة توقَّف على توسُّع الأسواق الأوروبية وازدياد حجم النقد المتداول واستيراد المواد الخام بتكاليف زهيدة. هذه الشروط الكثيرة والمتباينة لم يكن ممكناً أن تتوفر لأوروبا بتحولات داخلية ولا نتيجة اختراع الماكنة البخارية، وإنما حدثت نتيجة لتحوُّل الظروف الخارجية المعتمِدة على إدارة المستعمرات بما يخدم المصالح الأوروبية.

لكي تُستَوعب الماكنة في الصناعة البريطانية كان لا بدَّ من توفُّر القطن بكميات كبيرة تفوق قدرة العمال البريطانيين على تصنيعه، بما يفرض حاجة ملحَّة لتوظيف الماكنة. وتحقَّق ذلك عندما دمَّرت بريطانيا صناعة النسيج

18 Baines, Edward: *History of Cotton Manufacture in Great Britain,* (Cambridge: Cambridge University Press, 2015). P. 320.

الهندية، وتوفَّر القطن لها مع تحوُّل العمال الهنود إلى مزارعين ينتجونه لبريطانيا. ففي سنة 1730م ارتفعت واردات بريطانيا من قطن الهند إلى اثنين مليون كيلوجرام وكانت قبلها أقلّ من ذلك بكثير. ومن ناحية أخرى تسبَّب غياب النسيج الهندي عن الأسواق العالمية في حدوث فجوة إنتاجية، فازداد الطلب على النسيج البريطاني وارتفع إنتاج مصانعه من مليون متر إلى أربعمئة مليون متر تقريباً. في ظلِّ هذه الظروف تحوَّلت بريطانيا في نهاية القرن إلى أكبر دولة في العالم تصدِّر المنسوجات القطنيَّة، بينما كانت، حتى منتصف القرن نفسه، تستوردها من الشرق.

يتأكَّد الارتباط بين تزايُد نمو ثروة بريطانيا واتِّساع رقعة الأرض التي استعمرتها بالنظر إلى أن حرب السنوات السبع ضد فرنسا، التي دارت بين 1756–1763م واستولى فيها البريطانيون على كندا وجزر دومينيك وتوباغو وغرينادا، وتبعتها بداية سيطرة بريطانيا على الهند بغزوها للبنغال في سنتي 1764–1765م. في ذلك الوقت حصلت شركة الهند الشرقية من تجارتها على عائدات بلغت ثلاثة مليون جنيه، ثم قفز دخلها إلى 22 مليون جنيه في سنة 1818م، مما ساهم في تحويل الشركة إلى مالكة لواحد من أكبر الجيوش في العالم، وتبع ذلك أن حقَّقت مزيداً من السيطرة على الأراضي الهندية. وتوضِّح السجلات المالية البريطانية لتلك الفترة أن جملة الضرائب على دخل الشركة في سنة 1765م بلغت حوالي 10 مليون جنيه إسترليني، أمَّا في سنة 1818م فبلغت 36 مليون جنيه، وكان هذا يقارب ثلث دخل بريطانيا آنذاك[19].

أمَّا لماذا حقَّقت بريطانيا بسيطرتها على نسيج القطن نمواً اقتصادياً وتطوُّراً تقنياً كبيراً، رغم أنَّ صناعة نسيج الصوف كانت أسبق منها واستمرَّت في أوروبا حتى بداية القرن الثامن عشر، فيفسِّره والرشتين بأنَّه في حال إدخال التطوُّر التقني على الصوف كانت أوروبا ستخوض تنافساً بين بلادها لسببين،

19 Ward, J. R.; The Industrial Revolution and British Imperialism 1750-1850, *The Economic History Review*, New Series, vol. 47, no. 1 (Feb. 1994). 44- 65. p p. 46-47.

هما: تركُّز صناعة الصوف فيها، وقابلية التقنية للانتقال بينها. أمَّا في حال إدخالها على نسيج القطن؛ فإنَّ التنافس يضع أوروبا ككل في مواجهة الهند، ويمنع انتقال تقنية التصنيع الآلي إليها. هكذا كان التمييز بين البلاد الأوروبية وغير الأوروبية قد حسم التنافس على الصعيد العالمي حتى في مجال التقنية.

بالطبع لم يحدث التحوُّل في العلاقة بين الهند وبريطانيا بالطريقة البسيطة الموصوفة هنا، فقد ترتَّبت عليه تبعات عديدة، كان أبرزها تدمير نمط الحياة التي أَلِفها مواطنو الهند وتحوُّلهم من شعب غني إلى جماعات فقيرة اكتفت بتصدير إنتاجها من القطن إلى بريطانيا بأسعار بخسة. وشكَّلت عمليات التدمير منظومة مترابطة شملت السيطرة على المواد الضرورية لحياة الإنسان الهندي. ونتيجة لتحوُّل كثير من الهنود من منتجين صناعيين إلى عمَّال ومزارعين في حقول القطن، فقدوا قدرتهم على إعالة أنفسهم وأُسَرهم التي كانت تعتمد على نظام تسانُد جماعي في ثلاثة مجالات هي: إنتاج الغذاء وزراعة القطن وتصنيعه. ونتج عن تحويل الأراضي الزراعية من إنتاج الغذاء إلى زراعة القطن انخفاض مساحة الأرض المزروعة بالمحاصيل الغذائية، فعمَّت المجاعات أرجاء الهند. وفي دورة ثانية للاستغلال، استفاد البريطانيون من هذه الظروف القاسية التي صنعوها ليكسبوا من بيع الغذاء لفقراء الهند بعد أن استولوا على أراضيهم التي كانوا يزرعونها بالمحاصيل الغذائية.

نتيجة لهذا الاستغلال المزدوج مات في سنة 1866م أكثر من مليون هندي جوعاً، بسبب تدمير نظم الزراعة في الإقليم وارتفاع أسعار الغذاء، وتجاهلت كتب التاريخ الأوروبي الإشارة إلى هذا النوع من الكوارث التي خلقها الأوروبيون في المستعمرات. لكن نصوص بعض المهتمين بنقد سياسات الدول الأوروبية آنذاك أوردت شيئاً ممّا كان يجري، فقد وثَّق ماركس للكيفية التي استثمر بها الإنجليز المجاعة التي صنعوها في الهند ليجمعوا مزيداً من الثروة، فوصفهم

بأنهم كانوا "يغتنون من بيع وسائل العيش الضرورية لهؤلاء الجوعى بأعلى الأسعار التي تفوق طاقتهم"[20]. يُبيِّن هذا أن تطوُّر بريطانيا الاقتصادي ارتبط بصناعة المجاعة في الهند مثلما ارتبط بصناعة النسيج البريطاني.

من ناحية أخرى، فإنَّ استيراد قطن الهند بثمن بخس لم يؤدِّ فقط إلى نمو صناعة النسيج البريطاني، بل أدَّى إلى تطوُّر سلسلة متَّصلة من العمليَّات الصناعية الناجحة، فظهرت صناعات جديدة مرتبطة بصناعة النسيج، منها بناء ورش الميكانيكا والصيانة ومجمَّعات المصانع ومساكن العمال. وبسبب تزايد عمال المصانع بالمدن نمت صناعة الأثاث والمعدات المنزلية لأُسر العاملين، وارتفعت الاستثمارات في مجال الغذاء والتعليم والعلاج. ولما استقرت هذه الأوضاع سعت بريطانيا إلى الحفاظ عليها بالبحث عن مناطق أخرى لإنتاج القطن. ولأن تكاثُر مصانع النسيج البريطانية خلق مزيداً من الحاجة إلى القطن، استلزم ذلك تمدُّد الاستعمار البريطاني في بلاد أخرى للتوسع في زراعته، فتمت السيطرة بحُجج مختلفة على بعض البلاد الأفريقية ذات الأراضي الخصبة، مثل مصر والسودان، وحُوِّلت أراضيهما إلى مزارع للقطن تُلبِّي احتياجات المصانع البريطانية المتوسعة، وفُرض على مواطنيها زراعته وحدَث فيها شيء شبيه بما حدث في الهند من تتابُع دورات الاستغلال، مع وجود اختلافات في الظروف المحلية وطرق توطين زراعة القطن.

قدحت صناعة النسيج زناد سلسلة عمليات سارت في اتِّجاهين متضادَّين: تطوير قدرات بريطانيا وتدمير قدرات الهند من ناحية، وممارسات احتلال بريطاني لمناطق جديدة تركَّزت في شرق ووسط أفريقيا، من ناحية أخرى. وفي سنة 1902 أُنشِئت (جمعية زراعة القطن البريطانية) التي مارست ضغوطاً مستمرّة على الحكومة البريطانية لإيجاد مصادر رخيصة للقطن بسبب نقص إنتاجه، فصرّح ملك بريطانيا بضرورة توظيف الأراضي المحتلَّة لزراعة القطن،

---

20 كارل ماركس وفردريك إنجلس: **في الاستعمار**، (موسكو: دار التقدُّم، د. ت.). ص 126-125.

وقال: "إنَّ التوسُّع في الأراضي التي تنتج القطن في الإمبراطورية سيحقِّق نجاحات كبيرة"[21]. في هذه الظروف لفتَ نمو ثروة بريطانيا وتطوُّرها الاقتصادي أنظار بلاد غرب أوروبا الأخرى، فاندفعت نحو أفريقيا التي كانت القارة الوحيدة التي لم يتوسَّع فيها الأوروبيون كثيراً حتى نهاية القرن التاسع عشر.

نتج عن التوسُّع في الاقتصاد الاستعماري ترقِّي قوى الإنتاج في بريطانيا، فتطوَّرت الآلات وتراكم رأس المال وتحسَّنت الأوضاع المعيشية للعمال، وارتقت قدراتهم العملية وتعدَّدت مجالات التخصص المهني. وارتبطت فئات كثيرة من العمال بالمجال الصناعي بطريقة غير مباشرة، مثل: مصممو النسيج، ومنتجو الغذاء وبناة المصانع والمساكن وحائكو الملابس وصانعو الأثاث والمهن الفنية. ساهم هذا التوسُّع لمجالات العمل المختلفة في أن تلعب صناعة النسيج دور القائد لسلسلة من دورات النمو في مجالات إنتاج جديدة، عمَّمت توجُّه المجتمع البريطاني نحو الاعتماد على الصناعة.

هذا المسار الذي اتَّخذته صناعة القطن، التي هي في الأصل صناعة تلقَّتها أوروبا من شعوب الشرق ثم طوَّرتها بريطانيا عن طريق الاستيلاء على صناعة النسيج في الهند؛ يصلح نموذجاً لدراسة تاريخ إدخال الماكِنة في الصناعة، ليوضِّح أنَّها بدأت منذ وقت مبكِّر في مجالات مماثلة جرى تلقِّيها عن الشرق، منها بعض المنتجات الغذائية.

ترافقَ نمو اقتصادات أوروبا منذ القرن السادس عشر مع تزايد استهلاك منتجات جديدة كان أبرزها السُكَّر والقهوة والشاي، وهي منتجات لم تكن أوروبا تعرف عنها شيئاً، فقد اكتُشِفت وتطوَّر استخدامها وتصنيعها كلها في الشرق. وكما هو الحال في زراعة القطن، تطلَّب التوسع في إنتاج القهوة والشاي توسيع دائرة الأرض المزروعة في مستعمرات الشرق وبعض مناطق أميركا والكاريبي التي استُغِلّت لذلك الغرض، وهنا أيضاً أُزِيحَت الشعوب من أراضيها الخصبة

21 Mamdani, Mahmood; *Citizens and Subjects: Contemporary Africa and the Legacy of Late Colonialism*, (New Jersey: Princeton University Press, 1996). P. 4.

التي كانت توفِّر لها الغذاء فدخلت دائرة المجاعة التي تفاقمت مع اتِّساع نطاق زراعة قصب السُكَّر، الرفيق لمحصولَي البُن والشاي، لأن توسُّع صناعة السُكَّر ارتبطت أكثر من بقيَّة الصناعات بنمو استهلاكهما.

تطوَّرت صناعة السُكَّر في بريطانيا قبل ظهور الآلة البخارية بسنوات كثيرة، وتركَّزت في الفترة الواقعة بين 1650–1700م عندما كانت جزر باربادوس وانتيغوا وجامايكا أكبر مناطق زراعة القصب. وفي الفترة بين 1700 و 1750م تطوَّرت الآلات الأولى لطحن السُكَّر، وكانت تلك بداية الإعداد التقني لظهور الآلة الصناعية المؤدِّية إلى كسب اقتصادي، فحينها صار السُكَّر السلعة العالمية الأولى التي تصبُّ في بريطانيا، قادمة من مستعمراتها. وقريباً، اتَّجه النقاش حول تطوُّر الصناعة ونمو الاقتصاد في بريطانيا إلى تأكيد الدور الذي لعبته صناعة السُكَّر فيهما، فبعض مؤرِّخي الاقتصاد المعاصرين يؤكِّدون أن العالم قبل أن يشهد ثورةً في صناعة النسيج كان قد شهد "ثورة السُكَّر"[22].

تميَّزت ثورة السُكَّر، إن كان يجوز هنا استخدام لفظ ثورة على طريقة المؤرِّخين الأوروبيين، بعدّة ميزات مُهمَّة، منها: تحويل أراضي المستعمرات من متعدِّدة المحاصيل إلى أحاديَّة المحصول، ومن استغلال المزارع الصغيرة إلى استغلال المزارع الواسعة (plantations)، ومن العمل المأجور إلى عمل المستعبَدين المجاني. وترتَّب على هذه التحولات نتائج مُهمَّة، كان أبرزها النمو الكبير لنشاط الاسترقاق، وتزايد التوسُّع الاستعماري الأوروبي في المناطق الاستوائية، إضافة إلى إكساب العادات الغذائية في أوروبا طابعاً استهلاكياً[23]. لقد أوضح المؤرِّخ المعاصر سيدني منتز أن أسلوب التنظيم الصناعي الحديث تطوَّر في صناعة السُكَّر في جزر الكاريبي وليس في بريطانيا، فكتب:

---

22 Higman, B. W.; The Sugar Revolution, *The Economic History Review*, New Series, Vol. 53, No, 2 (May, 2000).

23 تتميز صناعة السُكَّر عن صناعة النسيج بأنها صناعة غذائية أولية، فبجانب أنَّها تُنتِج سلعة تُستهلك في ذاتها على نطاق واسع جداً، فهي أيضاً ضرورية لصناعات أخرى يدخل فيها السُكَّر كعنصر رئيسي، وبهذا فهي صناعة قابلة للتوسع المستمر، انظر المرجع السابق، الصفحات 213-236.

"كان انتاج السُكَّر في القرنين السادس عشر والسابع عشر يتطلَّب انضباطاً صارماً للعمل وجدوَلة دقيقة، ووعياً بأهمِّية الوقت وتقسيم العمل إلى وحدات بحسب العمر والمهارة والجنس [ذكور/ إناث]، بقدرٍ لم يكن معروفاً حتى ذلك الحين في قارة أوروبا"[24].

هذه المعطيات تفصح عن السبب الذي دعا المؤرِّخين الأوروبيِّين إلى التغاضي عن أهمِّية هذه الصناعة وإهمال أسبقيَّتها التاريخيَّة والتقنيَّة على صناعة النسيج، فالسُكَّر صناعة ترتبط في كل مكِّوناتها بالخارج ولا تدِين بشيء إلى أوروبا، التي عرفت تلك الصناعة من شعوب الشرق ونُقلت إليها بوسطة العرب. وما زال الاسم الإنجليزي (sugar) هو الاسم العربي نفسه، وأُنتِج قصبه من مزارع أميركا وبقوة عمل مواطنين مستجلَبين من أفريقيا[25]. وباختصار، فإنَّ صناعة السُكَّر لا تنتمي إلى تاريخ الأوروبيين بقدر ما تنتمي إلى تاريخ التقائهم بحضارات الشعوب الأخرى واستفادتهم منها.

إنَّ هامشية وجود أوروبا في تاريخ صناعة السُكَّر هو الذي يفسِّر تجاهُل المؤرِّخين الأوروبيين لدورها في ظهور الصناعة الحديثة، ويبيِّن لماذا حوَّلوا أنظارهم نحو صناعة النسيج، رغم أن نشأتها ومسار نموِّها أيضاً يُبرزان الدور الكبير للبلاد غير الأوروبية، كما سبق التوضيح. وفي الحالين فإنَّ ارتباط تطوُّر الأوضاع الاقتصادية والتقنيَّة في أوروبا بالتوسُّع الاستعماري أمر مؤكَّد[26].

---

24 ميتشل، تيموثي: مدرسة دراسات التابع ومسألة الحداثة، **ألف: خطاب ما بعد الكولونيالية في جنوب آسيا**، العدد 18، (1998)، 100-121. ص 102.

25 عرف الأوروبيين السكر لأول مرة مع حملاتهم الصليبية على الشرق، وسموه "الملح الحلو" (sweet salt) إلى أن بدأوا يتلقونه من العرب فاستخدموا له اسمه العربي.

26 في القرن السادس عشر ربحت البرتغال من تصدير السكَّر إلى أوروبا. وبعدها كسبت منه بريطانيا في القرن السابع عشر ولحقت بها فرنسا في القرن الثامن عشر فتطوَّر اقتصادها. وفي القرن التاسع عشر وبداية العشرين عشر صارت الولايات المتحدة المستفيد الأكبر من صناعته بسبب قربها من منطقة الكاريبي، وطوَّرت تقنيات تنقيته التي صارت جزءاً مما يسمِّي الثورة الصناعية الثانية. انظر:
Ayala, Cezar J.: *American Sugar Kingdom: The Plantation Economy of the Spanish Carbean, 1898-1934,* (Chapel Hill and London: The University of North Carolina Press, 1999). p. 24.

برزت عدة تبعات لتطوُّر صناعة السُكّر انعكست سلباً على أمم الجنوب. فكما هو الحال في غيرها من الصناعات التي اعتمد عليها تطوُّر أوروبا، وكانت تقوم على المنتجات الزراعية وتتطلَّب جهداً بشرياً كبيراً؛ فإنَّ تحويل منطقة معينة إلى رقعة متخصِّصة في إنتاج محصول مثل القطن أو البن أو الشاي، كان يعني خلق احتياج في تلك المنطقة لمبادلة منتجاتها بما تحتاجه من محاصيل تنتجها مناطق أخرى. وهذا لأن المنطقة المنتجة كانت تتَّجه تلقائياً نحو أن تفقد اكتفائها الذاتي من المحاصيل الغذائية التي تعتمد عليها قبل خضوعها للسيطرة الأوروبية. وكان خلق سوق لمبادلة منتجات المستعمرات فيما بينها يتطلَّب تحويل بعضها إلى أسواق لاستهلاك السلع التي تنتجها وتصدِّرها المناطق الأخرى، فتصبح هذه بدورها مستورداً لسلع من مناطق أخرى في الإمبراطورية الأوروبية المعيَّنة، أو الامبراطوريات الأخرى المرتبطة بعلاقة تجارية معها. وبهذا النوع من التشبيك أنشأت الدول الاستعمارية أسواقاً ضخمة لتبادُل المنتجات بين مستعمراتها أقامتها على قاعدة تفكيك اقتصادات المستعمرات وإفقار شعوبها. وبهذه الطريقة امتلكت كل إمبراطورية أسواقاً واسعة جرت فيها عمليات استيراد وتصدير عابرة للبحار، صبَّت ثروتها في عواصمها الأوروبية لتستمر دورة إفقار المستعمرات.

بالنسبة إلى المناطق التي أُخضِعت للاستعمار كان ذلك يعني تخصُّص شعوبها في إنتاج سلع تفي بغرض التبادُل التجاري الإمبراطوري، ولا تفي بإشباع حاجات مجتمعاتها المحلية. وصارت تعتمد على تصدير مواد خام ومنتجات لم تكن ضرورية لها، وتشتري الضروريات التي تحتاجها من أسواق تسيطر عليها القوى الاستعمارية وتُباع لها بأسعار باهظة. على هذا النحو تم قطع التطوُّر الطبيعي للأمم، وصارت أداة لتحقيق الثراء والرفاه وحقَّقت التطوُّر التقني والعلمي لأمم أوروبا. على أساس اختلاف آثار هذه العلاقة وتعارُض

نتائجها في أوروبا والمستعمرات، يجب أن تُفهم أحداث التاريخ الحديث معتمدة على خبرة كل منطقة مع أحداثه، بما يزودها بمنظور محلي يحيط بتجربتها وواقعها، وليس بتبنِّي منظور لا يرى في العصر الحديث إلا الخير الذي كان يصبّ في أوروبا ويُنكر ما كان يجري خارجها.

كانت الفترة الممتدة من سنة 1730 إلى سنة 1780م، التي تُنسب إليها الاختراعات التي يقول البريطانيون إنَّها أنجبت ثورتهم الصناعية، هي الفترة ذاتها التي انقلبت فيها علاقة بريطانيا بالهند من التجارة الحرَّة إلى الاستعمار. وهذا التزامُن هو الذي يقتضي ربط نمو الاقتصاد البريطاني آنذاك بتحويل الهند من بلد صناعي يصدِّر النسيج لأوروبا كلها، إلى بلد زراعي فقير يزرع القطن لمصانع بريطانيا التي ستتطوَّر بعد ذلك نتيجة تقليدها لنسيج الهند.

إن كان تقدُّم بريطانيا قد نتج عن علاقات الاستغلال والسيطرة التي سبق وصفها ولم ينتج عن ثورة صناعية، فما الدور الذي لعبته فكرة هذه الثورة في التاريخ الحديث ولقيت به رواجاً في العالم كله؟ الإجابة عن هذا السؤال نجدها لدى مؤرِّخي الاقتصاد المعاصرين الذين درسوا ظروف مولد أوروبا الحديثة بأدوات منهجية جديدة، بخلاف مفهوم الثورة القديم، وهي أدوات تطوَّرت هي أيضاً في ظروف جديدة.

بعد تفكُّك مستعمرات أوروبا في منتصف القرن العشرين، نشأت أُطر جديدة لتفسير التاريخ الاقتصادي أعادت النظر في مفهوم الثورة الصناعية، وحلّلت دوره في المعرفة المعاصرة. أكَّدت هذه المساهمات أن ظهور الماكنة وتأثيرها على الاقتصاد البريطاني لم يتحقَّقا دفعة واحدة أو في فترة تاريخية قصيرة. وفي سبعينيات القرن العشرين حدث تحوُّل آخر في منظور مؤرِّخي الاقتصاد نتيجة أزمة النظام الرأسمالي التي تفاقمت آنذاك، فلم يعودوا يقبلون

تفسير التطوُّر الاقتصادي على أسس قوميَّة تربط لحظات تحوُّله الكبرى بتاريخ هذا البلد أو ذاك، وتبنوا مفهوماً جديداً شاع استخدامه فيما بعد لفهم التاريخ الاقتصادي، هو مفهوم النظام العالمي.

ساهمَ في تطوير هذا المفهوم المفكِّر الأميركي إيمانويل والرشتين، الذي تناولت بحوثه مفهوم الثورة الصناعية مركِّزاً على الفترة من 1760 إلى 1830م. ربط والرشتين تلك الفترة بالظروف السياسية التي أحاطت بها، خاصة خوض بريطانيا الحرب ضد فرنسا من أجل السيطرة على التجارة في أميركا الشمالية والكاريبي. وحتى بعد الثورة الفرنسية دارت حرب بين فرنسا وبريطانيا في الفترة الممتدة بين السنوات 1793–1815م، تعرَّضت فيها فرنسا إلى خسارة كبيرة أعقبها ضعف اقتصادي، لكنها رغم ذلك استمرت متفوِّقة على بريطانيا، حسب تحليل والرشتين[27]. وبتتبُّع النتائج الاقتصادية التي ترتَّبت على هذا المسار، معتمداً على دراسات معمَّقة أُجرِيت في نهاية القرن العشرين ووثائق حول النصف الثاني من القرن الثامن عشر؛ توصَّل والرشتين إلى أن فترة ما بعد سنة 1760م لا يمكن أن يُنسب إليها دور ثوري في حدوث تحوُّل في الاقتصاد البريطاني؛ لأنَّه لم يشهد آنذاك نمواً كبيراً[28]. ويقول إنَّ حدوث ثورة في صناعة النسيج بقدرٍ حفَّز زراعة القطن أمر مشكوك فيه؛ لأن ارتباط الصناعة بإنتاج القطن لم يتحقَّق في بريطانيا إلا بعد 1780م، أي أنَّه جاء متأخراً عن اللحظة التي ظهرت فيها ماكِنات النسيج. ويضيف: حتى ذلك الوقت لم تكن عوامل نجاح الصناعة البريطانية تعتمد على التصنيع الآلي وإنما على انفتاحها نحو السوق العالمية نتيجة التمدُّد الاستعماري لبريطانيا. ومن هذا يخلص إلى أن تفسير النمو الاقتصادي الأوروبي بتطوُّرٍ حدث في منطقة جغرافية محدودة،

27 Wallerstein, Immanuel: *Unthinking Social Sciences,* (Philadelphia: Temple University Press, 2001). p. 48.

28 المرجع السابق، ص 43-45.

غير ممكن؛ وأن الأسلم من ذلك النظر إلى تطوُّر النظام الاقتصادي من حيث هو كُل مترابط[29].

مقابل أطروحة الثورة الصناعية، يرجِّح والرشتين أن يكون السبب الرئيسي لنمو اقتصادات منطقة غرب أوروبا هو احتلال إسبانيا لأميركا وتسرُّب ثرواتها إلى منطقة غرب أوروبا، مؤدِّية إلى صعود قوَّتين جديدتين، هما هولندا وبريطانيا اللتان تمكَّنتا من فكِّ احتكار إسبانيا لأراضي وثروات الأميركتَين. وهذا قريب مما توصَّل إليه ماركس قبله حين ركَّز على دَور الذهب والفضة المنهوبَين من إسبانيا في شروق فجر الرأسمالية، وتركُّزها في غرب أوروبا. وبينما قصَرَ ماركس ذلك الدور على القرن السادس عشر، دفعه والرشتين أماماً نحو القرن الثامن عشر، فربطه بصعود مكانة هولندا وبريطانيا نتيجة إعادة توزيع دخل المستعمرات عليها. لقد نتج عن تحويل ذهب وفضة أميركا إلى مال ازدياد الطلب على السلع التي تنتجها الاقتصادات الداخلية لدول غرب أوروبا، وتوسَّعت التبادلات التجارية فيما بينها، ونتيجة لذلك نمت مجتمعاتها وتفوَّقت في مختلف المجالات. وفي هذه الظروف ما كانت الخصوصيات الداخلية للاقتصادات الأوروبية لتسهم في الصعود الاقتصادي للدولة المعينة، أو تحدّ منه، إلا ضِمن منطق اشتغال النظام الاقتصادي بوصفه كلّاً واحدا نشأ وتطوَّر في ظروف اقتسام المستعمرات[30].

تأسيساً على هذا، توصَّل والرشتين إلى أن مفهوم الثورة الصناعية خاطئ من أساسه، سواء كان يتعلَّق بثورة في القرن الثامن عشر أو في القرن التاسع عشر. إنَّ تاريخ تطوُّر أوروبا وحداثتها عندما يُدرَس من وجهة نظر مفكري

29 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

30 ربط والرشتين ومفكّرون آخرون ينتمون إلى مدرسة النظام العالمي التطوُّر الذي تحقّق لبلاد شمال غرب أوروبا بتوسعها الخارجي، وأيضاً أعطوا أهمِّية كبيرة لتحوُّلات أخرى تمَّت داخل أوروبا، منها: تحوُّلات سياسية وإدارية وتقنية في مجالات عدّة، أبرزها الصناعة والزراعة.

النظام العالمي لا يُظهِر ارتباطاً بظروف أي من بلادها قدر ارتباطه بتوسُّعها الاستعماري مجتمعة، وبالتقليل من الأدوار المنسوبة للبلاد الرأسمالية منفردة. ترتَّبت على أعمال والرشتين نتائج مُهِمَّة في مجال تاريخ أوروبا الحديث أزالت عدداً من الأوهام التي تركَّزت حول تجربة التحديث الأوروبية وفكرة الحداثة. وأبرزها الاعتقاد بأن التحوُّل نحو الحداثة أمر حتمي وله طابع شامل سيقضي على تباين وتنوُّعات الأوضاع المحلية، وأوضحت تحليلاته التاريخية أن صفة الشمول تصدر عن طبيعة النظام الراسمالي، لا عن مركزية بعض الأمم[31]. وترتَّب على عمل والرشتين أن السؤال المهم بخصوص صعود أوروبا اقتصادياً ما عاد يختص بمعرفة الكيفية التي حقَّقت بها بريطانيا ثورة صناعية؛ وإنما بمعرفة كيف استطاعت في فترة قصيرة أن تصبح القوة المهيمنة على نظام عالمي كان مستمراً لحوالي مئتي عام؟

ناظراً في سؤال الدور الذي لعبته فكرة الثورة الصناعية في العصر الحديث، يقول والرشتين إنَّ تسليم المؤرِّخين بتفوُّق بريطانيا يكشف عن الوظيفة التي ظلَّت الفكرة تخدمها في مناطق العالم المختلفة، منذ بداية ظهورها في القرن التاسع وحتى رواجها في القرن العشرين. فعند ليبراليي القرن التاسع عشر وُظِّفت الفكرة لتبرير غزو بريطانيا للمستعمرات، وعند الاشتراكيين استُخدِمت للتقليل من دور البرجوازية الفرنسية في تحقيق التحوُّل نحو الرأسمالية، وفي القرن العشرين أفاد منها الليبراليون في تبرير الفقر الذي سبَّبته الرأسمالية خارج أوروبا، بإلقاء اللوم على العالم الثالث وتحميله مسؤولية عدم تحقيق ثورة صناعية، كما فعلت بريطانيا وأوروبا. أمَّا بالنسبة إلى حركات التحرُّر في العالم الثالث فقد صار مفهوم الثورة الصناعية ورطة، حسب رأي والرشتين، لأنها طابقت بينه وبين مفهوم الاشتراكية، فبدلاً من أن توجه نضالها نحو تحويل

31 MacLoed, Christine: I*nventing the Industrial Revolution: the English Patent system, 1660-1800,* (Cambridge, New York: Cambridge University press, 1988). P. 6.

طبيعة النظام الرأسمالي العالمي؛ رمت بنفسها في لعبة السيطرة على سلطة الدولة بهدف اللحاق بالغرب عن طريق تحقيق ثورة صناعية وطنية تقود إلى الاشتراكية، فقد اعتقدت النُّخَب الوطنية خارج أوروبا أن الحل الصحيح لمشكلة التحديث هو اتباع النموذج الذي يروي به الأوروبيون تاريخ صعودهم[32].

اعتمادا على ما سبق، يمكن فهم الدور الذي لعبه مفهوم الثورة الصناعية في توطيد فكرة نقاء التاريخ الأوروبي الداخلي الذي يُفسَّر به ميلاد الحداثة. والواقع أن محاولة مؤرِّخي القرن التاسع عشر تفسير النمو الاقتصادي للمجتمع الإنجليزي في القرن الثامن عشر لم تقف عند حد ابتكارهم فكرة الثورة الصناعية، فابتكروا وقائع تاريخية جديدة أُلحِقت بالتفوق الاقتصادي المزعوم لبريطانيا، الذي نفاه والرشتين. فبعد أن قُبِلت فكرة الثورة الصناعية جاءت محاولة إضفاء صورة على المجتمع الإنجليزي بأنَّه كان حينها على مستوى رفيع من الاهتمام بتطبيقات التقنية. فانتقل المؤرِّخون من اصطناع تفسير للتحوُّل نحو الماكنة إلى ابتكار تحول إضافي، جعل الثورة الصناعية جزءاً من عصر تقدُّم تكنولوجي شامل. وبهذه الخطوة طرح مؤرِّخو الحداثة الأوروبيين على أنفسهم مَهمَّة جديدة هي تفسير ظهور "مجتمع العلم والتقنية" في بريطانيا في فترة النصف الثاني من القرن الثامن عشر[33].

هكذا استمرَّ المؤرِّخون الأوروبيون يعثرون على وقائع تاريخية تُحوَّل إلى حقائق بالبحث عن أدِلَّة تاريخية، مثل القول برعاية المجتمع الإنجليزي للعلم والصناعة، وتنظيم إنتاجهما على أسس عقلانية وتحفيزهما مادِّياً عن طريق نظام تمويل للاختراعات. لكن هذا الزعم أيضا لم يصمد أمام الأدلة التاريخية التي جُمِعت عن فترة القرن الثامن عشر، فكثير من الاختراعات الداخلة في

32 Wallerstein, Immanuel: *Unthinking*... p. 49

33 Peter Van Der Veer: *The Global*…, p. 297.

السلسلة التي يُنسب إليها دور مهم في إحداث الثورة الصناعية لم تموَّل، وعلى رأسها المغزل الآلي. ورغم أن البرلمان الانجليزي أجاز حق احتكار جزئي للابتكار في سنة 1661م، وبحسب منطق الحُجَّة التي تنسب إلى مؤسسات المجتمع الانجليزي العناية بالاختراعات، كان من المفترض أن يسهم ذلك في دفع مالكي رؤوس الأموال إلى تمويل المخترعين، إلا أن الحقيقة التي كشفت عنها الوثائق هي أن هذا الإجراء لم يسهم في تحقيق تحوُّل واضح نحو الابتكار الصناعي[34].

من هنا يُفهم أن اصطناع تفاسير للحداثة الأوروبية، باعتبارها حدثاً يخص التاريخ الأوروبي وحده، استُتبِعت منه باستمرار (حقائق) تاريخية أُلحِقت بتاريخ الحداثة لمحو ارتباطها بتوسُّع أوروبا الاستعماري. وكانت صورة المجتمعات الأوروبية التي حقَّقت تقدُّماً اقتصادياً تُولِّد منها على الدوام صُور مجتمعات متقدِّمة في كل مناحي الحياة فتتكاثف هذه الصور في تفاسير المؤرِّخين الأوروبيين التي كان يجب ان تقتصر مهمَّتها على فهم الواقعة الأساسية، وهي ظهور المجتمعات الأوروبية ذات الثروة. لكن لأن الاقتصار على تفسير الواقعة بطريقة مباشرة سيقود إلى سببها الأقرب وهو الاستيلاء على ثروات المستعمرات، يُلتَف على المهمة الأساسية بابتكار صورة مجتمعات أوروبية متقدِّمة في مختلف أوجه الحياة لا صلة لها بالعالم الخارجي.

يمكن تلخيص المسار الذي اتَّخذته اسطورة الثورة الصناعية في بريطانيا بتتبُّع تحولات مضمونه في فترة القرن العشرين التي شهدت اندثار الأسطورة[35]. في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتحديداً عندما وجَّه ماركس نقده

34 على مدى القرن الثامن عشر في بريطانيا لم يتجاوز عدد المستفيدين من التمويل 106 من الإنجليز وسبعة اشخاص من أسكتلندا، أمَّا إيرلندا فقد بقيت كلها خارج نظام التمويل آنذاك. انظر:

MacLeod, Christine: *Inventing*…,. P. 5.

35 Coleman, D.C.; *Myth* …, p. 32.

لتحولات الصناعة التي تسبَّبت في اغتراب العامل عن نتاج عمله؛ أستُخدِم تعبير الثورة الصناعية لنقد التصنيع من جهة أثره السالب على المجتمع. في مرحلته الثانية، وتحديداً في بداية القرن العشرين، اتَّخذ التعبير دلالة إيجابيَّة مع محاولة الاقتصاديين البريطانيين بين الحربين الأوروبيتين الكبيرتين إدراج الثورة الصناعية ضِمن نموذج تفسيري عام للنمو الاقتصادي، لجعلها مرحلة ضرورية في مسيرة التحديث وبلوغ لحظة الحداثة. وكانوا بذلك يستجيبون لضرورة تقوية المشاعر الوطنية في فترة الحرب، ورفع مكانة وطنهم في صراعه مع بقية الدول الأوروبية من أجل السيطرة على ما بقي من أراضي النصف الجنوبي من الأرض[36]. أمَّا المرحلة الثالثة التي جاءت بعد منتصف القرن العشرين، فيقول عنها كولمان إنَّ اسطورة الثورة الصناعية بدأت تتراجع فيها لأن الصناعات الإنجليزية كانت قد تدهورت، وتوقَّفت مصانع النسيج والصناعات الحديدية الثقيلة.

في تلك الفترة انتقل تأثير فكرة الثورة الصناعية من مجال الاقتصاد إلى المخيِّلة الشعبية، فصارت عنواناً لقصة تستثير حنيناً إلى ماضٍ إمبراطوريٍ مجيد لدى الجماهير البريطانية. ولم يقف أثر تلك القصَّة على مخيِّلة الأمّة ولكنه عاد ليُوظَّف في المجال الاقتصادي نفسه، ففي سبعينات القرن العشرين بدأ استثمار ذلك الحنين فافتُتِحَت كثير من المصانع التي كانت قد أُغلقت، وحُوِّلت إلى مواقع سياحية تاريخية ترمز إلى مساهمة بريطانيا في التاريخ الحديث، فأُعيد تشغيل أكثر من مئتي مصنع كمواقع سياحية، مثلها مثل مواقع معابد ومسارح الرومان التي تشير إلى مساهمة إيطاليا في صعود أوروبا عبر بوابة "عصر النهضة". وفي ثمانينيات القرن العشرين بلغ عدد المتاحف التي اشترت آلات صناعية قديمة وأعادت تشغيلها، أكثر من أربعمئة متحف في

36 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

بريطانيا[37]. وفي ظروف نفص الوظائف في تسعينيات القرن العشرين ازدادت إمكانية استثمار أسطورة الثورة الصناعية من أجل تنشيط الاقتصاد ودعم العاطفة الوطنية. وهكذا ساهمت قصَّة الثورة الصناعية في اختراع تراث تاريخي لبريطانيا يُعلي مكانتها في التاريخ وينسب إليها تحقيق الخطوة الحاسمة نحو الحداثة.

إنَّ تغيُّر دلالات تعبير الثورة الصناعية يبيِّن أن خطاب التاريخ الأوروبي لا يقدِّم وصفاً موضوعياً لحقائق العصر الحديث، كما يعتقد الكثيرون. فهو مثل كل خطاب تاريخي آخر يتداخل مع الانشغالات القومية والمخيِّلات الجماعية وانتماءات المؤرِّخين، ويستند إلى تصوُّرات شعبية ومشاعر جماعية تُستثمَر لصوغ معرفة تُكسَب صورة العلم عبر تقنيات خطابيَّة معيَّنة.

عالج هذا الفصل فكرة الثورة الصناعية بمنظور نقدي، مبيناً أن تحوُّل الصناعة نحو استخدام الماكنة في بريطانيا مرّ بمسار زمني طويل وتدريجي لا يمكن وصفه بالتحوُّل الثوري، وأن تعبير الثورة الصناعية خدم انشغالات المؤرِّخين بفهم مشكلات مجتمعاتهم أكثر من فهم التحوُّل الصناعي في ذاته. وخلص الفصل إلى أن توسُّع الاقتصاد البريطاني ارتبط بالمكاسب التي نتجت عن السيطرة على الهند، وتطوُّر صناعة السُكَّر التي سبقت صناعة النسيج. ورغم التغطية التي وجدها مفهوم الثورة الصناعية في هذا الفصل، فإنَّ للقصة بقيَّة تتَّصل بتاريخ الفكر يتناولها الفصل التالي، وهي قصَّة تحوّلٍ يُقال إنَّه ساهم في إرساء الأساس العلمي للصناعة بتحقيق ثورة عقلية خصَّصَ لها المؤرِّخون عصراً قائماً بذاته سمَّوه "عصر التنوير".

37 المرجع نفسه، ص 33.

الثورة العقليَّة: متلازمة التنوير والتدمير

رغم أن المؤرِّخين الغربيين يقدِّمون عدداً من الأدلة على أن الفكر الفلسفي والعلمي الحديث تطوَّر في أوروبا وحدها؛ فهم يعدُّون عصر التنوير أكثرها دلالة على ارتباط العصر الحديث بأوروبا. وهذا بسبب دعوة مفكري التنوير إلى إعلاء مكانة العقل وضرورة التسامح الديني ودفاعهم عن الحريات السياسية والمساواة في الحقوق الاجتماعية. ويرى المؤرِّخون أن كل بلد من بلاد شمال غرب أوروبا تميَّز بحركة تنوير لها ملامح خاصة به، حسب ظروفه وأوضاعه الداخلية. ففي فرنسا تركَّز الاهتمام على الحريات السياسية والحقوق الاجتماعية، وفي بريطانيا احتلَّت أفكار حرية العمل في المجال الاقتصادي والتسامح في المجال الديني المكانة المهمة، أمَّا في ألمانيا فلقيَ الاهتمام بدور العقل وحرية الفكر مكانة أكبر.

في عمومه، ركَّز فكر التنوير على فصل السلطات في مجال السياسة، مستهدفاً تقييد سلطة الملوك وتقليل تدخُّل الكنيسة في السياسة والحياة العامة. وأثَّرَ فلاسفة التنوير على مفكِّري الولايات المتحدة أيضاً، وظهر ذلك في دستورها، ومن هنا اعتبره المؤرِّخون الغربيون ثورة عقلية تمثِّل العلامة الأوضح على الحداثة، بل إنَّ البعض يراه أعلى لحظة في تاريخ البشرية كله، فقد وصفه الفيلسوف الإنجليزي كارل بوبر بأنَّه "قمَّة التاريخ الإنساني"، رائياً أنَّه العصر الذي أنتج العقلانية وحرَّر الإنسان من النظام التراتُبي الذي جعله أسير

الاستغلال[1]. أمَّا بول هازارد فيرى أن عصر التنوير كان لحظة التحقُّق الكبرى للأفكار التي وُجِدت بطريقة جنينية عند الإغريق وتفتَّحت في عصر النهضة، مستخلِصاً من ذلك "إنَّ عصر التنوير لا مثيل له في التاريخ"[2]. وما زال تقدير الثقافة الغربيَّة لعصر التنوير يرفعه إلى القمَّة، ويتخذه حجر الزاوية للتاريخ الحديث كله، حتى عند نقاد التنوير من مفكِّري ما بعد البنيويَّة وما بعد الحداثة. ففي أواخر القرن العشرين كتب ميشيل فوكو، الذي كان قد انتقد فكر التنوير في عدد من أعماله:

> **"لا أدري ما إذا كان من الواجب أن نقول اليوم إنَّ المَهمَّة النقدية ما زالت تقتضي الإيمان بالتنوير، لكنني أعتقد أنَّها تتطلَّب عملاً من جانبنا يقتضي بذل جهد دؤوب يمنح تطلُّعنا نحو الحرية وجوده"**[3].

رغم تشكُّكه في جدوى استمرار التمسُّك بمشروع التنوير في نهاية القرن العشرين، ربط فوكو مشروعه الفكري في المرحلة الأخيرة من حياته بالوفاء لتقاليد التنوير. وفي سياق مدح هابرماس لذلك التحوُّل لدى فوكو، وصف عصر التنوير بأنَّه "القوة التي تجعل الحداثة مستمرَّة حتى الوقت الحاضر"[4]. لا يقتصر الاحتفاء بالتنوير على الفلاسفة فقط، بل يشمل أيضاً المشتغلين بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، فقد مدح مكسيم رودنسون فكر التنوير بأنَّه كان متسامحاً مع جميع الشعوب لأنَّه "نظرَ إلى الشرق بقدر من التفهُّم"[5]. وتوضِّح

1 Tame, Chris R.; The Revolution of Reason: Peter Gay, The Enlightenment and the Ambiguities of Classical Librealism, *The Journal of Libertarian Studies*, vol. 1, no. 3, (Summer 1977). 217-227. p. 217-218.

2 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

3 Rabinow, Paul (ed.); *The Foucault Reader,* (New York: Pantheon Books, 1984). pp. 49-50.

4 انظر المقال الذي نعي فيه هابرماس فوكو، في:
Nicolson, Sherry Weber (ed.): *Urgen Habermas; The New Conservatism, Culrural Criricism and the Historical Debate,* (USA: MIT Press 1991).

5 تييري هنتش: الشرق المتخيل: **رؤية الغرب إلى الشرق المتخيل،** (بيروت، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة- دار الفارابي، 1988). ص. 190-198.

هذه العينة من الآراء غلبة الاعتقاد لدى معظم المفكِّرين الغربيين بالدور الإيجابي لذلك العصر.

لمعرفة مصدر هذا التقدير الرفيع لعصر التنوير ينظر هذا الفصل في الكيفية التي أُنشئت بها صورته في التصوُّر الغربي لتاريخ العصر الحديث، فبينما يصفه غالبيَّة المفكِّرين الغربيِّين بأنَّه أرسى أُسس الدفاع عن الحرِّيات والمساواة، فإنَّ فحصه من منظورٍ غير غربي يكشف أنَّه لم يفارق تقاليد التمييز التي سادت الفكر الأوروبي منذ العصور القديمة، بل ربما يكون قد عمَّقها أكثر بأن أضفى عليها طابعاً عقلانياً.

كما هو الحال مع كثير من التحولات التي تُنسَب إلى العصر الحديث، لا يوجد اتفاق بين المؤرِّخين الغربيين على الحدود الزمانية لما يسمى ثورة العقل، أو عصر التنوير. فمنهم من يربطه بالقرن الثامن عشر، والبعض يجعله مستمراً حتى بداية القرن التاسع عشر، ويرى آخرون أن فلسفات القرن السابع عشر تمثِّل مقدمته[6]. هذا النوع من زحزحة الحدود الزمانية يتيح للمؤرِّخين خلق تداخل بين مراحل التاريخ لاصطناع اتصال بين الثورات الأوروبية لتشكِّل مشهداً تاريخياً بانورامياً متَّسقاً. لكن نظرة فاحصة للسياق الاجتماعي والتاريخي الذي تطوَّر فيه الاهتمام بنشر العلم والمعرفة في أوروبا، تبيِّن أن الدافع الأساسي لذلك لم يكن انشغالاً خالصاً بالمعرفة من أجل "تنوير العقول" كما يرى المؤرِّخون الغربيون، وأنما كان مناهضة لسيطرة الكنيسة على مؤسسات المعرفة.

6 يذهب بعض مؤرِّخي الأفكار إلى أن فلاسفة أمثال فرانسيس بيكون (1561-1626) وتوماس هوبز (1588-1679)، يعتبرون أيضاً من مفكري التنوير، لعناية الأول بالمنهج التجريبي الذي استهلّ توجه الفكر الأوروبي نحو العلم الحديث، وقول الثاني بصدور سلطة المَلك عن تفويض المواطنين له، لا عن تفويض الهي، مقترباً بذلك من فكرة العقد الاجتماعي التي سيقول بها لوك وروسو في القرن الثامن عشر. ويرى آخرون أن التحول الذي أحدثه رينيه ديكارت (1595-1650) في التفكير الفلسفي عندما نقله من العالم الخارجي إلى اليقين الداخلي، المتمثل في عبارة أنا أفكر أذاً أنا موجود؛ يمثل البداية الحقيقية لعصر التنوير.

على مدى القرن السابع عشر تحكَّمت الجامعات الأوروبية في نشر المعرفة، متوافقة مع استيلاء الكنيسة على السلطة الدينية، وانفراد الملوك والأمراء بالسلطة السياسية، واستحواذ النبلاء والإقطاعيين على الاقتصاد والمكانة الاجتماعية. حتى منتصف القرن الثامن عشر استمر في أوروبا اقتسام هذه المؤسسات الكبرى للسلطة، فهيمنت على كافة الأنشطة وأُزيحت طبقة العامة عن كل مجالات الحياة ومُنعت من الحصول على الحقوق الأساسية. استهدف مفكرو التنوير التخلُّص من احتكار هذه المجالات وكان سبيلها إلى ذلك نشر المعرفة العقلية بين فئات المجتمع، حسب قول المؤرِّخين الغربيين.

من الناحية السياسية، يربط المفكِّرون الغربيُّون التنوير دائما بالحريات السياسية، إلا أن ظواهر مثل ما كان يسمى "الحكام المتسلِّطون المستتيرون" (enlightened despots)، وهم مجموعة ملوك أوروبيين ناصروا فكر التنوير واستضافوا مفكِّريه ودافعوا عنهم دون أن يتيحوا الحريات للشعوب التي حكموها؛ توضح أن بعض أفكار التنوير وُظِّفت لتثبيت الأنظمة الملكية القمعية بتواطؤ من فلاسفة التنوير أنفسهم. فقد دافع فولتير عن حق الحاكم المستبد في إدارة الدولة "إن كان مستتيراً"، حسب تعبيره. وكان أبرز أولئك الملوك الذين ناصروا التنوير فردريك العظيم، ملك بروسيا (Frederick the Great 1712-1786). والراجح أنَّه لم يوجد في عصر التنوير فكر له ملامح إيجابية يمكن وصفه بأنَّه شكَّل خطاباً متسقاً، فتلك صورة صاغتها في فترة متأخِّرة خطابات فلاسفة أحسنوا توظيف المنطق السردي للخطاب التاريخي ولغته الأدبية.

تلعب اللغة المجازية التي تستخدم لفظ النور، والألفاظ التي تحمل معناه أو المشتقَّة منه، دوراً كبيراً في إنتاج التصوُّرات والمفاهيم المؤثِّرة في التاريخ الأوروبي. وقد وُظِّفَ مجاز النور في الخطاب التاريخي بالذات لمنح لحظات متعددة في تاريخ أوروبا صورة إيجابية، فقد وصفَ بترارك حركة إحياء الأدب الإغريقي في القرن الرابع عشر بأنها "تتجه نحو استعادة نور الماضي".

وبالمقابل، استخدم مؤرِّخون مجاز الظُلمة للتقليل من شأن الحقبة التي كانت أوروبا تتلقَّى فيها العلم والحضارة عن الشرق، فسمّوها "العصور المظلمة" للإيحاء بخُلوِّها من النور الذي يستحق عناية المؤرِّخ. وبالمثل، أتاح مجاز "التنوير" (Enlightenment) للمفكِّرين والمؤرِّخين جمع توجُّهات فكرية متنافرة تحت حركة واحدة عُدَّت ذات ملامح متَّسقة، ونُسِب إليها نقل الوعي الأوروبي من حالة إظلام إلى حالة استنارة، فألقى الاستخدام المجازي للفظ (نوراً) على التاريخ الأوروبي الحديث.

بالإضافة إلى اعتماده على التقنيات اللغوية، يُلاحَظ أن الخطاب التاريخي يستلهم أيضاً تقنيات بناء الصورة المرئية، فهو يبني المشهد التاريخي بتقريب لحظاته، المتباعدة في الحقيقة، وذلك بالجمع بينها في فقرات متَّصلة. ولإزاحة بعض الأحداث عن المشهد يقتطعها من الحقب الزمنية ويلحقها بالخلفية، وهذا النوع من التقنيات يمارس تاثيراً حاسماً على ما يُعدُّ "حقيقة" تاريخية. وربما كان المفكِّرون الفرنسيون والألمان أول من استخدم كلمة التنوير لوصف تلك الفترة، ففي نهاية القرن السابع عشر وصفَ الفرنسي بيير بايل (Pierre Bayle) القرن الثامن عشر بأنَّه "سيزداد تنويراً يوماً بعد يوم"، ثم وصف إيمانويل كانط قدرة الإنسان على استخدام العقل دونما وصاية من أحد، بأنها "حالة تنُّور"، أو استنارة. ورغم أنَّ مفكِّرين آخرين شاركوه تعريف التنوير، إلا أنَّه كان أبرز الذين أعطوا المصطلح دلالة فلسفية واضحة في مقال نشره بعنوان "إجابة على سؤال: ما هو التنوير؟"، حلَّل فيه أنماط استخدام العقل[7].

أول ما يُلاحَظ حول ما قام به المفكِّرون والمؤرِّخون الغربيون من رفع مكانة فكر التنوير وتحويله إلى لحظة إيجابية، هو الكيفيَّة التي رُسِمت بها حدوده الزمنية ليصبح حقبة تاريخية مميَّزة. وهذا يتَّصل بالكيفيَّة التي يتم بها

7 Kant, Immanuel; 'An Answer to the Question: What is Enlightenment?' in: Reiss,Hans (ed.); *Kant: Political Writings,* (Cambridge: Cambridge University Press,). P. 54.

إنشاء الحِقَب الزمنية (periodization) في عموم المعرفة التاريخية، فتقسيم المسار الزمني المتَّصِل يتطلَّب فصل الوحدات الزمنية عن بعضها في ذات الوقت الذي يتطلَّب فيه إقامة روابط بينها، حتى لا تفقد صنعة التاريخ خاصية اتِّصال العصور المختلفة، ووحدة الزمن. ووجود فكر متَّسق لدى المؤرِّخ يزوِّده بمنظور متجانس، هو الذي يجعل هذه المهمة التعارضية ممكنة دون أن تُحدِث اضطراباً في مشهدية العصور عندما تُقسَّم إلى حِقب عديدة. وفي الغالب تُكسَب عناصر الحقبة المعيَّنة وحدةً وترابطاً ضِمن التاريخ المعيَّن الذي كُتِبَت ضِمنه، أمَّا حين تُنقَل خارجه لتُقرأ في سياقات تواريخ أخرى فغالباً ما تنحلّ وحدتها، وتفقد الحقبة المعيَّنة دلالتها.

على هذا الأساس القائم على تدابير خطابية يجب أن تُفهَم المكانة المنسوبة لمفكِّري القرن الثامن عشر من واقع أوضاع المجتمعات الأوروبية التي عانت قمعاً نظامياً، تمثَّل في سعي مؤسسات الدولة والمجتمع للاستئثار بالسلطة وشيوع التمييز بين الطبقات واستمرار تقاليد حجب المعرفة. وبسبب تلك الأوضاع لم ينل فكر التنوير اهتماماً رسمياً أو جماهيرياً في زمنه، فبقي حركة محدودة يصعب وصفها بأنَّها شكَّلت ثورة، ففي فرنسا كانت الحكومة عدائية تجاه مفكِّري التنوير، وفي إنجلترا لم تُعره الدولة اهتماماً، أمَّا في ألمانيا فظل مشروعاً تأملياً خالصاً. بمعنى آخر، لا يوجد خارج خطاب التنوير ما يدلُّ على أنَّه اتَّخذ صورة حركة ذات تأثير واسع في زمنه، وهذا يقودنا إلى النظر في محتواه في سياق الفترة التي تطوَّر فيها.

رغم تصريح معظم مفكِّري التنوير بتساوي مَلَكة العقل عند جميع البشر، إلا أنهم يقولون بتفاوته عندما يتعلَّق الأمر بمساواة عقل الأوروبيين بعقول الشعوب الأخرى. ولأن تبنِّي معظم فلاسفته لمبدأ التفاوت قام على اعتقاد بأن الطبيعة البشرية تتحدَّد بنوع المناخ الذي يعيش فيه البشر، وهي فكرة سادت العصور الوسطى؛ فلا يمكن لمن يقرأ فكره من منظور غير أوروبي أن

يصفه بأنَّه عصر تقدُّم. لقد دافع مفكرو التنوير عن التمييز اعتماداً على فكرة مستمرة في تراث حضارات حوض المتوسِّط ظلَّت مستخدمة منذ زمن الإغريق والرومان، وأُعيد توظيفها في القرن الثامن عشر لإضفاء طابع عقلاني على مساعي إخضاع شعوب الجنوب، وهذا يظهر منذ أسلاف مفكري التنوير. ولذا لم ينشغل غالبية مفكريه بنقد الأفكار التي تقول بالتفاوت بين الأوروبيين وغيرهم من الشعوب، فأهملوا التمييز العِرقي المسنود بممارسة العنف خارج أوروبا، معتبرين أن "حقوق الإنسان" شأن يخص الأوروبيين رغم أنهم شددوا على مفاهيم الإنسان العالمي والمواطن الكوني، وغير ذلك. وفيما يلي أمثلة لأفكار وممارسات كبار فلاسفة عصر التنوير وبعض الذين مهدوا له تساند التمييز بين البشر.

يعدُّ الفيلسوف فرانسيس بيكون من أوائل مفكري الاستعمار البارزين في إنجلترا. ففي سنة 1605م كتب أطروحةَ دفاع عن الغزو الخارجي بعنوان (عن العظمة الحقة لمملكة بريطانيا) وجَّهها إلى الملك جيمس، وفيها مدح النزعة الاستعمارية لإنجلترا وحضَّه على توسيع نفوذها الخارجي، وبرَّرَ غزو إيرلندا بأنه: مشروع ضروري لنشر المدنية يماثل أعمال الأبطال القدماء، وحرص كثيراً على أن يتمدَّد نفوذ إنجلترا على حساب إسبانيا الكاثوليكية التي كانت تحتل عدداً من البلاد الأوروبية. هذا الحماس للتوسُّع الخارجي الذي أظهره بيكون أوحى لباحثين معاصرين بأن يعُدُّوه أول فلاسفة النظرية السياسية التي ترى أن على الدولة الحديثة الجمع بين أنشطة الغزو والتوسُّع التجاري ونشر التعليم، فقد ربط بيكون فعلاً في فلسفته بين هذه الأنشطة التي ستشكِّل منظومة السمات المؤسِّسة للدولة الأوروبية الحديثة، التي تعتمد على الجنود والتجار والإداريين في السيطرة على شعوب المستعمرات. ومن هنا وصفَ جيري واينبرغر بيكون بأنه: "مؤسِّس المشروع الحديث، الذي يجمع بين التعليم الحديث والامبراطورية"، أمَّا تشارلس ويتني فقد وصف مشروعه الفلسفي

بأنه: "مشروع حديث يجمع العلم الجديد والتطلعات السياسية الإمبريالية، إلى الرأسمالية الصاعدة"[8].

رأى بيكون أن معرفة الطبيعة تماثل معرفة القوانين التي تنظِّم المجتمع. وعلى هذا الأساس ضمَّ المعرفة العلميَّة إلى الأنشطة التي يجب إخضاعها لضوابط تنظيم المجتمع ورقابة السلطة، وشارك في أعمال بعض محاكم التفتيش. وهذا ما دعا ميشيل فوكو لأن يربط سلطوية بيكون بحماسه للمنهج التجريبي، رأئياً أن إخضاع الطبيعة للتجربة وإخضاع البشر للاستجواب نهجان متطابقان لتحصيل المعرفة، فيهما يُفصَل الموضوع عن شروط وجوده الطبيعي ويُخضَع لباحثٍ يتحكَّم فيه بأدوات تستخلص منه الحقائق التي يريدها[9].

لم يكن بيكون الوحيد بين الفلاسفة الإنجليز الذي برَّروا اضطهاد الشعوب، فقد شاركه في ذلك جورج بِركلي (George Berkley 1685–1753)، الفيلسوف الإنجليزي الذي مثلما عُرف بدفاعه عن الدين عُرف أيضاً بدفاعه عن الاستعباد. نشط بِركلي في نشر المسيحية كثيراً حتى أنَّه سافر إلى أميركا ليقيم مجتمعاً جديداً نقيًّاً "يتأسَّس على المسيحية وحُب المعرفة" كما كان يقول، معبِّراً عن فكره الذي يربط الفلسفة بالإيمان. لكي يضع أُسس ذلك المجتمع اليوتوبي؛ صاغ بِركلي مقترحاً وضع فيه قواعدَ للكيفية التي يمكن أن يسيطر بها البريطانيون على شعوب أميركا، وفي قواعده تلك أعطى التعليم دوراً مهمَّاً. كانت واحدة من القواعد تقول إنَّ مواطني أميركا أنفسهم يجب أن يسهموا في تحويل أهلهم إلى المسيحية، بعد أن يتلقوا تنتشئة بين الأوروبيين. كتب بِركلي:

---

8 Peltonen, Markku: Politics and Science: Francis Bacon and the True Greatness of States, *The Historical Journal*, vol. 35, no. 2 (Jun. 1992), 279-305. p. 280.

9 Garcia, Jose Maria Rodriguez; Scientia Potestas est- Knowledge is Power: Francis Bacon to Michel Foucault, *Neohelicon,* vol. 28, no. 1 (January 2001), pp. 109-121. p. 120.

"إنَّ الأميركيين الصغار الضروريِّين لهذا الغرض يجب أن يتم الحصول عليهم من هذه الأمم المتوحِّشة التي تُوجد على حدود مستعمراتنا والتي هي على صداقة وتعايُش معنا، أو عن طريق أسر أطفال من يعادوننا منهم"[10].

كان بِركلي من أوائل الذين أدركوا أن المعرفة الأكاديمية، والتعليم الجامعي على وجه الخصوص، يشكِّل الأداة الأكثر نجاحاً في السيطرة على شعوب المستعمرات من خلال إنتاج نُخبة وطنية ذاتِ عقلية تابعة، تضطلع بمَهمَّة إخضاع أُممها لإرادة الغزاة، وهي فكرة شاركه فيها عددٌ كبيرٌ من المفكِّرين الأوروبيين. أمَّا فكرة خطف الأطفال لتنشئتهم في حضن الغزاة، فلا شكّ أن بِركلي ينفرد بحقوق ملكيتها الفكرية دون سواه من الفلاسفة.

بما أن التبرير الديني للاستعباد كان يقوم على التكفير، حسب البراءة البابوية التي صدرت في سنة 1452م وأجازت للأوروبيين استعباد مَن سمَّتهم (الشعوب الكافرة)؛ فقد اهتم بِركلي بإثبات أن الدخول في المسيحية لا يعطي المستعبَد حريته. وعلى هذا الأساس تحرَّك بعض مناصِريه داخل بريطانيا لدفع السلطات لإصدار قانون بذلك. فكان أن أصدرَ النائبُ العام تفسيراً للقانون الإنجليزي يقول إنَّ الدخول في المسيحية لا يعطي المستعبَدين الحرية، وإنَّ حقّ مالكيهم في إخضاعهم بالقوة المسنودة بسلطة الدولة يظل قائماً رغم مسيحيتهم[11]. هكذا أعاقت أفكار بِركلي حركة تحرير المستعبَدين، التي بدأها بعض رجال الدين بدفعهم إلى المحاكم لطلب الحرية بعد اعتناقهم المسيحية.

ذكر بِركلي في مدوَّنة يوميات أنشطته التبشيرية، أنَّه قدَّمَ في يوم الأحد الأول من أكتوبر سنة 1729م خطبة تبشيرية بمناسبة تعميد بعض مستعبَدي

10 Bradatan, Costica: *The Other Bishop Berkeley: An Exercise in Reenchantment,* (New York: Fordham University Press, 2006). P. 156.

11 Glasson, Travis: *Mastering Christianity: Missionary Angelicanism and Slavery in the Atlantic World*, (Oxford and New York: Oxford University Press, 2012). P. 86.

مدينة نيوبورت. وهي مدينة أقام تجار الرقيق فيها صلة قوية مع بِركلي لمنع تدخُّل رجال الدين في تجارتهم، فكانوا يستشيرونه حول مستقبلها وسبل تأمين استمرارها. في خطبته تلك أعلن بِركلي مساندة المسيحية لأنشطة الاستعباد، فقال:

"إنَّ مخلِّصَنا [المسيح] دعا حوارييه للذهاب إلى جميع الأمم وتعميدها، حتى إثيوبيا [بلاد السود]. إنَّ المسيحية لا تغيِّر الحقوق المدنية، فكلمة الخُدّام (servants) في العهد الجديد تعني العبيد. وهنا الردّ على الاعتراضات التي تقول إنَّ المسيحية تزيل المِلكيّة، وإنَّ التعميد يجعل العبيد أكثر سوءاً"[12].

شدَّد بِركلي على أن التعميد يجعل المستعبَدين أكثر طاعة لأنهم سيخدمون أسيادهم "بقلوبهم لا بأجسادهم"، حسب تعبيره، وأن الإيمان يجعلهم مؤهلين أكثر لأن يهبوا أرواحهم لسادتهم، بما أنهم موعودون بتعويض سماوي. وكان يقول إنَّ العبودية لا تتوافق فقط مع الخلاص الأبدي، وإنما هي ضرورية له. ففي الفترة التي عاش فيها كان لإعلان التوافق بين المسيحية والاستعباد أثر إيجابي كبير على تحسُّن الأوضاع الاقتصادية للبريطانيين.

في ذلك الوقت كانت عمليات الاسترقاق تشهد نموّاً كبيراً في مستعمرات بريطانيا، خاصة في كارولاينا التي سينشط فيها الفيلسوف جون لوك بعد بِركلي. وحينها صار الاسترقاق صناعة بالمعنى الحرفي للكلمة، لأنَّه استند إلى منظومة مؤسَّسات مترابطة الأداء، بعضها يجمع المعلومات عن سواحل غرب أفريقيا وبعضها ينظِّم حملات خطف مواطنيها، والبعض يمارس قهرهم وغرس عادات الطاعة فيهم ... إلخ. كانت الحاجة إلى تلك العمليات تتزايد مع نمو الحاجة إلى أيدي عاملة تنتج المحاصيل الزراعية المطلوبة في أسواق أوروبا،

---

12 Caffentzis, Constantine George: *Exciting the Industry of Mankind: George Berkeley's Philosophy of Money,* (UK and New York: Springer Science and Business Media Dordrecht, 2000). p. 90.

ففي النصف الأول من القرن الثامن عشر صار الأرز المحصول الزراعي الصاعد اقتصادياً، ومعه ارتفعت أسعار المستعبَدين من الأفارقة ومواطني أميركا الأصليين.

لم تقتصر علاقة بركلي بالاستعباد على الدفاع عنه نظرياً بل مارسه عملياً وامتلك عدداً من الأفارقة. وأثناء سعيه لتأسيس جامعة في أميركا تسهم في نشر المسيحية قدّم بعض الذين كان يستعبدهم منحةً إلى جامعة (ييل)، المعروفة الآن في الولايات المتحدة، عندما تبرَّع بمزرعة كبيرة بها أربعة مستعبَدين أفارقة. وامتناناً لصاحب المنحة، أطلقت الجامعة اسمه على مبنى كبير في مجمع سكن الطلاب، مازال إلى اليوم يحمل إسم (بِركلي). وحالياً يطالب ناشطون أميركيون مناهضون للعنصرية بتغيير الاسم لأنَّه دلالة على أنَّ الجامعات الأميركية مازالت تمجِّد تاريخ الاستعباد.

في الواقع، لم تكن تلك المنحة سلوكاً خاصاً ببركلي، فقد كان الأثرياء الأوروبيون يتبرَّعون للجامعات بجزء من الدخل الذي يحصلون عليه من استرقاق الأفارقة، الذي كان يُعَدُّ نشاطاً تجارياً مقبولاً في (عصر التنوير). لم تُطرح الأسئلة الأخلاقية حول الاستعباد في بلاد شمال غرب أوروبا إلَّا في القرن التاسع عشر، مع أنَّها كانت قد طُرِحت في إسبانيا منذ القرن الخامس عشر. وهذا أحد أوجه العلاقة بين تطوُّر المعرفة الأوروبية واضطهاد الشعوب الأخرى، فالاستعباد ينضاف إلى ممارسات احتلال الأرض ونهب الثروات وإبادة البشر، التي كانت الفلسفة توفر لها الغطاء النظري، إلى جانب التفسيرات التي قدَّمها لنصوص الإنجيل بعض مناصري الاسترقاق من رجال الدين، ومنهم بِركلي الذي نظَّرَ للاستيلاء على أراضي مواطني أميركا من أجل تمويل بناء الكنائس واستقرار البعثات التبشيرية. لقد افادت فلسفة العنف لدى بِركلي من المعرفة التي تراكمت عن خبرة السيطرة على مواطني المستعمرات

بواسطة العسكريين والسياسيين والإداريين. وساهم فيها المبشِّرون أيضاً بخدمة السياسات الاستعمارية لأنهم كانوا معنيين بجمع معلومات عن السكان تتيح تهيئتهم لقبول المسيحية، فصار ضبط الروح في فلسفة بِركلي من شأن رجال الدين، وتُرِكت مَهمَّة ضبط الجسد للدولة.

كان انشغال المؤسسات الاستعمارية بمهمَّتَي السيطرة على الجسد والروح وثيق الصلة بما عبَّرت عنه فلسفة ديكارت من انقسام الإنسان إلى روح وجسد، وهذا الانقسام هو الذي سيقود إلى تبرير ممارسات السيطرة عليهما. وبعد ديكارت وبِركلي ستعبِّر ثنائية الجسد والروح عند جون لوك عن مبدأ الفصل بين السلطتين الدينية والدنيوية في نظريته السياسية، حيث دفع إلى الأمام بفكرة أن تختصّ الأولى بإدارة شؤون الروح، وتختصّ الثانية بإدارة شؤون الجسد. وهكذا خدمت عناية الفلسفة الأوروبية بفهم الإنسان مَهمَّة الهيمنة على أنشطته الروحية والجسدية، من بيكون إلى ديكارت ولوك، ومن سيأتي بعدهم. وفي هذا السياق المنشغل بطرق التحكُّم بالبشر، طُرِحت أسئلة المعرفة وعلاقتها بالحواس والعقل، وعلاقة الجسد بالروح، وغيرها من أسئلة تصنَّف اليوم ضِمن مجال الإبستمولوجيا وكأنها تتناول معرفة خالصة ولا تختصّ بفهم الإنسان بطريقة تؤدِّي إلى التحكُّم به.

كان الفيلسوف جون لوك من أبرز الذين طوَّروا الجوانب القانونية للنظام الاستعماري في أميركا الشمالية، ووضع دستوراً لولاية كارولاينا أجازَ فيه استعباد الأفارقة؛ وساهمت فلسفته في نشر بعض أفكار عصر التنوير في الولايات المتحدة، وأثَّرت في بعض مفكِّريها الذين صاروا، فيما بعد، رؤساء لها. ومن هؤلاء توماس جفِرسون (Thomas Jefferson 1743–1826)، الذي يعدُّ من رواد حركة التنوير في أميركا، وواحد من أبرز واضعي دستورها الذي يُقال إنَّه كان "أول إعلان للحقوق والمساواة بين البشر". مع ذلك تبنَّى جِفرسون مواقف

عنصرية صريحة ضد المواطنين الأميركيين أصحاب الأصول الإفريقية، وظل يمتلك المئات من المستعبَدين إلى حين وفاته[13].

كما عند جون لوك الإنجليزي، يظهر التحيُّز واضحاً عند فلاسفة التنوير الفرنسيين أيضاَ. فمونتسكيو (Montesquieu 1689–1755) يحكُم بانحطاط كل شعوب الجنوب من أفارقة وآسيويين وعرب بسبب مناخ بلادهم، ويضيف إليهم الأتراك أيضاً، رغم أنهم من الناحية الجغرافية أقرب إلى أوروبا من بقيَّة بلاد العالم، ويصف الأفارقة بضعف القدرات العقلية وغياب الحس السليم[14]. أمَّا عامة شعوب الشرق فيرى أن حكّامهم مستبدُّون بطبيعتهم وخاضعون لأهوائهم الشخصية، ويفسِّر ذلك بأنَّ المناخ الذي يُعدُّ القوة المسيطرة على شعوب الشرق، هو سبب خضوعها للحُكم الاستبدادي منذ الأزل. وعندما قسَّم الحُكم إلى ثلاثة أنواع، هي: الجمهوري والاستبدادي والمَلَكي؛ جعل الحُكم الاستبدادي خاصاً بالشرق رغم أن كثيراً من أنظمة الحُكم في الشرق كانت مَلَكيَّة في زمن مونتسكيو، مثلها مثل حكومات أوروبا، التي غلب عليها الاستبداد أيضاً.

يرى مونتسكيو أنَّ الحُكم الاستبدادي هو حُكم الأتراك والفُرس والصينيين وغالبية بلدان آسيا، إنَّه حُكم ”بلدان شاسعة في ظل مناخ قاتل“، حسب قوله[15]. وكما أوضح لوي التوسير، فإنَّ مونتسكيو لم يخرج من مدينته التي عاش فيها أبداً، وهي البندقية، ولأنه لم يعرف الشرق إلا عبر الروايات، لم تكن لديه أية صورة واقعيَّة عنه، ومع ذلك ظلّ يحكُم على شعوبه بيقين تام[16]. وكان هذا

---

13 ميَّز جيفرسون الزنوج عن البيض بعدد من الخصائص السلبية، وهي: القبح وضعف العقل وتقلُّب المزاج وافتقاد الخيال. واستخلصَ من ذلك أن الفروق بين الزنوج والبِيض أوجدتها الطبيعة لا النظم الاجتماعية. انظر:

Issac, Benjamin: *The Invention of Racism in Classical Antiquity,* (Princeton and Oxford: Princeton University Press, 2004). P. 107.

14 Buck- Morss, Susan; Hegel and Haiti, *Critical Inquiry*, vol. 26. no. 4 (Summer, 2000), 821- 865. P. 828.

15 لوي التوسير، **مونتسكيو: السياسة والتاريخ**، ترجمة نادر ذكري (بيروت: دار التنوير، 1981). ص 74.

16 المرجع السابق، ص 75-74.

حال معظم الفلاسفة الأوروبيين الذين لم يتورَّعوا عن إصدار أحكام قاطعة على شعوب لا يعرفون عنها شيئاً.

ألحق مونتسكيو الاستبداد الشرقي بالعاطفة والكسل. وزَعَمَ أن الرجل الشرقي بسبب رغبته في تغيير أوضاعه وعجزه عن تحقيق ذلك؛ فإنَّ تقلبات الأهواء تستبد به فيقوم بأسر نسائه داخل بيته، الذي يعتبره مملكته المطلقة ويُطلق فيه العنان لطبعه الاستبدادي. يجعل مونتسكيو الاستبداد سمة عامة للشرقيين لا لحكامهم فقط، فرعايا الحكام الشرقيين المستبدِّين هم أيضاً مستبدُّون، والشرقي حين يخرج من بيته "فإنَّ شهوته هي التي تحرِّكه"[17]. ولكي يفسِّر استبداد إنسان الشرق، أضاف إليه صفة سلبية أخرى هي خضوعه لشهوته التي تستبدُّ به. وبهذه الطريقة صوَّر الشرق فضاء اضطرابات نفسية أبرز أعراضها هو شيوع الاستبداد في كل المجتمع، بينما جعل العقلانية سمة لأوروبا ومنحها حق أن تصف العالم وتتَّخذه موضوع معرفة.

أمَّا فولتير محرِّر (الموسوعة) التي تعدُّ أشهر نصوص عصر التنوير، فلم يفسِّر تفاوُت البشر بتأثير المناخ، لأن هذا يفترض أنهم جميعاً ينتمون إلى سَلَف واحد وأن الفروق بينهم نتجت عن تباين الطبيعة التي يعيشون فيها. في كتابه (التاريخ الفلسفي) رفض فولتير فكرة الأصل الواحد للبشر وقال إنَّ الملوَّنين لا ينتمون إلى نفس السلف الذي انحدر منه الإنسان الأبيض، ويدلِّل على ذلك بالحُجَّة التالية: "حينما يُنقَل الزنوج من الرجال والنساء إلى البلاد الباردة فإنهم يستمرون في إنجاب حيوانات من نوعهم نفسه"[18]. إنَّ ادِّعاء أن غير الأوروبيين لا ينحدرون من الأصل الذي ينحدر منه الأوروبيون مصدره فكرة قديمة أشاعها القديس أوغسطين وسادت الفكر الديني في العصور الوسطى، وفي القرن الثامن عشر انتشرت فكرة مثلها تقول إنَّه وُجِد بشر على الأرض قبل أن يهبط

---

17 المرجع نفسه، ص 80.

18 المرجع نفسه، ص 11.

عليها آدم، كانوا متأخِّرين في قدراتهم ولم يبلغوا طور النوع الآدمي، فنزل آدم ليحقِّق لهم كمال النوع الإنساني. على هذا الأساس وضع فولتير الأوروبيين ضِمن سلالة النوع الآدمي الذي هبط من السماء، ونسَبَ الأفارقة إلى كائنات أقلّ إنسانية، بحجة أنَّهم يتَّصفون بنقص قدرات التفكير، وأنَّ انحطاط عقولهم إلى ما دون مستوى البشر لا يؤهِّلهم للانتماء إلى آدم[19]. بعد فولتير تبنَّى وجهة النظر هذه مفكِّرون أوروبيون ادَّعوا أنَّ الأفارقة أقرب إلى الحيوانات.

حسب بنيامين إيزاك، فإنَّ الشيء الذي يفسِّر موقف فولتير تجاه الأفارقة هو جهلُه بأنَّ العلوم في زمنه كانت تؤكد وحدة كل المجتمعات البشرية[20]. وبما أنَّ فولتير من أبرز الفلاسفة الذين ساهموا في وضع الموسوعة الفلسفية، فإنَّ عدم إلمامه بالحقائق العِلميَّة لعصره يدحض زعم أنَّ مفكِّري التنوير كانوا ملمِّين بالعلوم، وأنَّهم نشروا المعرفة التي ابتدرت الحداثة. والاحتمال الآخر أنَّ فولتير، بخلاف قول بنيامين، كان ملمّاً بآراء عصره التي تقرِّر وحدة النوع البشري لكنه لم يأخذ بها، وهذا مؤشر على أنَّه كان يتبنَّى فكراً تمييزياً إلى حد جعله يرفض حقائق العلم، مما يثير الشكّ في أنَّ عصر التنوير كان يمثِّل عصر سيادة العقل واحترام الاختلاف.

من فلاسفة التنوير الفرنسي الذين يُشاع أنَّهم انتقدوا عنف الأوروبيين، الفيلسوف الفرنسي دنيس ديدرو (Denis Diderot 1713–1784)، الذي عارض ادعاء الأوروبيين أنَّهم بغزوهم للشعوب (البربرية) ينقُلون الحضارة إليها. وقال إنَّ المتحضِّرين إذا ابتعدوا عن مراكز الرقابة والمساءلة القانونية تحوَّلوا إلى برابرة لا يلتزمون السلوك الحضاري، كما كانوا يلتزمونه في أوطانهم. يعتمد ديدرو هنا على فكرة سادت عصر التنوير مضمونها أن السمات الفردية تُستَمد

19 Bracken, H. M; Essence, Accident and Race, *Hermathena*, no. 116 (Winter 1973). 81-96. P. 4.

20 Isaac, Benjamin; *The Invention* …, P. 11.

من الشخصية القومية، أي من المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان؛ فإن ابتعد عنه تدهورت الخصائص المميِّزة لشخصيته، ومنها خاصيَّة التحضُّر. ومن هنا كان يحذِّر من أن ابتعاد الأوروبيين عن أوطانِهم يدفعهم إلى ممارسة العنف ضد شعوب البلاد البعيدة. أورد ديدرو هذه الاستنتاجات في سياق نقده لما كان الإسبان يمارسونه في أميركا الجنوبية من إبادات لشعوبها، أمَّا عندما نظر إلى غزو مواطنيه الفرنسيين لأميركا الشمالية وجزر الكاريبي وسيطرتهم عليها بطريقة لا تختلف عن طريقة الإسبان؛ دافعَ عنهم بحجة أنهم يغزون أرضاً لا يسكنها بشر إلا جزئياً. والسؤال هو: كيف توصَّل ديدرو إلى أن تلك الأرض غير مسكونة، حتى يبيحها للغزو؟ لا شك أنَّ في كلِّ دولة مساحات غير مسكونة، فما مقدار السكن المطلوب الذي يعطي الفرنسيين، أو غيرهم، حق غزو بلاد الآخرين؟

إنَّ مبرِّر الأرض الخالية الذي ساقه ديدرو، هو نفسه الذي ظل الفلاسفة الأوروبيون يبرِّرون به غزو بلاد العالم منذ فرانسيسكو فيتوريا في القرن السادس عشر وحتى برتراند رَسِل في القرن العشرين. فهل كان ديدرو يقبل، بناءً على معيار الأرض الخالية، أن يقوم مواطنو شمال أفريقيا بغزو أوروبا لأنَّه توجد غابات خالية من البشر في فرنسا أو هولندا أو ألمانيا، أو أيٍّ من بلاد أوروبا؟ لا شك أنَّه لن يقبل بهذا الاقتراح الذي يعتمد نفسَ المعيار (العقلاني) الذي أضفى به شرعية على غزو الأوروبيين لبلاد الجنوب.

في الحقيقة لم تكن إدانة ديدرو لممارسة العنف في المستعمرات صادرة عن معارضته للغزو من حيث المبدأ، وإنَّما صدرت عن معارضته لسيطرة بلاد جنوب غرب أوروبا الكاثوليكية على أميركا الجنوبية، خاصة إسبانيا التي كانت تخوض حينها صراعاً ضد فرنسا. إنَّ غزو إسبانيا المبكِّر لأميركا الجنوبية هو الذي أتاح لها التفوُّق على بلاد شمال غرب أوروبا، حتى هدَّدت أمن فرنسا. ولقد كان اتخاذ المواقف على أساس الانحياز القومي هو السائد لدى غالبية مفكِّري التنوير.

في الظاهر يبدو ديدرو أفضل من بعض مفكري التنوير إذ ترد لديه إدانات متفرِّقة للاستعباد، لكن فحصاً سريعاً لخطابه الفلسفي يُظهِر أنَّه كان يوظِّف ألفاظ الإدانة في سياق لغة مجازية تتناول أوضاع الشعوب الأوروبية، فهو يشدد على ضرورة تحرر (الإنسان) من القهر عندما يتعلَّق الأمر بالأوروبيين، أمَّا عندما يتعلق الأمر باستعباد الأوروبيين للأفارقة وقهرهم لشعوب المستعمرات، فكان ديدرو يتعامى عن ذلك. عند تناوله ثورة مستوطني أميركا من الأوروبيين على بريطانيا وصفهم، معجباً، بأنهم: "صهروا أغلالهم وتحرَّرو من العبودية البغيضة"[21]. لكنه لا يعلِّق على أن نفس هؤلاء المستوطنين كانوا في ذلك الوقت يستعبدون الملايين من مختَطَفي غرب أفريقيا ويُكبِّلونهم بأغلال العبودية. لقد اهتم ديدرو بتحرُّر الأميركيين البِيض من عبودية مجازية كان يُقصَد بها معاناة الاضطهاد السياسي، فتعاطفَ معهم، أمَّا عبودية أفارقة أميركا، التي هي عبودية حقيقية فرضها عليهم أولئك الذين كان يمجِّدهم، فلم تنل اهتمامه.

إنَّ التفسير الوحيد لهذا الموقف هو أن ديدرو لم يكن يعتقد بتساوي الأوروبيين والأفارقة من جهة استحقاقهم الحرية. ويشير باحث في تاريخ العنصرية إلى أن ما عُرِف عن ديدرو من تسامُح لم يكن يتجاوز اهتمامه بالتسامُح الديني بين الأوروبيين، أمَّا الشعوب غير الأوروبية فلم تجد عنده مكانة إلَّا من جهة أنَّه اتخذها وسيلة للدفاع عن استحقاق الأوروبيين للحياة الحرَّة، وهذا يظهر في وصفه لشعوب الجنوب. مثلاً، ليوضِّح اختلاف مواطني تاهيتي عن الأوروبيين، الذين تقيِّدهم الضوابط الدينية؛ وصَفَهم بأن حريتهم تظهر في استغراقهم في الشهوة والمُتع الجسدية والتحلُّل من الأخلاق[22].

في القراءات التقليدية للفلسفة الأوروبية يسلِّم كثيرون بما يقرِّره ظاهر خطابها، معتبرين أن عبارات المساواة والحرية والعدالة وعالمية العقل، علامة

---

21 المرجع نفسه، ص 36.

22 المرجع نفسه، ص 103.

مؤاخاة بين البشر. ولكن نقد الخطاب الفلسفي لا يكتفي بلغة النص، وإنما يربطه بكليّة فكر منتجه والسياقات التي أنتجه فيها. ففي خطاب يقيس تقدُّم المجتمع بالاقتصاد، أو الثقافة أو التاريخ، فإنَّ تساوي البشر يتأثَّر بالتراتب الذي يقيمه الخطاب بين مراحل تطوُّر الاقتصاد، أو الثقافة أو التاريخ. وبموجب التراتب المُقام في المجال المعيَّن تُضاف المجتمعات إلى نطاق الإنسانية أو تُزاح عنه، وبذلك التراتب يتحدَّد مقدار منحها أو حرمانها كثيراً من الحقوق.

على المستوى الظاهري قد يمنح الخطاب مجتمعاً معيَّناً مكانة أعلى من المجتمعات الأوروبية بأن يعزو إليه سمة إيجابية ما، فيبدو وكأنه يمنحه مكانة عليا، أمَّا على مستوى كليَّة الخطاب فقد يكون الوضع معكوساً تماماً. ومثال ذلك الاتجاه الفلسفي الذي يُظهِر التقدير للطبع الفطري، فقد كانت الفلسفات الدينية في القرن السادس عشر تمدح (البدائيين) بأنهم يتَّصفون بالبراءة، وتمنحهم مكانة تعلو على الأوروبيين الذين تدينهم بأنهم غارقون في الحياة المادية. وفي الواقع، كانت تلك الفلسفات تمدح البراءة لأنها تربطها بالبعد عن الحضارة وعدم استخدام العقل. إنَّ عدم براءة الأوروبي ناتج عن اتِّصافه بالعقل، وبراءة غير الأوروبي ناتجة عن تجرُّده من العقل، وهذا يقلِّل من مكانة الإنسان غير الأوروبي بأن يزيحه عن نطاق العقلانية. والنوع الأمثل من الخطاب الفلسفي الذي يُواري ذم الشعوب خلف مدحها، يُعثر عليه لدى جان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau 1712-1778)، الفيلسوف الفرنسي الذي ابتكرت مخيلته كائناً سمَّاه: البدائي النبيل، صوَّره في حال تصالحٍ تام مع الطبيعة. لقد منَحَ روسو إنسان الجنوب (غير المتحضر)، نُبلاً مؤقتاً يرفعه إلى مكانة تستبطن منطقاً يستبعده عن الحضارة، التي تمثِّل عند روسو معيار التمييز النهائي، إنَّه يزيح (البدائي) إلى فضاء الطبيعة المحضة حيث يُنتج تناغمه معها إنساناً يعيش خارج التاريخ وغير قابل للتطوُّر. هنا يتواطأ الإطراء مع الإقصاء لينتهي الفكر إلى تمييز غير مفصح عنه.

يتوافق مدح روسو للشرق مع فلسفته المتأثرة بالأدب الرومانسي من حيث هو تعبير عن العاطفة، وهو يبتكر صورة للشرق توافق ما يريد أن يستكمله من نقص الثقافة الغربية التي يعتبرها ثقافة عقلانية تحتاج عاطفة لتكتمل إنسانيتها. يقول روسو إنَّ العربي حين يسمع القرآن يهتف لفورِه: ألا أيها النبي الأعظم، ألا يا رسول الله خذنا إلى المجد والشهادة: نريد أن ننتصر أو نموت في سبيلك. وبعد تصويره لهذه الحالة الانفعالية يعلِّق، بوصفه أوروبي:

"إنَّ التعصُّب ليبدو لنا دائماً مضحكاً، إذ ليس له بيننا صوت يعبِّر به عن نفسه. وحتى متعصِّبونا ليسوا متعصِّبين حقيقيِّين، إن هم إلا نصَّابين أو مجانين"[23].

إنَّ العربي بمجرَّد أن يسمع القرآن يتحوَّل إلى محارب تحرِّكه عاطفة ودوافع انفعالية. وهذا التصور الذي يربط العربي بالتعصُّب يوافق تماماً صورة الانتحاري، أو الإرهابي، التي استعادتها الثقافة الغربية مؤخراً من مستودع صورها النمطية، فهي ليست سوى تحديث (updating) لصورة المسلم المتعصِّب التي سادت أوروبا في العصور الوسطى، التي تربطه برغبة سفك الدماء عبر (الجهاد).

بخلاف المسلمين، فإنَّ الأوروبيين لا وجود لمتعصِّبين حقيقيِّين بينهم، حسب روسو، وإن وُجِدوا فهم مجرَّد انحراف عارض، إنهم "نصَّابون" مدركون لعواقب أفعالهم، لا تدفعهم العاطفة ولا تتحكَّم بهم أهواء الطبيعة كالمسلمين. إنَّ التمييز بين الأوروبي المتأمِّل المتدبِّر الذي يستخدم عقله، والشرقي العاطفي المندفع والمتعصب؛ هو الذي يؤسِّس للمنطق الذي يميِّز به روسو الشرق عن الغرب، فخلف المديح الظاهري للشرق تتوارى الإدانة. يستند منطق روسو التمييزي إلى قائمة صفات متضادَّة يوزعها على الغرب والشرق كما يلي: الفكر/ العاطفة، التدبُّر/الاندفاع، العقلانية/التعصُّب. فكل صفات الأوروبي تنسبه إلى

---

23 جان جاك روسو: **محاولة في أصل اللغات،** (بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1980). ص 71.

العقلانية والتحضر، أمَّا صفات الشرقي فتنتزع عنه العقل وتدفع به نحو البدائية. إنَّ روسو يقرِّب المسلم من "البدائي النبيل" البعيد عن الحضارة، ليصطنع نموذجاً لإنسان يمثِّل ما هو مفتقَد لدى الإنسان الأوروبي، فيستخدِمه ليلفت الأوروبي إلى نواقص مجتمعه التي يحتاج أن يستكملها ليبلغ قمة الإنسانية.

مثلما فعل ديدرو، أدان روسو العبودية في كثير من أحاديثه عن الإنسان، وكان أيضاً يستخدم اللفظ بمعنى مجازي في سياقات تشير إلى العبودية في التاريخ السياسي، خاصة عند الإغريق والرومان. أمَّا الاستعباد الفعلي الذي مُورِس في زمنه على أساس عِرقي، فقد تجاهله روسو. ورغم دفاعه الصريح عن حرية الأوروبيين طوال حياته، لم يهتم بما وقع على الآخرين من مظالم، مثل قانون تنظيم تجارة المستعبَدين المسمَّى: قانون السُّود (code de noir) الذي صدر في فرنسا أثناء حياة روسو، وهو قانون أسبغ شرعية على استخدام العنف ضد مستعبَدي فرنسا، وجعله عقوبة قانونية يوقعها إنسان على إنسان آخر، باعتباره "ملكية منقولة".

ناقش مفكِّرو التنوير قضايا الحرية والمساواة في الحقوق بخصوص أوضاع محدَّدة مرتبطة بالظروف الاجتماعية والاقتصادية لمجتمعاتهم، فتناولوا نوع الحُكم والحقوق الدستورية وأنواع المِلكية، والتطوُّر الاقتصادي وعلاقته بالنظم الزراعية وملكية الأرض ...إلخ، فاعتنوا بكل ذلك من منظور مجتمعاتهم وثقافاتها وتواريخها، لا من خارج خبرتهم التاريخية، أو من اللا مكان. لذا، فإنَّ منح نظريات ومفاهيم التنوير دلالة عالمية يقوم على تجاوز حدود مشروع التنوير نفسه. فقد كان الإنجاز التاريخي لفكر القرن الثامن عشر الأوروبي أنَّه نقل الفلسفة من الاهتمام بالقضايا الميتافيزيائية إلى تناول مشكلات المجتمع والإنسان في الأوضاع المعاشة. فارتبط تجاهل مفكريه للتمييز الذي مُورس ضد غير الأوروبيين باهتمامهم بمصالح مجتمعاتهم المحلية، وهي مصالح تحقَّقت على حساب استهداف الآخرين بالسيطرة.

رغم أن فكر التنوير حقَّق للأوروبيين نقلة كبيرة في مجال الحريات، إلا أنَّه حقَّق أيضاً نقلة كبيرة في مجال التمييز بين الأوروبيين وبقية البشر إبان حقبة التوسع الاستعماري، فساعد على نقْلِ التمييز، الذي كان يقوم على مؤشر العقيدة ومؤشر (العِرق) فقط، إلى حيِّز جديد يفتح الباب أمام توسيع نطاق اصطناع الفروق بين الأوروبيين وغيرهم من البشر. وبهذا صار التمييز يعتمد على مؤشرات متعددة، منها: اللون والموطِن الجغرافي والثقافة والتاريخ والدين ... إلخ. هذا يعني أن التنوير حرَّر فكر التمييز من أحادية المؤشِّر، وأكسبه قدرة على توظيف طيف عريض من المؤشِّرات لاصطناع فروق عديدة بين الناس، فلم يعُد بوسع معظم البشر النجاة من دائرة التمييز التي يقيمها الفكر الأوروبي. وهذا الإنجاز، في مجال توسيع مؤشِّرات التمييز، يُحسَب على فلاسفة التنوير من جهة مساهمتهم في عقلنة منطق اشتغال العنصرية. فعند هيوم يوضع مؤشر التمييز بين الأوروبيين وغيرهم في منطقة نظام المجتمع، ويضعه إيمانويل كانط في منطقة العِرق، أمَّا مونتسكيو فيضعه في النُظُم السياسية[24].

بتحريرهم العنصرية من أحادية المؤشِّر عمَّم مفكرو التنوير منطق التفاوت بين الأوروبيين وغيرهم ليشمل مختلف مجالات الحياة، فانفتح الباب أمام إضفاء طابع علمي على فكر العنصرية. وسيتعمَّق هذا التوجه في القرن التاسع عشر مع ظهور ما يسمى "العلوم الاجتماعية والإنسانية" التي سيضع مفكروها مؤشِّر التمييز بين الشعوب على محاور مختلفة، أهمها التاريخ. بدءاً من هيغل ومروراً بمفكرين آخرين، مثل كارل ماركس وجون ستيوارت مل وأوغست كونت، سيصبح ادِّعاء أن الأوروبيين يملكون تاريخاً تقدُّمياً بمثابة سلاح نظري يرفع مكانتهم على الشعوب الأخرى[25]. وبذات القدر ستُستخدم مقولة التقدُّم،

24 لوي التوسير: **مونتسكيو...**، ص 74.

25 روجيه غارودي: **الأصوليات المعاصرة**، (باريس: دار 2000، 1992). ص 17.

التي أشاعها عصر التنوير أيضاً، في تأكيد التفاوت بطريقة تبرِّر الهيمنة الاستعمارية من خلال إقامتها على نوع من التفاوت يغطي مجالات العلوم الإنسانية المختلفة، مثل نظم المجتمع والسياسة والاقتصاد واللغات والثقافة.

يعدُّ توسيع عصر التنوير لنطاق اشتغال مؤشرات التمييز من أبرز نواقض دعوى أنَّ فكره الفلسفي يستحقُّ مكانةً إيجابية عالمية، لأنَّه دافع عن المساواة. فقد طالب التنوير بالمساواة بين معتنقي الطوائف المسيحية داخل أوروبا فقط، أمَّا غير الأوروبيين فقد ظلوا مستبعَدين عن عالم الإنسانية لدى كثير من مفكريه، حتى أولئك الذين نشطوا في مجالات العلم الطبيعي من الذين كانوا متَّصلين بالفلسفة، فعنوان "التنوير" يشمل الفلاسفة والعلماء والمصلحين والمربيين والأدباء أيضاً. والمثال على مفكر التنوير الذي جمع في عمله بين العلم والفلسفة هو عالِم التاريخ الطبيعي الفرنسي جورج – لوي بفُّون الذي تستحقُّ أراؤه عرضاً مختصراً هنا.

نقل بفُّون فكر التمييز نحو العِرقية عندما جمع بين أثر المناخ والوراثة. فهو يقول إنَّ طول أمد تاثير المناخ يجعل الخصائص الجسدية والعقلية والخُلقيّة متواترة في سلالات الجماعة المعينة حتى تستقر فيها، فينتج عن هذا الثبات (عِرق) معيَّن، ورغم أنَّه كان من أوائل الذين ربطوا العنصرية بالوراثة، إلَّا أنَّه ظل محتفظاً بفكرة أثر الطبيعة على العِرق. وتميَّز عن غيره من فلاسفة التنوير بأنَّه من أبرز الذين ربطوا العِرقية بالمنهجية التجريبية، فقد اقترح تجربة تُنقَل فيها جماعة من الأفارقة إلى الدَنمارك ليوضعوا تحت تأثير البرودة الشديدة لملاحظة ما يحدث من تغيُّر في صفاتهم. ولأن بفُّون كان يرى أن الأوروبيين يمثلون الإنسانية الحقّة، ويرى ذوي البشرة الملونة نسخةً منحطَّة؛ رمي بكل صفة سالبة على الأفارقة. فهو يقول إنهم كسالى ويفتقرون إلى الخيال والقدرة على الابتكار، ويصلون مرحلة البلوغ في سن مبكرة، ويموتون صغاراً بسبب

ضعفهم الناتج عن الممارسة الجنسية التي يُكثِرون منها في شبابهم[26]! وبتأثير فكر بفُّون، الذي كان يُعدّ من أبرز علماء التاريخ الطبيعي في وقته، انتشرت هذه الأفكار الساذجة عن الأفارقة بين كثيرين من الفلاسفة الذين جاءوا بعده، وجرى تداولها وكأنها معلومات موثوقة.

إذا انتقلنا إلى ألمانيا في القرن الثامن عشر فإننا نجد أن فيلسوفاً لامعاً مثل يوهان غوتفريد هردر (John Gottfried Herder 1774–1803) الذي تميَّز عن رصفائه بنقد مسلّمات التنوير وعارض فكرة وجود مبدأ قبلي يُسمَّى العقل؛ انتهى أيضاً إلى ترتيب البشر ليعطي الإنسان الأوروبي أفضلية عليهم[27]. اعتمد هردر على أطروحة أبقراط حول ارتباط أثر المناخ على الإنسان بنوع الغذاء، وهي فكرة يعود تاريخها إلى عصور ما قبل الميلاد. بالنسبة إلى هردر يحيا الكون حياة طبيعية تقوده إلى إنجاب سلسلة من الكائنات؛ فالتراب ينجب النبات، الذي بدوره ينجب الحيوان، الذي يمثِّل مرحلة تسبق ظهور الإنسان، ولأن الإنسان حاملٌ للروح، فهو يمثِّل مرحلة كمال الحيوان. ورغم أنَّه نتاج البيئة، إلا أن خصائصه تتَّصف بالثبات عند بلوغ مرحلة معيَّنة من التطوُّر، فتُستدام عبر الوراثة[28]. والتربة هي منتجة الحياة لأنها العنصر الأول في السلسلة، وتتحكَّم بتنوُّعات الكائنات الحية التي يتسنَّمُها الإنسان؛ ومن هنا يستنتج هردر أن البشر ينقسمون إلى أنواع بحسب التربة. وهو يفهم التطوُّر باستخدام التربة كمجاز للبيئة الخالقة: فالإنسان نفسه يكون تربة، كما في حالة

26 Isaac, Benjamin: *The Invention*…, P.9.

27 انتقد هردر كانط بخصوص مركزية التاريخ والمجتمعات الأوروبية. وأوضح كيف يمكن أن تكون طرق فهم التاريخ متنوِّعة لأنها تتوقف على ثقافة المؤرِّخ وإلمامه بالعلل العقلية (reasons) للفعل التاريخي، وإنَّ التوصل إلى ذلك يتطلّب من المفسِّر معرفة دوافع منتجي الأفكار وصانعي الأفعال التاريخية. وخلص إلى أن فهم الثقافة المعينة يقتضي النظر إليها بعين ثقافة أخرى. انظر: Beiser, Fredrick G.; *The Fate of Reason*, (Massachusetts and London: Cambridge, Harvard University Press, 1987). P. 143. .

28 ر. ج. كولنجوود: **فكرة التاريخ**، ترجمة محمد بكير خليل، (لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1961). ص 171.

البدائي الذي يصبح تربة ينشأ فيها جنس يتصف بالسمو والرُقي، هو الإنسان الأوروبي الذي يتطوَّر بطريقة تختلف عن بقيَّة البشر[29].

لكي يتَّخذ الإنسان الأوروبي صورة (عِرق) أرقى عند هردر لا بدَّ أن يعطي من هم بمثابة تربه له، أي البدائيين، مكانة وضيعة. فالأفارقة عنده أقرب في طباعهم إلى البهائم لأنهم يتميَّزون بقدرٍ عالٍ من الشهوانية، حسب مخيِّلته. وهنا نلاحظ ظهور أثر الأفكار الساذجة التي أشاعها بفُّون بين الفلاسفة. يتساءل هردر: ما الذي يميِّز زنوج أفريقيا؟ ثم يجيب:

"إنه المناخ بالمعنى الأوسع الذي يُحدِث أثراً على طريقة الحياة والغذاء، فهم سود نتيجة تأثير المناخ المسؤول أيضاً عن زيادة الغريزة الجنسية التي تتسبَّب بدورها في النمو الواضح للأعضاء الجنسية"[30].

انتهى هردر إلى تبنِّي نظرية عِرقية مع أنَّه بدأ بنظرة فلسفية تحترم تنوع المجتمعات. ورغم أنَّه انتقد كانط وعدّه مسؤولاً عن سوء فهم المجتمعات عندما قال إنَّ التاريخ الأوروبي يمثِّل الغاية النهائية لجميع التواريخ؛ فإنَّ قبول هردر بتراتب المجتمعات قاده إلى تبني موقف لا يختلف عن عِرقية كانط، إلا في تفسيره للتفوُّق المزعوم لما يُسمَّى (العِرق الأوروبي).

وكان كانط قد رأى أن الجغرافيا والأنثربولوجيا هما العلمان اللذان سيقودان الإنسان الأوروبي الحديث في حياته العملية والأخلاقية، فوظفهما لاصطناع تمييز يرفع مكانة الأمم الأوروبية على بقيَّة شعوب العالم. وحسب قول ماكارثي توماس، ظلّ العلماء الأوروبيون يعتقدون أن (العِرق) شيء صغير جداً يُوجد في الدم، إلى أن وصفه كانط بأنَّه خاصِّية وراثية تُدرَك من المظهر الخارجي للفرد. مستبقاً فكرة الجينات التي سيطوّرها إرنست مندل في بداية القرن العشرين.

29 المرجع السابق، ص 173.

30 المرجع نفسه، ص 104.

ومنذ ذلك الوقت صار الاستعمار والعنصرية بمثابة الرفيق والحارس لجهود توسيع الهيمنة الأوروبية[31].

تُوَظَّف فكرة تساوي البشر بطريقة خادعة على سطح كثير من نصوص الفلاسفة الأوروبيين. في نص (السلام الدائم) لكانط ونص هيغل (فكرة الحرية بوصفها غاية) تبدو أفكار هذين الفيلسوفين ناضحة بالمساواة والعدالة العالمية، أمّا عندما تُقرَن بنصوصهم التي تحدِّد فهمهم للمجتمع، مثل (الجغرافيا الطبيعية) لكانط و(الأساس الجغرافي لتاريخ العالم) لهيغل؛ فيتضح أن تراتب البشر عنصرٌ مكِّونٌ وضروري لفلسفتيهما، اللتين تدَّعيان بُعداً عالمياً. إنَّ التأكيد على وجود إنسانية عامة تشترك في صفات أساسية أمر ضروري للخطاب الفلسفي الغربي لأنَّه يجعل أطروحة الامتياز الأوروبي مقبولة بأن تُجمَع الشعوب تحت نوع بشري واحد، ليُتاح بعد ذلك وضَع الأوروبيين على قمّة هذا النوع العام. ولأنه لا يمكن إعطاء شيء أفضلية على أشياء لا تنتمي إلى نفس نوعه؛ يصبح ضرورياً أن يُنسَب كل البشر إلى نوعٍ واحد، لتصبح المفاضلة بينهم ممكنة. إنَّ إدراج شعوب الجنوب ضِمن البشر في الخطاب الفلسفي لعصر التنوير لم يكن يستهدف مساواتهم بالأوروبيين، وإنما كان نقلة ضرورية لاستيفاء منطق تمييزٍ يعطي التراتب طابعاً عقلانياً يقرِّبه من شكل التفكير العلمي. ولهذا توصَّل التنوير إلى النظرية العِرقية الحديثة، التي ستزدهر تحت رعاية علوم البايولوجيا.

تصدر فعالية النظرية العِرقية التي تطوَّرت في عصر التنوير عن أنَّها منبثَّة في ثنايا النظريات الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية التي تفصل فضاء أوروبا

31 انظر الفصل الأول المعنون "اختراع الجغرافيا: كانط وعصره"، في:
Elden, Stuart and Mendieta, Eduardo, (eds.): *Reading Kant's Geography,* (United States of America: State University of New York Press, 2011).

عن العالم بدعوى امتياز مجتمعات (الحداثة) على المجتمعات (التقليدية). وكان القرن التاسع عشر الذي اقتسمت فيه بلاد أوروبا الغربية معظم أراضي العالم هو الذي شهد اكتساب النظرية العِرقية شكلها الحديث، عندما اتجه العلماء والمفكرون إلى تفسير سلوك الشعوب بتوظيف علوم الفسيولوجيا والتشريح والوراثة لاصطناع تفاسير للفروق بين البشر. وفي نهاية ذلك القرن لحِق علما النفس والأنثربولوجيا بركب العلوم الصانعة للتمييز، فساهما في تأسيسه على قواعد المنهج التجريبي.

في النصف الأول من القرن التاسع عشر نشر الفرنسي جورج كوفييه (Georges Cuvier 1769–1832)، أحد أبرز علماء التشريح المقارن المنشغل بإثبات تفوُّق (العِرق) الأوروبي، نصوصاً كثيرة ركّز فيها على أهمِّية التشريح. وكان مثل معظم مفكري التنوير يعتقد بأثر المناخ على عقل الإنسان ونظام مجتمعه، وأضاف إلى ذلك نظام الحضارة، فأعطى (العِرق الأبيض) المكانة الأعلى في تاريخ الحضارات لأنَّه يمثِّل (العِرق) الأصلي الذي لم ينحرف عن طبيعة آدم[32]. لقد تطوَّر هذا الاتجاه الذي يحاول الاستناد إلى أدلة تشريحية لإثبات تفوُّق الإنسان الأوروبي، عن فكر كانط الذي نقل التمييز من المجال الفلسفي إلى الجغرافية الطبيعية، محاولاً أن يجعلها علماً.

إن كان فكر التنوير متوافقاً مع التمييز ومسانداً للسيطرة، فمن أين اكتسب مكانته التاريخية؟ إنَّ الإجابة عن هذا السؤال تتطلَّب فهم الظروف التاريخية والأوضاع المحلية للبلاد التي تطوَّر فيها، وهي أوضاع تُوجد جذورها في فترة العصر الحديث المبكِّر. ففي القرن الخامس عشر كانت إسبانيا والبرتغال قد ابتكرتا نظام الدولة القومية عندما صاغتا تشريعات إخراج اليهود والمسلمين

32 قال كوفييه إنَّه توجد ثلاثة أعراق: قوقازي ومنغولي وإثيوبي. وبينما عدّ (العِرق) القوقازي أصل البشرية ومعيارها، عدّ الأخيرَين عرقين منحرفَين عن الإنسانية السويَّة. انظر:

Issac, Benjamin: *The Invention…*, p. 107.

من شبه جزيرة إيبيريا، ومنحتا قوميتيهما حق الانفراد بحُكم الدولة. وتبعاً لذلك فرضت كل قومية دينها ولغتها وثقافتها على بقيَّة المجموعات المتعايشة معها داخل الدولة، فكانت تلك هي اللحظة التأسيسة لنظام الدولة القومية، وهي التي تميزها إلى اليوم رغم مساعي الاعتراف بالتعدد الإثني والديني والثقافي. ومع تبنِّي بقيَّة دول غرب أوروبا هذا النظام، وُلِدت دولها الحديثة التي تقوم على مبدأ أحادية الأُمَّة والدين واللغة والثقافة، حين أرست اتفاقية وستفاليا أسس التعايش بين القوميات واحترام سيادة الدول عقب نهاية حرب الثلاثين عاماً. وبعد اتفاقية وستفاليا أُفرِغ في الخارج فائض العنف المتراكم في غرب أوروبا نتيجة حروبها الداخلية الطويلة، وكان مظهره الأبرز تضخُّم أحجام الجيوش، فكانت وستفاليا باباً أخرج عنف أوروبا إلى العالم.

بالطبع لم يكن ممكناً تثبيت هذا الوضع من دون ظهور وعي يدعم إمكانية التعايش بين الأوروبيين، وفي ذات الوقت يبرِّر نقل العنف وخبرة التدمير التي تراكمت في أوروبا الغربية إلى الخارج. وفي هذه الظروف نشأ فكرٌ استجاب لهذين الشرطين، فدعا إلى التسامح بين المذاهب الدينية في أوروبا، وفي نفس الوقت أقام تمييزاً بين الأوروبيين والأمم الأخرى على أسس عنصرية، دعمت نقل العنف إلى الخارج. وكان ذلك هو فكر عصر التنوير الذي سيُزوِّد مشروع غزو العالم، الذي استهله بابوات روما في القرن الخامس عشر، بوقود جديد كان في حاجة إليه ليستمر. فبعد أن استوعبت بلاد غرب أوروبا الدرس الذي خرجت به من حربها الدينية الطويلة، كان لا بدَّ لمشروع الغزو العالمي من مبرِّر جديد يحلّ محل فكرة نشر المسيحية ويتخطى الأيديولوجيا الصليبية، فولدت في أوروبا الغربية أيديولوجيا نشر الحضارة. حدث هذا في وقت لم يكن فيه الأوروبيون هم الأكثر تحضراً بين الأمم، لكن الأيديولوجيا تتغذَّى على المخيِّلة، لا الحقيقة.

جاءت فكرة اشتراك البشر في قدرتهم على استخدام العقل وقابليتهم للتطوُّر، لأنَّه لم يكن ممكناً القول بإمكانية نقل الحضارة إلى شعوب العالم من دون تأكيد قدرتها على تلقِّى الحضارة، مع التأكيد في الوقت ذاته على امتيازات (العِرق) الأوروبي التي منحتها إياه الطبيعة، والتي تُعطيه حقَّ إحلال فكره محل فكر الآخرين القائم على الخرافة والأسطورة، حسب زعم مفكري التنوير. هكذا ارتبط حل مشكلات الأمم الأوروبية والتوصُّل إلى تعايش آمن بينها، بتصدير فائض القوة الذي تراكم في فترة حروبها الدينية إلى العالم الخارجي. وبتمركزه حول فكرة العقلانية وفَّرَ فكر التنوير الأداة الرئيسة التي ستبرِّر للأوروبيين مشروع "نشر الحضارة" بين شعوب العالم والسيطرة عليها.

تحت تأثير فكر التنوير استمرت مزاعم تفوُّق (العِرق) الأوروبي على مدى القرن الثامن عشر وصولاً إلى القرن العشرين، معتمدة على أساسها الإغريقي الذي ربط طبائع الأمم بنوع المناخ. رأى الإغريق أن اعتدال مناخ بلدهم هو الذي يزوِّد شعبه بصفات الاعتدال الجسدي والعقلي، وفي الوقت ذاته اعتقدوا أن الشعوب الأخرى، خاصة الآسيويين والفرس، أقل منهم تمتُّعاً بالصفات الإنسانية. وفيما بعد عُمِّمت هذه النظرة السلبية على كل الشعوب غير الأوروبية، خاصّة شعوب الجنوب، فكان لها عواقب كبيرة على نظام المعرفة الغربية عامة، وعلى عقلانية التنوير خاصة. إذ لم تعد دراسة المجتمعات غير الأوروبية مجرَّد أداة للتمييز بين البشر، لكنها صارت وسيلة لتبرير السيطرة عليهم، فبما أن غير الأوروبيين تتحكَّم بهم الطبيعة، فهم يُعتبَرون جزءاً منها. وبما أن الأوروبي بعكس ذلك يسيطر على الطبيعة، عليه أن يسيطر على الإنسان غير الأوروبي، الذي هو جزء من الطبيعة. هذه هي النتيجة الضمنية للمقدِّمات التي رتبها مفكِّرو التنوير، انطلاقاً من فكرة تحدُّد خصائص وأخلاق الشعوب بالمناخ الذي تحيا فيه.

تطوَّر فكر التنوير عن تطلُّع رجال الطبقة الوسطى الأوروبية إلى حيازة مكانة عليا في دولهم الصاعدة اقتصادياً عبر الغزو والتوسُّع الخارجي. فقد استلزم مشروع غزو العالم إشراك مواطني أوروبا في إدارة الإمبراطوريات الواسعة، التي صار حكمها يتطلب توظيف آلاف الإداريين وتجييش العسكريين وتوطين مئآت آلاف التجار، لخدمة ملايين المهاجرين الأوروبيين الذين استوطنوا أراضي المستعمرات، وبالطبع كان ذلك يتطلَّب قمع المواطنين الأصليين وإخضاعهم. وهذه الشروط هي التي أوجدت حاجة ماسَّة إلى تحرير أمم شمال غرب أوروبا من السيطرة الإقطاعية وأنظمة الحُكم المَلَكي، وفرضت ضرورة خلق كيانات سياسية قومية، متَّحدة حول مصالحها. وبدوره، حفّز ذلك مطالبة شعوب أوروبا بالحرية، والمشاركة في مجالات السياسة والاقتصاد وإدارة المجتمع.

من هنا كان فكر التنوير تعبيراً عن توجُّه عام ساد القرن الثامن عشر، استهدف اشاعة التسامح والمساواة بين أمم شمال غرب أوروبا لحشدها في جبهة واحدة ضِمن مشروع اقتسام العالم، رغم نزاعها فيما بينها عليه. لقد اقتضت سيطرة إسبانيا على أميركا في وقت مبكِّر، وبدؤها التوسُّع في أميركا الشمالية، أن تحشد بريطانيا وفرنسا كل قواها لإيقاف تقدُّم الإسبان. وهذه المواجهة في بلاد ما وراء الأطلنطي هي التي ستتحوّل إلى صراع بين قوى غرب أوروبا على أراضي آسيا وأفريقيا، بجانب صراعها على الأميركتين. ويعارض بعض المفكِّرين الغربيين المعاصرين فكرة أن عصر التنوير كان نتاج العقلانية والعلم، ويعدُّونه نتاج أيديولوجيا السيطرة على العالم. فقد كتب جيرار لكرك:

> **"تُعدُّ أيديولوجية عصر التنوير مرحلة هامة في الاهتمام الذي أولته أوروبا للشعوب الغربية، وتمتد هذه الحقبة من صدور كتاب روسو حول أصول اللا مساواة في 1754، وإلى صدور كتابات كوندورسيه في 1794"**[33].

33 انظر الفصل الأول في:
جيرار لكرك: **الأنثربولوجيا والاستعمار**، ترجمة جورج كتورة، (بيروت: مهعد الإنماء العربي، 1983).

يرى لكرك أن العلوم الاجتماعية كلها تدين بنشأتها إلى تراث التنوير بعد عبوره بمرحلة الرومانسية؛ مستنتجاً أنَّه كان تعبيراً عن المهام العملية لغزو بلاد جنوب العالم، وذلك بوصفه أيديولوجيا صانعة للفروق بين الشعوب. بإضفاء طابع علمي على أوهام المخيِّلة الأوروربية حول طباع الشعوب، تُصطَنع الفروق بين البشر وتُوضَع شعوب الجنوب في مكانة أدنى من الأوروبيين، ويسهم العلم والفلسفة في تلطيف السيطرة وممارسات العنف لأنهما يضفيان معقولية على الأسس التمييزية التي تنهض عليها تلك الممارسات. وهذا الاستهداف المعرفي للبشر، أو "الحُشريّة العلمية" كما يصفها لكرك، هي التي تحطُّ من مكانة الآخرين بأن تنسب تقافتهم إلى مكانة دنيا "طالما أنَّها تحيل الديانة إلى توهم، والحق إلى عادة، والفن إلى فولكلور"، وبذلك تمحو كل ما يحُولُ دون إبادة الآخرين[34]. لذا، كانت نظرة التنوير إلى الشعوب غير الأوروبية تقول، بصراحة تفضح مركزية الفكر الأوروبي، حسبما لخص لكرك:

> **"لا يهم ما تكون عليه الطبيعة الفعلية للشعوب التي نتناولها بالدراسة، ولا يهمنا أيضاً أن نعرف أن البدائي هو وريث مدنية عريقة استطاعت أوروبا الاطلاع عليها. فلا وجود للمجتمات البدائية التي نلتذ أحياناً بالاعتراف بما لها من عظمة وقيمة (قديمتين)، إلا بوجود المركز؛ إنَّ ما وراء البحار موجود فقط بالنسبة إلى المركز"**[35].

لا وجود لبشر الجنوب إلا لأن الأوروبيين موجودون في العالم، فهم الذين يعرفونهم ويمنحونهم وجودهم. في منظومة المعرفة التنويرية يظهر تماثل وضعية (العلوم) الاجتماعية مع وضعية الأنثربولوجيا عند تقصِّي ظروف تطوُّر كل علم اجتماعي، فالتاريخ مثلاً، تطوَّر إلى علم في الفترة التي جمعت

---

34 المرجع السابق، ص 40.

35 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

عصر التنوير بالرومانسية. وحسب قول ر. ج. كولنجوود، كان يقين فلاسفة التنوير بالعقل قد جعل كثيرين منهم يقبلون أن الحاكم إنْ كان مستنيراً فبوسعه أن يكون حاكماً ناجحاً. أمَّا الرومانسية، التي عوّلت على دور الثقافة القومية، فقد مالت إلى تقدير دور الشعوب في حُكم نفسها. وقد عدَّل روسو الفكرة فقال إنَّ الحاكم لن يستطيع أن يمارس السلطة إلا إذا كان يحكُم شعباً مستنيراً. فوجدت فكرة الإرادة العامة مكانها وأمكن التعامل مع حركة المجتمعات في التاريخ على أنَّها نتاج إرادة عامة لا عبقرية فردية، واحتلت الشعوب بمختلف نظمها الاجتماعية محلها في مسيرة التاريخ. وحينها أصبحت هناك عدة مراحل لتطوُّر الشعوب، تنتقل بها من البدائية إلى الحضارة[36]. وهذه المراحل هي التي ستصون التراتب الذي سيمنح المتحضِّرين، أو الحداثيين، الحق في غزو الشعوب المتوحِّشة أو المجتمعات التقليدية.

الخلاصة، أنّ عصر التنوير الذي يُشاع عنه أنَّه عصر العقل والتسامح والمساواة، حين يُرى من منظور الأمم غير الأوروبية، يتَّخذ صورة حقبة تاريخية دبَّرها المؤرِّخون الأوروبيون لرفع مكانة منطقة شمال غرب أوروبا في التاريخ الحديث، معتبرين أنَّها تمثِّل فضاء العقل والنور والإنسانية، بينما تمثِّل بقيَّة بلاد العالم فضاءات الخرافة والظلام والبَهيمية. وبالنسبة إلى غير الأوروبيين، تتمثَّل أبرز علامات فكر التنوير في أنَّه نقل خطوط التمييز بين البشر من داخل مجتمعات أوروبا إلى خارجها، فأضفى شرعية على الاستعمار تعطي الأوروبيين حق قيادة "المجتمعات المتأخِّرة"، أو تلك التي تحيا خارج التاريخ. والحقيقة التي يجب التذكير بها هنا هي أن فكرة التقدُّم التي طوَّرها مفكرو التنوير وبرَّرت ممارسة الهيمنة، جاءت في وقت لم تكن أوروبا قد حقَّقت فيه أي نوع من التقدُّم على الأمم الأخرى. وكانت قد حقَّقت شيئاً واحداً أتاح لها

36 ر. ج. كولنجوود: **فكرة ...**، ص 171.

السيطرة على النظام الاقتصادي العالمي، هو غزو بلاد العالم والاستيلاء على ثرواتها عبر العنف، فجاء فكر القرن الثامن عشر ليوفر غطاءً أيديولوجياً لتلك الممارسات بمبرِّر "التفاوت الطبيعي" بين الأمم. لذا، لا يمكن قبول قول بوبر إنَّ فكر التنوير "خلَّص الإنسان من قفص النظام التراتبي الذي جعله أسير الاستغلال والسيطرة"، لقد فعل التنوير ذلك للأوروبيين على حساب بقية البشر. بل إنَّ تحرير الأوروبيين من التراتب تحقَّق في عصر التنوير بنقله ليُقام بين الإنسانية في عمومها، بعد أن كان قائماً بين الأوروبيين، فأصبح يميِّز بين الأوروبي وغير الأوروبي. ولكن بوبر يقصد بكلمة "الإنسان" ذلك الكائن الأوروبي، لا عامة البشر. فبوصفه فيلسوفاً، لا شكَّ أنَّه كان يعلم أنَّ معظم مفكِّري التنوير دافعوا بوضوح عن تراتب البشر على أُسسٍ عنصرية وعِرقية. إنَّ الحديث عن الأوروبي باعتبار أنَّه يمثِّل "الإنسان" تقليد مستمر لدى الفلاسفة الغربيين المعاصرين، حتى الذين يُحسَبون اليوم من الرموز الكبرى لفكر الحرية، مثل بوبر.

إضافة إلى ما سبق، فإنَّ فكر التنوير لم يتضمَّن في جانبه الأكثر أهمِّية، وهو النظرة إلى الإنسان والمجتمع، نقلةً تميِّزه عن نمط التفكير القديم الذي شاع في حضارات منطقة المتوسِّط، فقد ظل مفكروه يكرِّرون فكرة أن المناخ هو العامل الجوهري في تشكيل طبائع الأمم ونُظُم مجتمعاتها ومحتوى حضاراتها. لكنَّ عصر التنوير حقَّق للأوروبيين نقلة كبيرة بكونه زوَّد مشروع غزو العالم بأيديولوجيا ذات طابع عقلي، تبرِّر التفاوت بين البشر لتعطي الأوروبيين حق "نشر الحضارة".

حسب القصَّة التي صاغها المؤرِّخون الغربيون لمسار تطوُّر مجتمعات غرب أوروبا، نتجت أفكار التنوير عن تحوُّل بدأ في القرن السابق له وحملَ رياح ثورة شملت مختلف بلاد غرب أوروبا، سمَّاها المؤرِّخون الثورة العلمية. وبعد

أن تناول القسم الأول التحولات الأوروبية في العصر الحديث القريب، وأظهر أن مزاعم ثوريتها هي نتاج تدابير خطابية تعمِّم التواريخ المحلية للمجتمعات الأوروبية على تاريخ العالم؛ ينتقل الفصل التالي إلى ما سبقها من تحولات أوروبية في العصر الحديث المبكر، ناظراً في قصَّة "الثورة العلمية".

الثورة العلميَّة: خيط نور في ظلام

الثورة العِلميَّة من التحولات التي ينسب إليها المؤرِّخون الغربيون مكانة كبيرة في تاريخ العصر الحديث، فيُقال عنها إنَّها نقلت المعرفة إلى مرحلة عليا. ورغم أن معظم المؤرِّخين متَّفِقون على أهميَّة هذه الثورة فهم مختلفون، كحالهم مع مُعظم الثورات الأخرى، على حدودها الزمانية والمكانية وسِماتها الأساسيَّة. ومصدر عدم الاتفاق هو اختلاف تواريخ الأمم الأوروبية ومحاولة كل أُمَّة تعريف ملامح ومكوِّنات العصر الحديث بما يتيح ربطه بتاريخها. يحاول هذا الفصل التعرُّف على مكانة الثورة العِلميَّة ومضمونها، ويُحلِّل خطابها على خلفية أوضاع قمع المعرفة التي سادت أوروبا في بداية العصر الحديث.

في الغالب تُنسب الثورة العِلميَّة إلى القرن السابع عشر الميلادي، وتُعرَّف بأنها الفترة التي بدأت فيها الأفكار العِلميَّة توضع، قصدِيَّاً، موضع استخدام. وتُعرّف أيضاً بأنها الفترة التي جعلت العلم "نشاطاً إنسانياً يدرس الطبيعة بطريقة نظامية، نظرياً وعملياً"[1]. أمَّا من حيث نتائجها، فتعرَف بأنها الأفكار التي نشرها البولندي نيكولاس كوبرنيكُس (Nicolaus Copernicus 1473–1543) والإيطالي غاليليو غاليلي (Galileo Galilei 1564–1642) والفلكي الألماني يوهانز كبلر (Johannes Kepler 1571–1631) وعالم الفيزياء الإنجليزي إيزاك نيوتن (Issac Newton 1642–1727). ويضيف البعض إلى هؤلاء الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (René Descartes 1596–1650).

---

1 Teich, Mikuláš: *The Scientific Revolution Revisited,* (Cambridge: Open Book Publishers, 2015). p.15.

كان كوبرنيكس قد نشر كتابه المعنون (دوران الأجرام السماوية) في سنة 1543م، أمَّا كتاب نيوتن (أساسيات الرياضيات) فقد نُشِر في سنة 1687م، وبينهما ظهرت كتابات كبلر وجاليليو وديكارت. وأول ما يُلاحظ على هذه الفترة أنَّها تؤرخ لظهور نظريات علمية غير متساوية في تأثيراتها وأهميتها. والملاحظة الثانية أن الفترة التي تفصل بين ظهور أول وآخر النصوص العِلميَّة لهؤلاء الرجال الخمسة تقارب مئة وخمسين عاماً، وهي توضح أن إنجازاتهم تمت في لحظات زمنية متباعدة جداً يصعب جمعها في فترة زمنية واحدة. وهذا يطرح سؤالاً مهماً هو كيف صُنِعت منها حقبة تاريخية لحدث عِلمي واحد؟ فالأوضاع العِلميَّة في فترة طويلة كهذه لا يمكن أن تبقى متماثلة. وهنا تظهر ضرورة فحص تاريخ نشأة فكرة الثورة العلمية.

صِيغ تعبير الثورة العِلميَّة في منتصف القرن العشرين، أي بعد أربعة قرون من ظهور نظرية كوبرنيكس عن دوران الكواكب حول الشمس التي يُؤرّخ بها لبدء تلك الثورة. ففي منتصف القرن العشرين فقط بدأ المؤرِّخون يحاولون فهم تطوُّر العلم بالتركيز على ما اعتبروه تحولات كبرى شهدها ماضيه. بدأ ذلك في ثلاثينيات القرن العشرين عندما وصف فيلسوف العلم غاستون باشلار بعض التحولات العِلميَّة التي حدثت في القرن السابع عشر بأنها "انقطاعات واسعة النطاق"[2]. وبعده استخدم مؤرِّخ العلم الكسندر كوير (Alexander Koyré) في سنة 1939م تعبير الثورة العِلميَّة بمعنى "التحوُّل في مفهوم العلم". وفي سنة 1948 وصفَ كوير تحولات القرن السابع عشر بأنها الثورة الأكثر عمقاً التي توصل إليها الإنسان منذ التحوُّل الذي أحدثه الإغريق، وفي خمسينيات القرن العشرين شاع قوله هذا. وبهذا يكون كوير هو مبتكر تعبير الثورة العِلميَّة[3].

2 يرى غاستون باشلار أن المعرفة العِلميَّة تتقدَّم عن طريق تصحيح الخطأ وليس بإضافة ماهو صحيح، وتميّزها الانقطاعات المعرفية وليس التراكم المعرفي، ومن هنا ركّز على فكرة التحول. انظر:
غاستون باشلار: **تكوين العقل العلمي: مساهمة في التحليل النفساني للمعرفة الموضوعية**، ترجمة خليل أحمد خليل، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1982). ص 191-193.

3 انظر تفاصيل وجهة نظره في:
Koyre, Alexander: *From the Closed World to the Infinite Univers,* (Create Space Independent Publishing Platform, 2012).

رغم أن التعبير كان مستخدماً من قبل، إلا أن كوير أعطاه المعنى الذي سيستمر فيما بعد، وهو معنى القطيعة مع الفكر الأرسطي الذي ساد العصور الوسطى، أمَّا الذين سبقو كوير من المؤرِّخين فقد ألحقوا الممارسة العِلميَّة للقرن السابع عشر بما قبلها، ولم يروا فيها علامة على ظهور عصر جديد أو تحولاً ما. وهنا يبرز دور مفهوم القطيعة، بمعنى مفارقة التقاليد العِلميَّة السائدة، فقد رأى كوير أن القطيعة العِلميَّة تمثلت آنذاك في ظهور فكرة "لانهائية الكون" في علم الفلك. ويرى هربرت بترفيلد أن كوير صنع نقلة مُهِمَّة في مجال التأريخ للعلم، لأنَّه فارقَ المسار التقليدي الذي كان المؤرِّخون الآخرون يتبعونه محاولين فهم الماضي بمنظور الحاضر. كتب كوير في الصفحة الأولى من كتابه الذي خصَّصه لدراسة تاريخ مفهوم اللا نهاية:

> **"إنَّ مفهوم لانهائية الكون هو مثل أي شيء آخر [...] يجد أصوله عند الإغريق. والمؤكد أنَّ تأمُّلات المفكِّرين الإغريق بخصوص لا نهائية الفضاء وتعدُّدية العوالم لعبت دوراً مُهمَّاً في التاريخ الذي سنتعامل معه"[4].**

توضِّح اللغة اليقينية التي صاغ بها كوير هذه الفقرة مدى تحكُّم الافتراضات المسبقة بنظرته إلى تاريخ العلم، فهو يرى أن كل مفهوم علمي يعود إلى الإغريق، مستبعداً مساهمات الأمم الأخرى في تاريخ المعرفة العلمية. ومن الواضح أنَّه يضع رأيه حول عدم صلة الآخرين بتاريخ المعرفة العِلميَّة موضع يقين تام. وهذا موقف أقل ما يُقال عنه إنَّه يفتقد الطابع النقدي من جانب مؤرِّخ وُصِف بأنَّه "أحد المؤرِّخين الأكثر تأثيراً في تاريخ العلم في القرن العشرين"[5]. وهذا الموقف القائم على تسليم مسبق بأن كل معرفة هي بالضرورة أوروبية، من الطبيعي أن يرد أصول العلم الحديث أيضاً إلى أوروبا عبر تحوُّل ما، أو ثورة.

4 المرجع السابق، ص 1.

5 Stump, James B; History of Science through Koyre's Lenses, *Stud. Hist. Phil. Sci.*, vol. 32, no. 2, (2001). 243-263. P. 43.

بعد سنوات قليلة من استخدام كوير لتعبير الثورة العِلميَّة بدأ المؤرِّخون يستخدمونه بتسليم تام، وكأنه يصف حادثة تاريخيَّة. كتب بترفيلد في العام 1949م:

"إنَّ نور الثورة العِلميَّة يطغى على كل شيء منذ ظهور المسيحية، ويجعل من النهضة والإصلاح مجرَّد حلقات صغيرة (...) إنَّها الأصل الحقيقي للعالم الحديث والعقلية الحديثة"[6].

هنا أخذ ذلك الاسم، الذي كان مجرَّد تعبير بلاغي عند كوير، صورة حقيقة تاريخية تمثِّل أصل العقلية الحديثة، ويجب أن نلاحظ دور اللغة المجازية عند بترفيلد في توظف مجاز "النور"، الذي يُمثَّل بأنَّه يطغى على الأبصار بحيث يغلب نور الثورة العِلميَّة في التاريخ على نور عصر النهضة والإصلاح الديني. وهذا يماثل اللغة المجازية التي بشَّر بها بترارك بعصر النهضة.

بعد بترفيلد بقليل، وتحديداً في سنة 1954م، أشاع كل من روبرت هال (A. Rupert Hall) وج. د. برنال (J.D. Bernal) استخدام تعبير الثورة العِلميَّة، الذي لم يكن قد انتشر على نطاق كبير حتى ذلك الوقت. وسَّع هال معنى المصطلح بأن جعله يشير إلى "تحوُّل كامل في رؤية العالم" ميَّزت التفكير الحديث عن طريقة التفكير في العصور الوسطى، فلم يعد التعبير يشير إلى نظريات الفلك والطبيعة بل أصبح يشير إلى ظهور طريقة جديدة كلِّياً في فهم العالم. ويتَّفق بترفيلد وهال في أن التحوُّل نحو الفكر العلمي هو الذي يشكِّل أساس الفكر الحديث، فحسب رأيهما، صارت مَهمَّة العلم منذ ذلك الوقت هي وصف العمليات والميكانزمات وعلاقات الأجزاء، لتوضيح أن الحقائق الوحيدة هي المادَّة والحركة[7].

---

6 Shapin, Steven; *The Scientific Revolution*, (Chicago and London: The University of Chicago Press, 1998). p. 2.

7 Hall, Robert A.; *The Scintific Revolution, 1500-1800, The Formation of the Modern World Scientific Attitude*, (Boston: Beacon Press, 1966). P. xvii.

هكذا تضخَّمت في عقدين من الزمان فكرة بسيطة كان غاستون باشلار قد وصف فيها التحولات العلمية،مجازياً، بأنها إنقطاعات، وبعده اعتبرها كوير ثورات. ويُظهِر هذا المسار، القريب مما يسمِّيه علماء الدلالة "التوسُّع الدلالي" (semantic extension)، أن تعبير الثورة العِلميَّة تضمَّن طبقات متعددة من المعاني، فالمعنى اللاحق يوسِّع السابق ويُضفي عليه شمولاً. وبهذا انتقل التعبير من كونه يشير إلى لحظات ظهور نظريات علمية متباعدة زمانياً إلى مفهوم يصف طريقة في التفكير والبحث متَّسقة الملامح. أمَّا في الواقع، فإنَّ مفهوم الثورة العِلميَّة وُلد نتيجة تبنِّي مؤرِّخي العِلم في النصف الأول من القرن العشرين طريقة جديدة في فهم تاريخه، أساسها مفهوم القطيعة. إنَّ عملية التأريخ للحِقب والعصور تتحكَّم بها المفاهيم التي يتبنَّاها المؤرِّخون لتنظيم مادتهم التاريخية، وهي لا تُمثِّل شيئاً حقيقياً يوجد في الماضي فعلاً لكنها أدوات لفهم الماضي، طبيعتها التغيُّر، فهي ذاتها تخضع للسياق التاريخي وتُفسَّر داخله.

بخلاف منتصف القرن العشرين الذي ساده يقين بوجود ثورة علمية، طوَّر مؤرِّخو العلم في نهاية القرن العشرين مفهوماً جديداً للمعرفة يراها نتاجاً اجتماعياً تسهم في تحديده ظروف متنوعة، وأثَّر ذلك على موقفهم من ثورة القرن السابع عشر العلمية، فأنكر بعضهم أنَّها تصف حدثاً تاريخياً حقيقياً. ويميل ستيفن تشابن إلى أنَّه لا يوجد شيء يُسمَّى الثورة العلمية، وأنها يُمكن الحديث عنها فقط لرسم خطوط فاصلة في تاريخ العلم تتيح للمؤرِّخ تتبُّع التحولات التاريخية، مبتدئاً من لحظته الحاضرة التي يتصوَّر فيها العلم بكيفية معيَّنة.

يتَّصل نقد تشابن للثورة العِلميَّة بنقد حديث طوَّره باحثون ركَّزوا اهتمامهم على أثر السياقات الخارجية على تطوُّر العلم، رائين أن الطريقة التقليدية التي ظل العلم يُعرَّف فيها بأنَّه "توحيد طرق إنتاج المعرفة على أساس كوني" تهمل علاقة المعرفة بالعوامل الاجتماعية التي تسهم في تحديد مضمون الممارسة

العِلميَّة، وأن تلك الطريقة تهمل دور الذوات في عملية إنتاج المعرفة بتأثير من هوياتها وروابطها الاجتماعية وانتماءاتها. إنَّ تجاهُل ارتباط الممارسة العِلميَّة بمنتجيها والمجتمع والتاريخ لم يعد يقبله من يجمعون بين العلم والسياقات التي يُنتَج فيها، لأن تجاهلها يلغي أثر الأوضاع الملموسة على عمليَّات إنتاج العلم[8].

ربط باحثون آخرون مسيرة المعرفة العِلميَّة بتحولات السياقات الاجتماعية والتاريخية معتمدين على مفهوم "اللا–تأسيسانية" (non–foundationalism)، الذي يعني أنَّه لم يعد هناك رابط موثوق بين المعرفة العِلميَّة والواقع الخارجي يتيح للمعرفة أن تُلم بالواقع بطريقة مباشرة، وأنه توجد فقط مجموعة معتقدات متساندة تسمح بإنتاج الحقيقة العلمية[9]. والدراسة الاجتماعية للعلم تضع فكرة اللا–تأسيسانية في قلب معرفة طرائق اشتغال العلم، لتسعى إلى فهم نظم المعرفة العِلميَّة من حيث هي إنشاءات اجتماعية، تتأثَّر بعلاقات القوة والصراعات الاجتماعية ونزاعات المصالح[10]. ونتيجة لهذه التحولات المعاصرة في مفهوم العلم، لم يعد مؤرِّخوه يفهمون الثورة العِلميَّة بوصفها حدثاً موضوعياً، فهم يرفضون فكرة أنَّه وُجِدت في القرن السابع عشر ممارسات معرفية متماسكة يمكن تصنيفها تحت ممارسة واحدة ذات طبيعة متسقة تسمى (العِلم)، لأن هذا يلغي تنوعات المعارف المنتجة في الفترة المعينة وتباين طرقها واختلاف اهتمامات الجماعات المنتِجة لها.

8 Teich, Mikuláš: *The Scientific..,*. P. 9.

9 للحصول على صيغة مختصرة لتعريف يقارَن المعرفة التأسيسانية باللا - تاسيسانية (التي تسمى أيضاً الضد- تأسيسانية Anti-foundationalism)، انظر:

Brint, Michael- Weaver, William G. and Garmon, Meredith: What Difference Does Anti-Foundationalism Make to Political Theory? *New Literary History*, vol. 26, no. 2 (Spring, 1995) 225-237. P. 226.

10 Sismondo, Sergio: *Science without Myth: On Constructions, Reality and Social Knowledge,* (New York: State University of New York Press, 1996). P. 37.

أدَّت هذه التوجُّهات التي تركِّز على تنوعات الأوضاع الاجتماعية والتاريخية التي تتطوَّر فيها ممارسات العلم إلى إعادة تعريف فترة الثورة العِلميَّة. ولأن التعامل الحر مع الإفكار يختلف عن التعامل معها بوصفها ممارسات صانعة للمفاهيم (concept–making practices)، صار مؤرِّخو العلم يهتمُّون بمعرفة الذين يصنعون التحولات، ولا يهتمُّون بالتدقيق في ماهيَّة التحولات نفسها. وعلى هذا الأساس يرى شابن، أن الكتابة عن الثورة العِلميَّة تظل ممكنة لسببين: أولاً، لأن الذين مارسوا العمل العلمي في زمنها اعتقدوا أنهم يقدِّمون معرفة جديدة، وثانياً، لأن تحولات العلم التي شهدتها تلك الفترة تخص مجتمعات الذين يكتبون تاريخها. هنا يُبرِّر شابن استخدام مفهوم الثورة العِلميَّة باعتبارات تخص تصوُّر المجتمعات الأوروبية لتاريخها، ويخلص من ذلك إلى أنَّه لا توجد حكاية واحدة للثورة العِلميَّة، بل حكايات متنوِّعة. وهذا يعني أن الاختيار بين مجموعة سمات تخص فترة معيَّنة أمر لازم لإنشاء حكاية تاريخية تلقى القبول عند المجتمع المعيَّن. وهذا بدوره يعني أنَّه يبقى دائماً في نصوص التاريخ شيء يخص من يكتبونه.

من جهته، ركَّز سرجيو سيسموندو على دراسة العلم والتكنولوجيا (S&TS) باعتبارهما منظومة مؤسَّسات وأنشطة اجتماعية متعدِّدة الأغراض، فقلَّل من إمكانية وجود حقيقة علميَّة خالصة، رغم أن العلم ينتج معرفة بالعالم المادِّي. وعنده ليست الحقيقة هي الهدف الوحيد للعلم، بما أنَّه يملك طابعاً اجتماعياً–سياسياً. ولأنه يرى أن تفاسير المعرفة العِلميَّة صحيحة بدرجة جزئية فقط؛ يقول إنَّ من الضروري لفلسفة العلم أن تُعنى بالظروف الاجتماعية التي تجعل المعرفة مقبولة في المجتمع المعيَّن في فترة معينة[11]. ينتقد سيسموندو فكرة أن التمثيلات تقود إلى إنشاء موضوعاتها، فيقول إنَّ الاعتقاد بأن العلم يمرُّ بصورة مباشرة من التمثيل (representation) إلى ما يُمثَّل (represented)، يستبعد دور علاقات القوة التي قد تعيق إنتاج المعرفة، أو تُعين عليه. ويرى أن اللغة

11 المرجع السابق، ص 30 - 32.

العِلميَّة تستخدم مجازات تختزن المعتقدات والأيديولوجيا بقدرٍ يفتح دراسة العلم على ضرورة استجلاء دور الانتماءات الأيديولوجية في المجتمع المعين[12]. وهنا تبرز أهمِّية دراسة علاقات القوة وتقاطعها مع العلم من دون أن تتعارض معه، من حيث إنَّها تؤثر في إنتاجه بتهيئة الظروف التي تطرح أسئلة معينة وتستبعد أخرى[13].

هذه النظرة التي تطوَّرت مؤخراً أزالت الأوهام التي ألحقها التفكير الوضعي بتاريخ المعرفة، الذي كان يطابق العلم بمعرفة الواقع في ذاته. ورغم أن هذه النظرة أثَّرت على فهم تاريخ العلم في الغرب بأن ربطته بالصراعات الإجتماعية، إلا أن دلالاتها لم تُنقَل بطريقة كافية إلى ميدان معرفة الغرب بتاريخه، ولم تُبحَث بقدر كاف ارتباطات التأريخ للعلم بالمصالح السياسية في السياقات العالمية. لكن جهوداً من هذا النوع طُبِّقت على تاريخ الثورة العِلميَّة مؤخَّراً.

اعتماداً على علاقة العلم بالسلطة، حاول باحثون معاصرون دراسة بعض العوامل التي ساهمت في إنتاج المعرفة العِلميَّة في الفترة التي يُنسَب إليها حدوث الثورة، فدرسوا هجرات العلماء وارتباطها بالسياسة وبالتحولات الدينية والثقافية في النصف الثاني من القرن السابع عشر، ضِمن الظروف الخاصة بكل بلد أوروبي. وتوصل بعضهم إلى الكيفية التي أثَّرت بها الأوضاع الاجتماعية والسياسية للعلماء على مكانتهم العِلميَّة ومدى مصداقيتهم. وفي هذا المجال قدَّمَ باحثان المثال التالي: حدثَ في كل من ألمانيا وإيطاليا أن تعارضت أطروحات بعض أتباع كوبرنيكُس الفلكيَّة مع بعض أطروحات الفلسفة الطبيعية، وعندئذ

12 المرجع السابق ص 125.

13 يرى سيسموندو أن للمجاز دور مهم في إنتاج المعرفة، من حيث هو تمثيل يسمح باضفاء شكل علمي عليها. و هذا يفتح تاريخ العلم وفلسفته على الطبيعة المعقدة للمعرفة العلمية، وفي ذات الوقت يربطها بالمنصة التي تنطلق منها ولا تتكون خارجها، وهي منصة المجتمع والعلاقات بين مؤسساته. ويوضح الطبيعة المنشأة (constructed) للمعرفة العِلميَّة بوصفها جزءاً من كتلة خطابية متداولة في المجتمع، تسهم في إدارة الصراع بين جماعاته المختلفة. انظر: المرجع نفسه، ص 162 - 164.

بحث الفلكيون عن سلطة إضافية تبرِّر تدخلهم في مجال الفلسفة، البعيد عن مجال الفلك، فسعوا إلى الحصول على وظيفة في دواوين الأُمراء لرفع وضعهم الاجتماعي ليدعموا صحة أُطروحاتهم معتمدين على قربهم من مواقع السلطة. من طرحهم أمثلة كهذه توصَّل هذان الباحثان إلى أن المجتمع العلمي لم يكن يحرص على اختبار الجوانب العِلميَّة للأطروحات، وإنما كان يدعم حُججها بالمكانة الاجتماعية والعلاقة مع السلطات السياسية. واستنتجا أنَّه في فترة ما يسمَّى بالثورة العِلميَّة كان العلماء القريبون من كبار السياسيين يُنظر إليهم على أنهم أفضل تأهيلاً من العلماء الذين لا مكانة لهم عند السياسيين[14]. وهذا يرجِّح أن ممارسة العلم في أوروبا خلال تلك الفترة كانت تعتمد على عوامل ليس بالضرورة أنَّها تنتمي إلى مجال العلم، وأنها كانت تختلف باختلاف ظروف البلاد. ولأن التاريخ يستهدف معرفة لماذا وقعت الأحداث المعيَّنة في وقتها المعيَّن، سعى الباحثان المذكوران إلى الكشف عن تأثيرات أخرى متنوِّعة تصب في مجال إنتاج المعرفة العلمية، منها: دور الثقافات القوميَّة، ودوافع الجهد العقلي، وقنوات التواصل بين المتعلمين، ومجالات استخدام اللغة عند الجماعات الكبرى والأقلِّيات. انطلق الباحثان من نظرة للتاريخ ترى أن عليه الإجابة على أسئلة: أين، ومتى، وكيف؟ بالتركيز على وحدة الزمان والمكان، مثلما تُدرَس وحدتهما في الأعمال المسرحية والأدبية والفنية[15].

على نحو مماثل ربطت باحثة أخرى، هي جودي هايدن، تاريخ المعرفة العِلميَّة بالتكنولوجيا والأدب والفن من حيث إنَّها تتشكَّل ضِمن سياقات اجتماعية وسياسية وثقافية وتاريخية[16]. وتتَّضح معقولية فكرة جودي عند النظر في

14 Porter, Roy and Teich, Mikuláš (eds.): *The Scientific Revolution in National Context,* (Cambridge: Cambridge University Press, 1992). P. 16.

15 المرجع السابق ص 15.

16 Judy A. Hayden (ed.): *Travel Narratives, The New Science, and literary Discourse, 1569-1750,* (England and USA: Ashgate, 2012). P. 3.

ارتباطات المعرفة العِلميَّة بتاريخ الفن في بداية العصر الحديث، فبخلاف ما تزعمه النصوص القائلة بحدوث ثورة علمية شاملة في بلاد غرب أوروبا، يُظهِر النظر في مسار تطوُّر المفاهيم الفلكية أن علماء غرب أوروبا ابتكروا في تلك الفترة نظرة إلى الكون تقوم على مفاهيم هندسية ذات أسس جمالية وفنية، فقد تمت البرهنة على غالبية النظريات اعتماداً على القاعدة الجمالية الخاصة بتناسُب الأجزاء فيما بينها. وكان معيار المفاضلة بين النظريات العلمية لدى علماء تلك الفترة هو معيار الانسجام بين مكوناتها، وليس نتائجها التجريبية. فإذا وُجِدت نظريتان متعادلتان كان يُفاضَل بينهما بمعيار الانسجام والتناظر بين الأجزاء، فتكون الأكثر صحة هي الأكثر اتساقاً وجمالاً من حيث كليتها. هذا يعني أن حقبة القرن السادس عشر كانت ذات سمات كلاسيكية في معظم جوانبها، وأن عوامل أخرى تخص الفترة التي كُتب فيها تاريخ العلم الحديث هي التي نسبت إليها انبثاق تحوُّل كبير.

آخذين في الاعتبار هذه المؤثرات التي تساهم في فهم التحولات العلمية، يمكننا مناقشة أوضاع المعرفة العِلميَّة في فترة القرن السابع عشر التي اصطُنِعت لها صورة (ثورة). وأول ما نلاحظه هو أن نظريات تلك الفترة لم تكن اكتشافات بالمعنى الذي نفهمه اليوم، فالاكتشاف يكون كذلك إذا فارق المعرفة السائدة في زمنه، أو ترتَّب عليه تحويل المفاهيم أو الممارسات المألوفة في المجال المعين، مع قبوله لدى المجتمع المعيَّن في الزمن الذي تم التوصُّل إليه فيه، أو قريباً منه[17]. وعلى ضوء هذه السمات تُرى الأمثلة التي يتَّخذها المؤرِّخون علامة على الثورة العلمية، ويمكن أخذ نظرية كوبرنيكس التي أثبت بها دوران الكواكب حول الشمس ونفى دورانها حول الأرض مثالاً لذلك.

17 للمعيار الاجتماعي أيضاً أهمِّية في تعريف الاكتشاف، لأنَّه توجد حقائق كثيرة توصَّل إليها علماء في أزمان سابقة ولكن لأنها لم تُقبل من جانب العلماء، لم تعتبر اكتشافات في زمنها. وحينما تم التعبير عنها بطريقة مقبولة في زمن لاحق اعتُبرت اكتشافات بالمعنى التام. فمن الشائع مثلاً أن أرسطارخوس، الذي عاش في القرن الثالث ق.م، قال إنَّ الشمس تدور حول الأرض، لكن رأيه لم يقبل حينذاك وقُبِل النظام البطليموسي القائل بدوران الشمس حول الأرض، لأن أرسطو أقرَّه.

شكّلت هذه النظرية نقلة في المعرفة العِلميَّة في زمنها بجعل الشمس مركزاً لحركة دوران الكواكب، ورغم أنَّه ترتَّبت على ذلك نتائج مُهِمَّة بالنسبة إلى علم الفلك لا يمكن التقليل من أهميتها، يجب الانتباه إلى أن المحك الفعلي، وهو المفاهيم والممارسات الخاصة بعلم الفلك، لم تتغير بسبب النظرية لأنها كانت قد تغيَّرت قبلها، وجاءت النظرية نتيجة لذلك التغيُّر. إنَّ الذي توصّلَ إليه كوبرنيكس كان بسبب تغيُّر حدث في فهم علماء الفلك للنظام الرابط بين مدارات الكواكب، وهو تغير سبَّب انقلاباً في النظام الأرسطي القائم على النظام البطليموسي الذي ظلَّ مسيطراً حتى القرن الثاني عشر الميلادي، وقد حدث ذلك التحوُّل خارج أوروبا.

في القرن الثالث عشر كان فلاسفة مسلمون، على رأسهم ابن رشد، قد بدأوا تطوير نقد للنظام الأرسطي والبطليموسي في فهم الطبيعة. ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي بدأ عدد من علماء شرق وجنوب المتوسط التنظير لنظام بديل يربط بين جميع مدارات الكواكب على أساس انتظامها حول مركز واحد، وكان أبرز الذين عالجوا تلك الفرضية بدقة العالم أبو الحسن علاء الدين بن علي المعروف بابن الشاطر (1304–1375م)، أشهر فلكيِّي مدرسة مراغة. ويضيف المؤرِّخ أوتو نيبور إلى المفكِّرين المسلمين الذين أثّرت أعمالهم على المعرفة الفلكية في أوروبا عدداً من علماء القرنين الثالث عشر والرابع عشر، من بينهم نصير الدين الطوسي (1201–1274م)، ومؤيِّد الدين العرضي (1200–1266م) الذي حقَّقَ كتابه (رسالة الهيئة) نقلات مُهِمَّة في التصوُّرات الفلكية. وبغضّ النظر عمَّا إذا كان كوبرنيكُس قد قرأ مخطوط ابن الشاطر أم لا، فقد جاءت مساهمته بعد مساهمة ابن الشاطر التي ضبطت دراسة حركة الكواكب على أساس وحدة محور حركتها. وُلِدت نظرية كوبرنيكُس بعد ما يقارب مئتي سنة من انتشار نظرية ابن الشاطر بين علماء الفلك. على هذا الأساس، فإن كان ما

قام به كوبرنيكُس يتضمَّن ثورة، فهو كذلك بالنسبة إلى مجتمعات غرب أوروبا وحدها، ورغم أهميته بالنسبة إلى بقيَّة العالم أيضاً إلَّا أنَّه لا يكتسب دلالة اكتشاف أو حدث ثوري. خاصة بالنسبة إلى مجتمعات شرق وجنوب المتوسِّط التي وُجدت فيها مساهمات ابن الشاطر والعرضي والطوسي.

الشيء الذي يؤكِّد تبايُن طرق تلقِّي إنجاز كوبرنيكُس بحسب تبايُن المجتمعات وأوضاع المعرفة العالمية، أنَّه بينما لم تُثِر آراء ابن الشاطر حساسية لدى المسلمين، كان ردُّ فعل الكنيسة في أوروبا عنيفاً على نظرية كوبرنيكس، فقد ترتَّب عليها حرق عدد من العلماء، وسُجِن آخرون، وجُرِّدَ البعض من أملاكهم. وبناءً على عقيدتها المسيحوية اعتبرت الكنيسة أن كوكب الأرض يجب أن يكون في مركز الكون؛ بما أن الإنسان يعيش فيه[18]. ولم يقبل كثير من علماء أوروبا نظرية مركزية الشمس في أوروبا حتى سنة 1741م، وهي السنة التي رُفِع فيها الحظر عن طبع أعمال غاليليو. أي بعد ما يقارب مئتي عام من قول كوبرنيكس بنظريته، وبعد خمسمئة عام، تقريباً، من قول ابن الشاطر بالمقدمات التي قادت إليها. وهذا يعني أنَّه لا يمكن ادعاء أن أوروبا الغربية عاشت ثورة علمية، لا في عهد كوبرنيكس ولا حتى بعده بقرنين، لأن استمرار ممارسات قمع المعرفة العِلميَّة حتى القرن الثامن عشر يجعل من المستحيل وصف القرن الذي سبقه بأنَّه شهد ثورة علمية، فالثورة تحوُّل يمس المجتمع المعني بالعلم، وليست هي هذه النظرية أو تلك.

بالإضافة إلى ما سبق، يكشف النظر في تقنيات توصيف الحِقب لدى مؤرِّخي الثورة العِلميَّة عن حقائق تؤكِّد طابعها المصطنع، فهم يردُّون ظهورها

18 في أوروبا العصور الوسطى تمتّع كوكب الأرض بمكانة مركزية في الكون لوجود الإنسان فيه. أمَّا في الحضارات الأخرى، وحتى تلك التي اعتقدت بمركزية الأرض في النظام الشمسي، كما هو الحال في حضارة شرق وجنوب المتوسط، لم تكسب الفكرة أهمِّية كبيرة ولم يكن لمركزية الشمس دلالة مُهِمَّة في تصورها الكوني. وقد ظل الأمر إشكالياً بالنسبة إلى الكنيسة في أوروبا فقط.

إلى استعادة الأوروبيين لعلوم الإغريق في عصر النهضة، لكن خلال الفترة البالغة ألفين من السنوات، التي تفصل القرن الرابع قبل الميلاد الذي نضج فيه الفكر الإغريقي عن القرن السادس عشر الميلادي الذي صعدت فيه أوروبا، حدثت في الشرق تحولات هائلة في المعرفة هُضِمت فيها العلوم والمعارف الإغريقية والفارسية والهندية والصينية، ورُبطت بالعلوم العربية. فالنصوص التي نقلها علماء القسطنطينية إلى أوروربا بعد سقوط المدينة في يد الأتراك العثمانيين؛ كانت في الحقيقة قد قرئت قبل ذلك في أوروبا مشروحة ومفسَّرة بفكرٍ أُنتِج في الشرق. ففي تلك الفترة كانت معارف حضارة شرق وجنوب المتوسط قد تجاوزت علوم الإغريق التي كانت قد مضى عليها عشرون قرناً، وصارت ذات قيمة مدرسية وتاريخية فقط، كما هو حالها اليوم[19].

تقودنا الملاحظة السابقة إلى التساؤل عن حاجة المؤرِّخين الأوروبيين إلى ابتكار فكرة الثورة العلمية. وللإجابة على هذا السؤال يلزمنا النظر في الأوضاع الملموسة للمعرفة العِلميَّة في أوروبا إبان القرن السابع عشر. إنَّ الصور التي ينتجها المؤرِّخون للحقب التاريخية، مثلها مثل الصور الفوتوغرافية لمشهدٍ ما، تكتسب قوتها من علاقة المقدِّمة بالخلفية التي تُرى عليها، فالعصور تُفهَم في ضوء العلاقة التي يقيمها المؤرِّخون بين الأحداث التي تُوضع في مقدمة الرواية وتلك التي تُزاح إلى خلفيتها. إنَّ نصوص المؤرِّخين الغربيين التي ترسم صورة بداية العصر الحديث تدفع بأحداث تتضمَّن نظريات علمية لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة إلى مقدِّمة المشهد وتُسقِط عليها ضوءاً ساطعاً، وبالمقابل تزيح إلى الخلفية المظلمة الأوضاع المتردِّية التي سادت أوروبا بسبب معاداة التفكير العقلي. إنَّ القيام بعملية معاكسة، تلقي الضوء على خلفية الصورة التي رسمها

19 أوضح جورج صليبا أن علماء القسطنطينية قبل أن ينتقلوا إلى أوروبا الغربية كانوا قد تأثروا في العصور الوسطى بالعلوم التي طوَّرها المسلمون، الذين كانت مدنهم تُعدُّ مراكز للمعرفة العالمية. انظر:
Saliba, George; *Islamic Science and the Making of European Renaissance,* (Cambridge, Massachusetts: The MIT Press, 2007). P. 194-195.

المؤرِّخون الغربيون للفترة التي تُنسَب إليها الثورة العلمية؛ ستدفع إلى الأمام بصورة الواقع المتأخر الذي يناقض الرواية الأوروبية.

ينسب مؤرِّخو الثورة العِلميَّة معاداة العلم في أوروبا إلى رجال الدين فقط، لكن الأمر لم يكن كذلك، فعداء المعرفة العِلميَّة في أوروبا تبنَّاه أيضاً المفكِّرون والمصلحون الذين يصوِّرهم المؤرِّخون مدافعين عن الحرية والتسامح الفكري. إنَّ رجالاً مثل مارتن لوثر وجون كالفن وفرانسيس بيكون الذين يُشاع أنهم كانوا من رموز الإصلاح والنهضة، شاركوا في تأجيج العداء للعلم وقمع الفكر. إنَّ التمسُّك بفكرة الثورة العِلميَّة والاحتفاء بها في وقتنا الحاضر، يجد تفسيره في حقيقة أن التضاد الحاد بين أوضاع قمع المعرفة في أوروبا وتطوُّرها المحدود، هو الذي يجعل لحظات ظهور تلك النظريات في أوروبا تبدو مضيئة جداً بفضل ظُلمة الخلفيَّة التي رُسِمت عليها، وليس لأنها كانت بالفعل نقلة ثورية في تاريخ المعرفة العِلميَّة. وإن كان كوبرنيكس لم يخضع للتعذيب والحرق، فهذا لأنَّه نجا بموته قبيل نشر كتابه الذي مُنع فور صدوره بحجة تعارضه مع قرارات الكنيسة. ولقد رفض معظم علماء أوروبا، الكاثوليك منهم واللوثريين على السواء، أفكار كوبرنيكس دون أن يعتمد موقفهم على حُججٍ عقلية أو تجريبية، واعتمد فقط على تكفير صاحب النظرية. ففي سنة 1552م وفي كتاب له بعنوان "الفيزياء" استخلص عالم لوثري اسمه ميلانكتون أدلَّة على كفر كوبرنيكس، استخرجها من كتاب "دوران الأجرام السماوية". وحتى بعد موت كوبرنيكس بفترة طويلة عاد واحد من أبرز علماء الفيزياء في عصره، وهو تيكو براهي (Tycho Brahe: 1546–1601)، إلى فكرة مركزية الأرض ودوران الشمس حولها، رغم أنَّه اعتبر بقيَّة الكواكب تدور حول الشمس. وهذا يبيِّن أن نظرية كوبرنيكس لم تغيِّر نظرة العلماء بطريقة حاسمة، فلم يقبلوا بفكرة مركزية الشمس إلا مع كبلر الذي أعاد بناء النظرية بعد استفادته من آراء تيكو براهي حول المدارات البيضاوية للكواكب.

فلسفياً، اقترن رفض أفكار كوبرنيكس في أوروبا برفض كل فكرة تعطي الكون المادِّي مكانة في العلم، لأنها كانت توحي بأزلية المادة التي قال بها ابن رشد، وتلقَّاها عنه فلاسفة أوروبيون. وكان البابا قد أوقف تدريس فيزياء أرسطو التي وصلت إلى أوروبا بشرح ابن رشد، ففي سنة 1210م مُنع تدريس كتاب (الطبيعة) (Physics) وكتاب (ما وراء الطبيعة) (Metaphysics) معاً. وفي سنة 1231م منع البابا جريجوري الحادي عشر تدريس فلسفة ابن رشد وأرسطو في جامعة باريس، ليكون ممكناً الكشف عن الهراطقة الرشديين بين الأوروبيين[20]. ومنذ ذلك الوقت تعرض كل من تبنَّى أفكار أرسطو وابن رشد، خاصة في مجال الفيزياء، إلى عقوبة الموت حرقاً.

مثال ذلك ما جرى في هولندا في سنة 1512م، حين أدانت محكمة التفتيش المفكِّر هِرمان ريزويك (Hermann Ryswick) لتبنيه آراء أرسطو وابن رشد حول قِدَم المادة، فحُرِق حياً وسط كتبه. وعندها امتنع ديكارت عن نشر كتبه التي تُوحي بقبوله فكرة مركزية الشمس. أمَّا في الشرق فلم تلق فكرتا دوران الأرض حول الشمس وقِدَم المادَّة اعتراضاً يُذكر، لا عند المسلمين ولا عند غيرهم من أصحاب الديانات الشرقية طوال العصور الوسطى، رغم أن الفلاسفة والعلماء المسلمين ناقشوا الفكرتين قبل عدة قرون من ظهورهما في أوروبا. وهذا يُبيِّن أن بعض المساهمات العِلميَّة الأوروبية في القرن السادس عشر لم تكن تعني تحولاً عالمياً، ولم تكتسب دلالة إلا في سياق مناهضة قمع المعرفة في أوروبا.

حتى نهاية القرن السابع عشر، وبعد أن بدت بوادر تحوُّل أوروبا نحو التفكير العلمي بتأثير الاتصال مع الشرق، لم تنتشر روح العلم والعقلانية في غرب أوروبا لأن توجهات حجب المعرفة عن العامَّة ظلَّت تعيق انتشارها. فعقب ظهور المطبعة شاع استخدام تعبير "المعرفة السرِّيَّة" (the occult) في

20 Lewis, David Levering: *God's* ..., P. 374.

عناوين الكتب العلمية، واختلطت المعارف الغامضة بالعلوم الطبيعية. وغلبت تقاليد الحفاظ على سرِّية المعرفة وتأكيد طابعها الغامض حتى لدى من يُعدُّون روَّاداً للمنهج العلمي في تاريخ أوروبا الحديث، مثل فرانسيس بيكون الذي دافعَ عن سرِّيَّة المعرفة. وحتى بعد تأسيس الجمعية المَلكية للعلوم، قريباً من منتصف القرن السادس عشر ظل إخفاء المعرفة مهماً، فقد ألحَّ بعض اعضائها على ضرورة حجب ما لا يناسب العامة من العلوم، ومنع نشرها[21]. وهذا النوع من كهنوت العلماء يناقض قول المؤرِّخين الغربيين بأن معاداة الثورة العِلميَّة جاءت من جانب رجال الدين وحدهم.

لرسم صورة تقريبية للأوضاع المعرفية في أوروبا أثناء القرن السابع عشر، وفهمها من منظور غير متمركز حول قصة الثورة العلمية، تقدِّم الصفحات التالية لقطات مأخوذة من زوايا مختلفة لظاهرة عداء مجتمعات أوروبا للعلم. والقصد من ذلك تقديم مسح عام لمواقف فئات اجتماعية ومؤسسات معنية بممارسة العلم ونشره من الأفكار العِلميَّة الجديدة التي ظهرت بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، لتوضيح أنَّها لم تعش تحولاً في موقفها من المعرفة العِلميَّة بقدر يسمح بادعاء وجود ثورة علمية في ذلك الوقت. فالذين جُعِلوا رموزاً للثورة العلمية، أمثال كوبرنيكس وغاليليو وغيرهما، كانوا استثناءات أكثر من أنهم علامات على حدوث ثورة. وهنا أيضاً تُعكَس العلاقة التي اصطنعها المؤرِّخون الغربيون بين مقدمة وخلفية القرنين السابع عشر والثامن عشر، فيُلقَى الضوء على خلفية الصورة لتتقدَّم عناصرها إلى الأمام، وتصبح مرئية بوضوح.

في سنة 1633م أُدِين غاليليو لقوله بمركزية الشمس في الكون، وسُجن في منزله مدى الحياة وأوقِفت طباعة كتبه، ومُنِع من نشر ما سيكتبه مستقبلاً. وقد شارك في إدانته علماء فلك كانوا يتبنّون نظرية تيكو براهي التي عاد فيها بعد كوبرنيكس إلى القول بدوران الشمس حول الأرض. ومنذ سنة 1520م، التي أصدر فيها البابا ليو العاشر (Leo X) أمراً بحرق كل كتاب يُطبَع من

21 Judy A. Hayden (ed.): *Travel* ..., P. 4-5

غير موافقة الكنيسة، وحتى سنة 1718م، التي رُفع فيها بطريقة جزئية حظر الكنيسة على طبع أعمال غاليليو؛ استمرَّت ممارسة الرقابة على العلم في أوروبا الغربية. وكان الرقباء شخصيات علمية بارزة، أو من أساتذة الجامعات في بعض الأحيان. لقد استمرَّ العداء الشديد للعلم في أوروبا من العصور الوسطى إلى ما بعد فترة النهضة بأكثر من قرنين ووصل إلى عصر التنوير نفسه، وكانت تسنده شخصيَّات علمية لها اعتبارها في المؤسسات العلمية. ومن بين تلك الشخصيَّات الفيلسوف فرانسيس بيكون، الداعية الأبرز إلى تبني المنهج التجريبي في فترة ما يسمى الثورة العلمية[22].

اقترح بيكون استخدام المنهج التجريبي لفهم طبيعة الروح. ولأن للروح طبيعة غير مرئية قال بيكون إنَّها لا يمكن أن تُفحص إلا بدراسة جسد الكائن الحي، الذي هو مظهر الروح وآلتها. وتطابق منهجه هذا بطريقة دقيقة مع عمل محاكم التفتيش التي تمثَّلت مهمتها، حسب تصور الكنيسة، في فحص الروح بمراقبة تجلِّياتها في أفعال الجسد. إنَّ تطابُق مفهوم بيكون للاستقصاء العلمي مع التصوُّر الكنسي لمراقبة العقيدة، باتخاذهما جسد الإنسان موضوع فحص؛ هو الذي يفسِّر مشاركة بيكون في أنشطة بعض محاكم التفتيش، مثل محاكمة عالم النبات جون جيرارد (John Gerard) الذي عُذِّب بقسوة شديدة، وكان بيكون أحد أعضاء اللجنة التي استجوبته، وحمَلَ تقريرها توقيعَه[23].

22 حسب أحد الباحثين الغربيين، فإنَّ لغة بيكون التي استخدمها في نصوصه الفلسفية مطالباً بإخضاع الطبيعة للتجربة والملاحظة، كانت وثيقة الصلة بالحياة العملية التي عاشها. فقد سوَّغت له فلسفته التجريبية العمل في الوظائف المرتبطة بالمراقبة، فتولى منصب كاتب العدل في سنة 1607م، ثم منصب النائب العام في سنة 1613، وأخيراً، منصب قاضي القضاة في سنة 1618، وهو ثاني أعلى منصب في بريطانيا. ونشاطه في مجال الحدّ من حرية المعرفة ومراقبة العلماء وتقديمهم لمحاكم التفتيش التي كانت تمارس حرق وتقطيع الجسد يجد التعبير الدقيق عنه في فلسفته المرتبطة بالقوة، فهو أول من قال في نص فلسفي إنَّ "المعرفة قوة". وبوصفه من الفلاسفة الطبيعيين، رأى بيكون أن المعرفة القانونية تمثِّل الشكل الأعلى لاستقصاء الحقيقة وتصلح نموذجاً للبحث العلمي، وقد استهدفت بحوثه العِلميَّة إثبات هذه الفكرة. انظر:
Giglioni, Guido *et al*. (eds.): *Francis Bacon on Motion and Power*, (Switzerland: Springer, 2016). p. 109.

23 Gerard, John: *The Autobiography of a Hunted Priest,* (San Fransico: Ignatus Press, 1988). p. 131-132.

إن كانت ممارسات بيكون توضِّح تواطؤ رموز الفلسفة والعلم الحديث مع ممارسات قمع المعرفة وإعاقة تطوُّرها الحر، فإنَّ مواقف رموز الإصلاح الديني المضادَّة للعلم لم تكن أقل وضوحاً. وما جرى للطبيب وعالم الرياضيات الإسباني ميغويل سرفت (Michael Servetus 1511–1553)، يبيِّن أن معاداة العلم مارسها قادة الكنائس الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء. طاردت السلطات الكاثوليكية سرفت في إسبانيا بسبب أفكاره العِلميَّة والفلسفية التي تلقَّاها عن مصادر عربية مترجَمَة إلى اللغة العبرية التي كان يحسنها، وكان من أفضل الذين نقلوا المعرفة الطبيَّة العربية من إسبانيا إلى بلاد شمال أوروبا. نقل سرفت إلى باريس وفيينّا كثيراً من نتائج علم التشريح العربي، وعلى رأسها الدورة الدمويَّة الصغرى التي توصَّل إليها ابن النفيس في العام 1242م في شرحه لكتاب القانون لابن سينا. وفي سنة 1553م نشر سرفت كتاباً جمع فيه المعارف الطبيَّة التي تلقَّاها عن العلوم الأندلسيَّة، ولكن كتبه مُنعت في معظم بلاد غرب أوروبا لأنَّه أورد في كتاب له بعنوان "إعادة تأسيس المسيحيَّة" أفكاراً اعترض فيها على مبدأ التثليث، فهاجمه مارتن لوثر وأثار عليه السلطات. وعندما طُورِد في إسبانيا لجأ إلى فرنسا، لكنه أُتّهِم هناك أيضاً بالهرطقة، فهرب إلى سويسرا محاولاً نشر نصوصه العِلميَّة فيها لاعتقاده بأن البروتستانت سيتيحون له ذلك، لكنه أُتّهِم هناك أيضاً بالهرطقة، وقدّم جون كالفن أدلة ضده فصدر حُكم بإعدامه. قُبض على سرفت في جنيف وسُجن فيها إلى أن صدرَ حكمٌ بحرقه حياً، وفي يوم 27 اكتوبر سنة 1553م جُمِعت كل كتب ذلك العالِم في كومة كبيرة ورُبط فوقها إلى عمود وأُضرِمت فيها النار، فمات حرقاً[24].

24 نتيجة لذلك العمل الذي سانده جون كالفن ظل الأوروبيون يجهلون نتائج أبحاث سرفت لفترة أربعة قرون بعده، إلى أن أظهر وليم هارفي بحوثه في الدورة الدموية. للاطلاع على قصَّة سرفت كاملة، انظر:
Bainton, Roland H.; *Hunted Hertic: The life and Death of Michael Servetus, 1511-1553,* (Blackstone & UUHS, 2011).

تؤكِّد مشاركة لوثر وكالفن في مأساة حرق سرفت أن ما يُنسب إلى قادة الإصلاح الديني من تبني أفكار التسامح والحرية، ليس صحيحاً إلا في حدود ضيقة تُفهم ضِمن الأوضاع المحلية لأمم أوروبا الغربية. فدعوتهم للتسامح اقتصرت على المطالبة بالحدِّ من تسلُّط الكنيسة الكاثوليكية على أتباع المذاهب الأخرى، ولم تكن معنية بتحرير العقل أومقاومة احتكار المعرفة، كما يُقال.

تواصلت مطاردة البروتستانت للعلماء حتى فترة نهاية القرن السابع عشر، التي يُنسب إليها ظهور الفلسفة الحديثة. ففي سنة 1619م شهدت مدينة تولوز بفرنسا تعذيب الفيلسوف الإيطالي لوشيليو فانيني (Lucilio Vanini) حتى الموت، لأنَّه كان مهتمَّاً بأفكار أرسطو وابن رشد، واتُّهِم بالإلحاد وطُورِد في معظم بلاد أوروبا الغربية، وعندما وصل إنجلترا طارده البروتستانت أيضاً بقيادة جورج أبوت (George Abott 1562– 1633) رئيس جامعة ترنتي الذي كان من أتباع جون كالفن، فهرب إلى فرنسا لكنه قُبض عليه هناك، وحُكم عليه بالإعدام في مطلع سنة 1619م. وفي التاسع من فبراير رُفِع على منصة التعذيب وقُطِع لسانه ثم خُنق حتى الموت وأُشعِلت النار في جسده. قُتِل هذا الفيلسوف بتلك الطريقة قريباً من الفترة التي كان فيها ديكارت يكتب في هولندا كتابه (مقال في المنهج)، الذي يعدّه الأوروبيون علامة فارقة في تاريخ الفلسفة، ويدرجه المؤرِّخون الغربيون في سياق الثورة العِلميَّة نفسها.

لماذا إذاً يركِّز المؤرِّخون على ظهور كتاب فيلسوف مثل ديكارت ويُزاح حرق فيلسوف مثل فانيني وقد وقع الحدثان في الفترة نفسها؟ إنَّ آليات الانتقاء لدى المؤرِّخين الغربيين، التي أُعدَّت مسبقاً لاصطناع ثورة علمية، هي الفيصل هنا. وليست المحاولات التي يقوم بها مؤرِّخو بلاد شمال غرب أوروبا لنسبة التشدُّد الديني إلى دول جنوب غرب أوروبا الكاثوليكية، وهي إسبانيا والبرتغال، إلا محاولة لإزاحة تاريخ العنف عن أمم بلاد شمال أوروبا البروتستانتية وإلحاقه

ببلاد الجنوب الكاثوليكية. على مدى القرن السادس عشر عمَّت ممارسات قمع العلم معظم البلاد الأوروبية، ومارسته كل المذاهب الدينية. واستمر حرق الكتب في بريطانيا حتى بدايات عصر التنوير، ففي سنة 1660م حُرِقت كتب جون ميلتون أمام المكتبة البودليانية، وفي سنة 1683م حرَقت جامعة أُكسفوررد كل نسخ كتاب توماس هوبز (لفياثان)[25]. ولو لم يتقّ هوبز ضلال عقلية مجتمعه العلمي آنذاك بتدابير حكيمة لما نجا من تهمة الهرطقة التي أوشكت أن تقوده إلى مصير من سبقوه[26]. حُرِقت تلك الكتب بعد الفترة التي تُنسَب إليها الثورة العلمية بأكثر من مئة سنة، وفي مستهلِّ عصر التنوير، في الفترة نفسها التي بدأ فيها جون لوك ينشر نصوصه، بل إنَّ إيمانويل كانط خشي أن ينشر كتابه (الدين في حدود مجرَّد العقل) في القرن الثامن عشر وفي قمَّة ما يوصف بأنَّه عصر العقلانية والتنوير. فالواقع أن الظلام خيَّم طويلاً على أوروبا بخلاف أوهام تنوُّرِها وشيوع المعرفة وحرية الفكر.

هذه هي صورة الواقع الذي ساد فترة ما يسمى "الثورة العلمية" وما بعدها، وهي صورة لا يسمح لها خطاب التاريخ الغربي المعاصر بأن تظهر للعيان لأن ظهورها ينقض ما يقول المؤرِّخون إنَّه تحوُّل جذري شهدته المعرفة الأوروبية في القرن السابع عشر، وبالتالي يدحض أسطورة تفوُّق الأمم الأوروبية على الشعوب الأخرى، التي تؤسِّس لغزو العالم بمبرِّر نشر الحضارة والعلم.

أن يصطنع المؤرِّخون الأوروبيون من أربعة كتب ثورة علمية يتَّخذونها حدّاً فاصلاً بين تاريخ العالم الوسيط وتاريخه الحديث، أمرٌ لا يمكن أن يُفهَم إلّا على خلفية خصوصية أوضاع أوروبا التي عاشت شعوبها قمعاً نظامياً غير

25 Jones, Derek (ed.); *Censorship: A world Encyclopedia, Vol.1-4,* (New York: Routledge, 2001). P. 265.

26 في دراسته للطرق المختلفة التي تمّ بها تلقِّي كتاب لفياثان في إنجلترا، وصفَ كاتبٌ دفاعات هوبز عن نفسه ليتجنّب تهمة الإلحاد التي وُجِّهت له بأنها كانت "تقنيات دفاع درامية" نحجت في حمايته من العقاب. انظر:
Parkin, Jon: Hobbes and the Reception of "Leviathan", *Journal of the History of Ideas* , vol. 76, no. 2 (April 2015), 289- 300. pp 297-299.

مسبوق. وهذا التصوُّر الفريد لطريقة تحقيب التاريخ يحفِّزه تنازع الأمم الأوروبية على الفوز بمكانة متقدِّمة في التاريخ العالمي في فترة القرن التاسع عشر، التي صيغت فيها قصَّة العصر الحديث.

ساق هذا الفصل اعتراضين على فكرة حدوث ثورة علمية في أوروبا استهلَّت العصر الحديث: أولها اعتراض مفهومي، أوضح عدم تماسك عناصر فكرة الثورة العِلميَّة من حيث إنَّ مفاهيم الثورة والعلم والحقيقة هي مما لا يمكن الإجماع على تعريفه، أو وصفه، منفصلاً عن السياقات التي تشكَّل فيها. وثانيها اعتراض تاريخي على القول بوجود أحداث تستحق أن تُوصف بأنها تحولات جذريَّة شهدتها أوروبا في طرق إنتاج المعرفة العِلميَّة في تلك الفترة، وهو اعتراض دليله استمرار تقاليد حجب المعرفة في أوروبا، وتجذُّر معاداة العلم فيها. ومن ذلك توصَّل الفصل إلى أن تدبير المؤرِّخين لقصة ثورة علمِيَّة يكشف عن الدور المؤثِّر لتقنيات اصطناع الحقيقة في الخطاب التاريخي الأوروبي، فهي تجمع بين وقائع لا توجد صلة واضحة بينها، لا من جهة طبيعتها ولا من جهة زمان ومكان حدوثها. كما خلص إلى أن الأحداث العِلميَّة التي جرت في غرب أوروبا تُعدُّ تحولات مُهِمَّة لأنها ارتبطت بأوضاع معاداة العلم التي استمرّت في أوروبا إلى وقت قريب من بداية القرن الثامن عشر، فاتَّخذت دلالة الثورة لأنها فقط تحدَّت السلطات الدينية والسياسية والأكاديمية التي قيَّدت حرِّية العلم والفكر. وبالتالي، فهي تمثِّل تحولاً مُهمَّاً بمؤشِّر التواريخ المحليَّة لمجتمعات أوروبا، ولا دلالة لها في التاريخ العالمي.

القسم الثالث

العصر الحديث البعيد (المبكِّر)
القرنان السادس عشر والخامس عشر

الثورة الدينيَّة: إصلاحٌ، لا ثورة

يغطِّي عصر الإصلاح الديني فترة زمنيَّة واسعة تجمع اتِّجاهات فكرية مختلفة، برزت في بلاد شمال غرب أوروبا في سياق تاريخي- اجتماعي امتدَّ بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر. شمل ذلك العصر مجموعة حركات طالبت بإصلاح النظام الكنسي، وخاصة تقييد السلطة البابوية (Papacy) في روما وتخليص المسيحيَّة من النظام الكهنوتي واحتكار تفسير الإنجيل. ويضم بعض المؤرِّخين إلى عصر الإصلاح ردّ فعل الكنيسة الكاثوليكية الذي شكَّل حركة مضادة للإصلاح (counter-reformation). نتج عن ذلك الحراك نشر الإنجيل بين عامة المسيحيين في أوروبا فكُتب باللغات القومية (vernaculars)، بعد أن كان يُكتب ويُشرح باللاتينية التي لم يتقنها معظم الأوروبيين.

يُقصَد بالإصلاح الديني في معناه الضيِّق الفترة الممتدَّة من سنة 1517م التي طالب فيها الألماني مارتن لوثر بإصلاح نظام الكنيسة وحتى سنة 1555م التي لقيت فيها مطالبه اعترافاً قانونيَّاً عندما وُقِّعت اتفاقية أغوسبرغ للسلام. هذه الفترة التي تقارب الأربعين سنة هي التي تمثِّل حقبة ما يُعرَف بالإصلاح اللوثري، الذي أنتج كنيسة جديدة في ألمانيا والبلاد الاسكندنافية وانتشر بعدها، بدرجات متفاوتة، عبر نشاط المذهب البروتستانتي في جميع بلاد أوروبا. أمَّا في معناه العام، فإنَّ عصر الإصلاح يشمل مجموعة الحركات الدينيَّة التي انتشرت في بلاد شمال غرب أوروبا في الفترة التي تدور حول منتصف القرن السادس عشر. ويوجد شبه إجماع بين المؤرِّخين على الفترة الأساسية للحركات الإصلاحية ومضمونها، وهذا يشكِّل فرقاً أساسياً بين ما نتج عن هذا التحول

في مجتمعات أوروبا الغربية وما يُنسب إلى بقيَّة الثورات من تحولات غير محدَّدة الزمان والمكان والمحتوى. لكن، هل يشكِّل هذا الذي جرى على مدى زمني طويل يمتد ما بين أربعين سنة ومئة سنة تحولاً يُمكن وصفه بأنَّه ثورة؟ هذا هو السؤال الذي يبحثه هذا الفصل ناظراً في طبيعة ذلك التحوُّل ونتائجه داخل أوروبا، ودلالته خارجها.

إنَّ مجموعة الحركات التي نشطت آنذاك لم تُوصف في نصوص الفترة التي ظهرت فيها بأنها كانت ترمي إلى تحقيق تغيُّرات جذرية أو ثورية، ولا يوجد في نصوص أصحابها ما يسمح بالنظر إليها بهذه الطريقة، لأنها كلها كانت تصف نفسها بأنها ذات أهداف إصلاحية. وكل فعل إصلاحي هدفه صون الكيان أو النظام القائم، مع تعديل بعض جوانبه التي يُعتقَد أنَّها سالبة. وهذا يعني أنَّ ما جرى لم يكن يستهدف تحقيق تحوُّل جذري في نظام الكنيسة يشكِّل ثورة فعلية، وإنما كان يستهدف تعديلاً لا يمسّ جوهر النظام. هذا من حيث وعي الذوات الفاعلة، أمَّا من حيث المآلات الفعلية فربما يكون تغيير الأوضاع قد إنتهى إلى تحوُّل جذري يمكن وصفه بأنَّه ثوري، وهذا ما يتطلَّب التوجُّه إلى فحص الوقائع، حسبما وُصِفت في الخطاب التاريخي الذي صِيغ حول ذلك التحوُّل.

في معظم النصوص الغربية التي تُعدُّ مصادر رئيسية للمعلومات يُوصف الإصلاح الديني بأنَّه ثورة. جاء في الموسوعة البريطانية: "عصر الإصلاح، ويُسمى أيضاً الإصلاح اللوثري، هو الثورة الدينية التي جرت في الكنيسة الغربية في القرن السادس عشر وأدى إلى ميلاد البروتسانتية"[1]. ويرد تعريف الثورة في الموسوعة نفسها كما يلي:

---

1 Encyclopedia Britanica: Refoermation, published: May 15, 2020.
https://www.britannica.com/event/Reformation
شوهد في 12/26/ 2020

"الثورة في العلوم الاجتماعية والسياسية هي تغير أساسي ومفاجئ وعنيف في نظام الحُكم والمؤسسات والبنى ذات الصلة، ويُستخدم اللفظ أيضاً بالقياس، كما في تعبير الثورة الصناعية، حيث يشير إلى تغيُّرٍ جذري ورئيسي ..."[2].

تسمِّي الموسوعة ما جرى "إصلاحاً" وفي الوقت ذاته تصفه بأنَّه "ثورة" مع عدم توافق المصطلحين، حسب تعريفها للثورة. من حيث نتائج الحراك لم يحدث إصلاح لأن الكنيسة الكاثوليكية ظلت كما هي، وكل ما حدث هو أنَّ دعاة الإصلاح كُفِّروا وطُرِدوا من الكنيسة، فقاموا بإنشاء طائفة أخرى لها كنيسة لا يمكن وصفها بأنها "أُصلِحت" لأنها كيانٌ جديد لا يمكن اعتباره امتداداً للكنيسة الكاثوليكية. وبالتالي فإنَّ اضطراب لغة الوصف لا يقف عند حد التناقض بين لفظَي الثورة والإصلاح، لأن لفظ الإصلاح لا يصف ما جرى إلا إذا فُهم بطريقة غير مباشرة. إنَّ التباس اللغة يكشف عن الطابع المضطرب للفكرة[3].

لا يختلف عصر الإصلاح عن غيره من حقب التاريخ الأوروبي الحديث من جهة أنَّه لقيَ تفاسير مختلفة وتوصيفات متباينة. فمن المؤرِّخين من يقصره على الحراك الذي شهدته مؤسسة الكنيسة والفكر الديني، ومنهم من يراه متَّصلاً بلحظات أخرى من عصور التحولات الأوروبية التي أنتجت العصر الحديث. فالفيلسوف والمؤرِّخ البريطاني برتراند رسِل يرى أنَّ الإصلاح البروتستانتي هو الذي أنجب العقلانية، التي امتدَّت بدورها لتنجب عصر التنوير. وهذا

2 Encyclopedia Britanica: Revolution, published: February 24, 2020. https://www.britannica.com/event/Revolution

شوهد في 12/26 /2020

3 كان هيغل أول من ربط الإصلاح بالثورة عندما كتب في الموسوعة الفلسفية "لا ثورة بلا إصلاح" مستخلصاً من ذلك أنَّ عصر الإصلاح كان السلف المباشر للثورة الفرنسية. انظر:

Kingdon, Robert M.: 'Was the protestant reformation a revolution? The case of Geneva', in Robert M. Kingdon (ed) *Transition and Revolution: Problems and Issues of European Renaissance and Reformation History* (Minneapolis, Minnesota: Burgess Publishing Company, 1974).

التوصيف لا يقف عند حدِّ اعطاء التنوير أصل جرماني فقط وإنما يجعله حركة عقلانيَّة ترتبط بوضع حدود للدين. ودعمَ برتراند رسِل رأيه هذا بإشارته إلى التشابه بين التوجُّه البروتسانتي للانعتاق من سيطرة الكنيسة الكاثوليكية والتوجُّه الديموقراطي للتحرُّر من سيطرة الحُكم المَلكي. هذا النوع من التعريف للحقب التاريخية يوضِّح أنَّ المعرفة التاريخية وثيقة الصلة بالمذاهب الفلسفية والمواقف الأيديولوجية، وأنها تُصاغ ضِمن انشغال المفكِّرين بقضايا عصرهم وتصدِّيهم لمشكلات مجتمعاتهم المحليَّة. ولهذا فإنَّ فهم الكيفيَّة التي صِيغ بها الخطاب التاريخي يقتضي ربطه بالسياقات التاريخية التي تطوَّر فيها، والإلمام بالأوضاع المحلية للبلاد التي عاشت الإصلاح. وتعدُّ معرفة الأوضاع التي أدَّت إلى بروز الكنيسة الكاثوليكية كمؤسسة ذات سلطة دينية واجتماعية وسياسية الشرط الأساسي لفهم ظهور الحركات الإصلاحية، ولذا يلزمنا أن نتعرَّض لها باختصار.

منذ تأسيسها، ثبَّتت الكنيسة الكاثوليكية فكرة أنَّ النظام البابوي جزء من العقيدة المسيحية، باعتباره الامتداد الطبيعي لمكانة القديس بيتر التي تلقّاها من المسيح مباشرة، وجعل البابا وريثه على الأرض من حيث مسؤولية التبشير بالمسيحية ورعاية شؤونها. ولأن البابا اكتسب بهذه الطريقة سلطة مستمدَّة من السماء بوساطة سلطة المسيح؛ أصبح هو أيضاً صاحب مكانة مقدَّسة. وبما أنَّ الكنيسة اكتسبت سلطة سماوية، كان ضرورياً للمؤسسة البابوية أن تتجلَّى في صورة قوانين ملزِمة. فكانت التشريعات المسمَّاة (Canon Law) هي التعبير عن ذلك، وهي قوانين دينية تضبط حياة الفرد والمجتمع، صاغتها وطوَّرتها جامعة بولونيا الإيطالية في القرن الثاني عشر وما بعده. وقد ظلَّت البابوية طوال العصور الوسطى تمثِّل الامبراطورية الكبرى التي تحكُم دول أوروبا الغربية من خلف الستار. وعبَّر توما الأكويني عن ذلك بقوله "إنَّ الخضوع لسلطة روما مُلزِم لجميع البشر" وكان يقصد بذلك أنَّها فوق سلطة الملوك أنفسهم، لأنَّه كان

بوسع البابا تجريدهم من سلطتهم إذا ثبتت عليهم تهمة الهرطقة[4]. وتجلَّت سلطة البابا على الملوك في الحملات الصليبية (the Crusades)، التي هي اسم جامع للأنشطة القتالية التي دعت إليها وحفَّزتها الكنيسة في القرون الوسطى لصون مكانتها بقمع خصومها. وقد تبعتها أنشطة مختلفة في تلك الفترة، مثل تأسيس محاكم التفتيش وإرسال حملات قطع طرق التجارة البحرية العالمية، واحتلال البلاد غير الأوروبية. وتسبَّب هذا النوع من التمكين الشامل في أن تستبد روما بالسلطة الدينية، فتدخَّل البابا في كل جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية. وكان الملوك يأتمرون بأوامره وينتهون بنواهيه وينوبون عنه في بلادهم، وبالتالي كانوا يتدخَّلون في أنشطة تلك المجالات ليقتسموا عائداتها مع الكنيسة في روما.

في المجال الاقتصادي توسَّعت ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية عبر سياسات وضع اليد على الأراضي الواسعة ونزعها من مُلَّاكِها بحُجج دينية، كان من بينها تُهم تتمثَّل عقوبتها في مصادرة الأملاك. ومع ظهور دعوات الإصلاح دخلت الكنيسة مجال تجارة الأرض لتستخدمها ضد الإقطاعيين والأمراء الإصلاحين فكانت ترفع أسعار أراضيها ليزداد سعر الشراء في الأسواق وبذلك تمنع أن يتوسَّع مناهضوها في شراء الأرض لبناء الكنائس والأديرة، التي تحتاج أيضاً إلى الحقول لتوفير الغذاء للعاملين فيها[5]. ونتج عن هذا التوسُّع في الكسب المادِّي أن فتحت البابوية المجال أمام رجال الدين للثورة عليها بسبب فساد كثير من ممارساتها، مثل ادعائها حق غفران الخطايا الذي اعتمد على فكرة توسُّط الكنيسة لتحقيق الخلاص لرعاياها في الحياة الآخِرة.

---

4 Lindsay Thomas M.: *A History of the Reformation, Vol. 1: The Reformation in Germany From its Beginning to the Religious Peace of Augsburg*, (Edinburg: T & t Clark, 1906). P. 4.

5 حول دور اقتصاد الأرض في تمكين الكنيسة الكاثوليكية مقابل الكنيسة البرتستانتية، أنظر:
Ekelund Jr., Robert B. *et al*.: An Economic Analysis of the Protestant Reformation, *Journal of Political Economy*, vol. 110 no. 3, (2002), 646- 671.

تطوَّر ذلك الحق إلى إصدار ما سُمِّي صكوك الغفران، وهي وثائق قانونية تتضمَّن إقراراً بابوياً بحصول مشتريها على المغفرة ونجاته من عذاب الآخرة، فقد ساد العصور الوسطى اعتقاد بأن توسُّط رجال الكنيسة بين المسيحي والرب لازم للحصول على الخلاص لأن عمله وحده لا يكفي لنيل القبول عند الرب، وأن البابا الذي هو مصدر قدسيَّة رجال الكنيسة يؤدِّي دور الوسيط في تحقيق الخلاص للبشر. ورغم أنَّ محاولات التخلُّص من تلك الممارسات بدأت بعقد المجامع التي كانت تسعى لإصلاح الكنيسة الكاثوليكيَّة من داخل نظام روما نفسه؛ إلا أنَّ البابوية كانت تسيطر على تلك المحاولات وتمنع المساس بسلطتها وتعديل الأوضاع. ولقد وصف دونالد كيلي هذه الظروف التي أدَّت إلى انفجار الحراك الإصلاحي بأنها كانت "البيضة التي احتضنها لوثر"[6].

وُلِد مارتن لوثر في سنة 1483م بألمانيا، وحفظ بذاكرة حيَّة تجربة أسرته التي عانت صعوبات الحياة البسيطة. درسَ لوثر القانون وشيئاً من الفلسفة، وبعدها أصبح راهباً يمارس التأمل فتوصَّل إلى أفكار خاصة به حول العقيدة. اعتقد لوثر أنَّ بوسع الإنسان، بناءً على وعد الربِّ له بتخليصه، أن يعتمد على علاقته المباشرة بالرب لنيل الخلاص. رأى لوثر أنَّ ظهور المسيح على الأرض يعني أنَّه يرافق البشر في رحلة خلاصهم، وأن معنى ذلك الظهور يتحقَّق في التبعيَّة الروحية له، لا التبعيَّة الجسدية.

بينما كان لوثر يطوِّر تأمُّلاته التي تشدِّد على الصدق الداخلي، أصدر البابا ليو العاشر صكوك غفران بِيعت في صورة مكاتيب سُمِّيت "الخطابات البابوية"، بدعوى أنَّ مزاراً للقديس بيتر سيُبنى بالدخل الناتج عنها. وكانت تلك الضمانات أو الصكوك تُباع وفق طقوس معيَّنة في ما يشبه مزاد يديره باعة موكَّلون من طرف البابا. وكانت المدن الأوروبية تتلقَّاهم بحفاوة بالغة، فتُقرع

6 دونالد ر. كيلي: **بدء الآيديولوجية في الغرب: دراسة في الوعي والاجتماع**، ترجمة محمد جعفر داود (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1990). ص 33.

الأجراس ويؤدِّي رجال الكنيسة الترانيم الدينية في مقدِّمة المواكب، ثم يصعد رسول البابا المنصَّة معلناً: "لقد فُتِحت أبواب الجنة"، ويبدأ البيع[7]. كانت حادثة صكوك مزار القديس بيتر بداية إظهار لوثر معارضته للبابوية، لأنَّه عدَّ ذلك سلوكاً غير أخلاقي وأصدر بياناً سُمِّي "الخمس وتسعون أطروحة"، عُلِّقت على باب الكنيسة. ورغم أنَّ تلك الأطروحات صِيغت بلغة أكاديمية إلا أنَّها كانت تعبِّر عن مطالب هدفها تخليص العقيدة من سلطة الكهنة وفتحها على الحياة العامة.

تضمَّنت أطروحات لوثر التوضيحات التالية، التي شكّلت صكوك الغفران موضوعها الأساسي: إنَّ الصكوك تزيل العقوبات التي تقرِّرها الكنيسة على المخطئ، أمَّا العقوبات التي قرَّرها الرب فلا يستطيع البابا محوها. وإنَّ الصكوك لا تجدي لمحو خطايا الذين رحلوا عن الدنيا وتمحو خطايا الأحياء وحدهم. وإنَّ التوبة تعفي من الحاجة إلى غفران الكنيسة لأن المسيح أمر بها، والرب يقبلها من المسيحي مباشرة. وفي أطروحاته تلك أنكر لوثر قُدسيَّة كل ما صدر من تشريعات حول الغفران الكنسي، منذ القرن الثالث عشر.

نتج عن هذه الاعتراضات أنَّ معارضي لوثر اعتبروه مُنكِراً لقدسيَّة البابا، لأن حقَّه في الغفران يصدر عن تمتُّعه بصفة القداسة. أمَّا من حيث العقيدة، فقد شدَّد لوثر على أنَّ الاعتقاد في المسيح هو الطريق إلى النجاة، وأن الأعمال وحدها ليست سبيل خلاص. وعقب أصدار أطروحاته مباشرة طُرِد لوثر من الكنيسة وأصدر البابا قراراً بتكفيره، ومن جانبه ردّ لوثر على البابا بالمثل، وحرقَ أتباعه قرار التكفير. وفي سياق إصدار قرارات التكفير المتبادَلة طُبعت مناشير تشرح أفكار اللوثريين خاطبوا بها رجال الدين وعامة الشعب، ومنذ تلك اللحظة برز دور الدعاية في تغيير الأفكار. ولعبت المطبعة دوراً بالغ التأثير في نشر أفكار لوثر من خلال المنشورات (pamphlets) التي جرى تداولها

7 Lindsay Thomas M.: *A History* ..., p. 215

في ألمانيا والبلاد القريبة باللغات القومية، فشاع استخدامها بدلاً من اللاتينية التي كانت لغة الكنيسة. وفيما بعد سيرفع هذا من شأن اللغات المحلية للبلاد الأوروبية ويُحدِث تحولاً في أوضاع ثقافاتها.

تبع رد فعل البابا على نشاط لوثر عدد من الإجراءات التي اتَّخذتها روما في سنة 1530م، سُميِّت "الحركة المضادَّة للإصلاح"، وتضمَّنت إصلاحات محدودة لنظام الكنيسة الكاثوليكية، وكان أهمّ ما فيها السعي للقضاء المبرَم على الحركة الإصلاحيَّة. وفي سنة 1545م أيَّد مجمع ترنت تلك الإجراءات، فأعقبته سلسلة حروب شنها الملوك على جماعات الإصلاح باسم البابا. وقد شكَّل مفهوم نيابة البابا عن المسيح، ومفهوم العصمة البابويَّة، أساس الأيديولوجيا المسيحويَّة التي جعلت اضطهاد الإصلاحيين شرعيَّاً من الناحيتين الدينية والقانونية. وكان هذان المفهومان قد شكَّلا أساس منظومة القرارات التي جعلت المشروع الأوروبي لغزو العالم واضطهاد شعوبه ممكناً؛ لأن البابا أنابَ الملوك في قمع الإصلاحيين بدعوى حماية المسيحية، مثلما أنابهم في غزو البلاد غير الأوروبية بدعوى نشر المسيحيَّة. وقد تلقَّى الملوك تلك التفويضات بحفاوة تامة لطبيعتها المقدَّسة التي تزوِّدهم بسلطة لا مجال للاعتراض عليها. فجاء في مرسومين ملكيَّين أصدرهما ملك إسبانيا تشارلس الخامس بتاريخ 20 نوفمبر 1542م و 4 يونيو 1543م: "إنَّ من حق البابا أن يختار من يعطيه حقّ نشر المسيحية"، وأن يوزِّع البلاد على ملوك أوروبا ليخدموا هذه المَهمَّة[8].

في هذه الظروف وضع بعض رجال الإصلاح أنفسهم تحت حماية الملوك للاحتماء بهم من سطوة الكنيسة، مثل الهولندي ديزدِريوس إرازموس (Desiderius Erasmus Roterodamus1466-1536) الذي أهدى شروحه التي وضعها للإنجيل إلى ثلاثة ملوك هم: هنري الثامن وتشارلس الخامس وفرانسيس الأول، ليجنِّب نفسه تهمة إشعال التمرُّد على السلطات الدينية

8 Marder, William; *Indians in the Americas: The Untold Story,* (San Diego: The book Tree, 2005). p. 61.

والدنيوية، وقال إنَّه يهدف إلى تجديد الدين وتخليصه من الفهم القديم. من ناحية أخرى، رفض إرازموس موقف لوثر الذي يميل إلى منح العناية الإلهيَّة بالبشر دوراً كبيراً، كما ساند حق الكنيسة في تفسير الإنجيل، بعكس لوثر.

من هنا يتَّضح أنَّ جهود الإصلاحيين لم تشكِّل حركة متَّسقة، وتضمَّنت تنوُّعاً في الآراء تفاوتت في مقدار نقدها للكنيسة. ولأن إرازموس تبنَّى موقفاً ناقداً للسلطة الدينية ولم يستهدف نقد حُكم الملوك؛ لا يمكن القول بوجود تماثل بين الإصلاح الديني والديموقراطية، كما ادَّعى برتراند رسِل. وفي الواقع كان الإصلاح جزءاً من السياق العام لمساعي إصلاح الأوضاع عن طريق تغيير الواقع الذي عاشه الأوروبيون آنذاك، فنادى الإصلاحيون بالعودة إلى المسيحيَّة النقيَّة في الحياة الدينية، ومن جهتهم نادى المثقفون والأدباء بالعودة إلى ما سماه بترارك "العهد الذهبي"، أي تراث الإغريق، بخصوص إصلاح الحياة الدنيوية[9]. فالتقت الدعوتان الدينية والدنيوية في المطالبة باستعادة نقاء الماضي.

في إنجلترا جرت عدَّة جهود إصلاحية انتهت بفصل كنيستها عن روما. وكما تغيَّرت النظرة إلى الإصلاح الألماني في الوقت الحاضر، تغيَّرت صورة الإصلاح الإنجليزي أيضاً، وذلك من جهة القوى التي ساهمت فيه والفترة الزمنيَّة التي استغرقها، فأصبح اليوم يُرى بوصفه متعدد المصادر والتوجهات، ومدَّدت الدراسات المعاصرة حقبته الزمنيَّة لتبلغ عدة قرون[10]. مع ذلك يمكن رصد سمات عامَّة للحركات الإصلاحية، ففي جميع البلاد الأوروبية التي كان لها مصلحون سارت عملية الإصلاح على ثلاث خطوات حسب وصف كيلي الذي يقول:

---

9 Lindsay Thomas M.: *A History* …, P 186.

10 Marshal, Peter: (Re)defining the English Reformation, *Journal of British Studies*, 48 (July 2009), 564-586. P. 568.

"بصورة عامَّة، التزمت مسيرة (الإصلاح) أسلوبا منتظماً، مع وجود اختلافات محلِّية بالطبع: فهناك أولاً مرحلة الوعظ من طرف واحد أو أكثر من الشخصيَّات البارزة، ثم فترة المناقشات الخاصة والعامة، ويمكن اعتبارها مرحلة (الجماهيرية)، وأخيراً، مرحلة اكتساب الأنماط الدينية الجديدة شرعيَّة ومؤسَّسات"[11].

هذا الطابع المنتظم للتحولات الدينية التي كانت دائماً تنتهي بظهور مؤسسات جديدة ذات أثر على المجتمع والدولة، هو الذي يعطي عصر الإصلاح صورة تحوُّلٍ يُمكن أن يُوصف بأنَّه شكَّل ثورة في تاريخ أمم غرب أوروبا. وهنا أيضاً يجب الانتباه إلى أنَّ هذه التحولات اتّخذت ملامح خاصة بمجتمعات كل دولة، ففي ألمانيا اتّخذ الإصلاح بُعداً سياسياً يتَّصل بالصراع بين الملك والأمراء الثائرين على انفراده بالسلطة، فكان حراكاً مكمِّلاً لبنية إصلاحية عامة، وهنا يمكن أن يصدق الربط الذي اقترحه برتراند رسِل بين الحريَّتين الدينية والسياسية. وقد ساندَ الأمراء الألمان الحركة الإصلاحية لأن الملك استند إلى سلطة البابا، فكان لقوَّة الأمراء دور حاسم في إجبار الملوك على الاعتراف بالعقيدة البروتستانتية.

مع نجاح اللوثرية في ألمانيا والاعتراف بمؤسساتها في سنة 1519م، أعلن الامبراطور تشارل الخامس (Chales V 1500–1556)، ملك إسبانيا والأراضي المنخفضة وإيطاليا، حرباً شاملة على اللوثريين. لكن أمراء ألمانيا المناصرين للوثرية صادروا أراضي الكنيسة الكاثوليكية وهدّدوا ممتلكات الإمبراطورية الإسبانية. وفي ظل تصاعُد قوة البروتستانت المتزامنة مع ازدياد الخطر العثماني على إسبانيا، نمت الدوافع الكاثوليكية للحرب، فاشتعلت في أوروبا صدامات دينية امتدَّت من سنة 1526م إلى سنة 1648م. وعلى مدى أكثر من مئة وعشرين سنة استعرت حرب بين البلاد البروتستانتية والكاثوليكية تخلَّلتها فترات هدوء قصيرة جداً. وفي تلك الحروب اعتمد ملوك غرب أوروبا، الذين لم

11 دونالد ر. كيلي: **بدء** ...، ص 57.

تكن لهم جيوش نظامية موحَّدة، على قوة النبلاء الأقوياء الذين كانوا يملكون جيوشاً ضخمة أنشأوها بأموال مصدرها استيلاؤهم على أراضي مخالفيهم في العقيدة، ففي ظل تلك الأوضاع صار الصراع الديني بين مواطني الدولة الواحدة مدخلاً لحيازة الثروة وتوطيد السلطة[12].

على مستوى مؤسَّسات المعرفة، انتشرت النزعة الإصلاحية بين أساتذة جامعة باريس، القلعة الحصينة للسلطتين الدينية والدنيوية. وعندها أصدر الملك إنذاراً للكلِّيات والجامعات بوجوب التزام أوامره القاضية بتجريم الأفكار الإصلاحية، لكن في ذلك الوقت كان الأمر قد خرج من يد الملك. عن هذه الأوضاع كتب كيلي الذي يرى أنَّ الحركة الإصلاحية تشكِّل جزءاً من سياقٍ أيديولوجيٍ شامل:

"كانت الجامعة دوماً ساحة للخلاف والاضطرابات، فأصبحت مركزاً للثقافة المضادة التي أثارت صراعاً ليس فقط في الكليات وإنما في الأجيال والزمر الأيديولوجية، وتحدَّت ليس فقط السلطة التعليمية، وإنما السلطة البابوية والسياسية. ومن جامعات باريس وأورليان وبورجيه وأماكن أخرى جاء زعماء الجيل التالي من البروتسانت، والمثقفون المتنوِّرون الجدد الذين أرادوا جعل التعليم الأكاديمي أساساً لتحوُّل أعمق"[13].

مع صعود تأثير جون كالفن على حركة الإصلاح تحوَّلَ الاهتمام من القضايا الدينية إلى الصراع على المصالح الدنيوية، واتَّجه كثير من رجال الدين إلى مناقشة القضايا الاجتماعية، لكن الفئات المختلفة للطبقة الوسطى، من محامين ومفكِّرين ومثقَّفين ومعلِّمين، كانت هي الأكثر تأثيراً من اللاهوتيين.

---

12 المثال البارز على ذلك هو نبيل بوهيميا الكاثوليكي البرشت فون فالنشتين، الذي كون ثروته من مصادرة أراضي البروتستانت في بوهيميا، وكان له جيش يتكون من 30 ألف إلى 100 الف مقاتل. وقد لعب فون فالنشتين دوراً مؤثراً في حرب فرديناند الثاني ضد البروتسانت مقابل أن يحصل على خراج جميع الأراضي التي يُخضعها لسلطة الملك.

13 المرجع السابق، ص 37.

وكانت الكالفنية هي التي أثَّرت على الفئات الدنيا والطبقة الوسطى وزوَّدتها بما سمَّاه ماكس فيبر "الأخلاق البروتسانتية" التي نسَبَ إليها تحفيز السلوك الاقتصادي المؤدِّي إلى نشأة الرأسمالية. ورأى فيبر أنَّ شيوع الثقافة الإصلاحية هو الذي يفسِّر لماذا تطوَّرت بعض مجتمعات أوروبا أكثر من سواها، ويفسِّر أيضاً تطوُّر أنساق التعليم والتراتُب الاجتماعي فيها حتى بداية القرن العشرين[14].

إلى جانب النتائج الدينية المتمثِّلة في ميلاد المذهب البروتستانتي، تمثَّلت نتائج الإصلاح المُهِمَّة في توزيع الأراضي التي كانت الكنيسة الكاثوليكية قد امتلكتها. ونتج عن ذلك اتساع سوق تجارة الأراضي بقدرٍ سمح لبعض أفراد الطبقة الوسطى بالتحوُّل إلى ملاك صغار. ومن ناحية أخرى، ساهم انخفاض القدرات المالية للكنائس الكاثوليكية في خروجها من سوق الأرض بعد أن كانت قد صارت المنافس الأقوى للمشترين البروتسانت. ودعمَ ذلك عملية إعادة توزيع ملكية الأرض وفتح سوقها، فقويت حركة رأس المال وأدت إلى تنشيط التجارة في المجالات الأخرى. وعبر دورة اقتصادية طويلة المدى، ساهم نزع أراضي الكنيسة في تحويل بلاد أوروبا الغربية نحو النظام الرأسمالي، لأن مِلكيَّة الأرض ونمو الإنتاج الزراعي أوجدا ضماناً لعدم انهيار الأسواق المالية الناشئة، بما أنَّ النظام الاقتصادي كلّه كان في مرحلة هشَّة. هكذا عادت المؤثرات الاقتصادية التي كانت قد غذَّت الحراك الديني في البداية، لتدعم تحولاً اقتصادياً حفَّز بدوره حراكاً بين الطبقات، فلم يعد السياق خاصَّاً بتحوُّل ديني خالص وإنما رافقته تحولات اقتصادية واجتماعية.

هنا، حيث ارتبطت النتائج الدينية للحركات الإصلاحية بنتائج اقتصادية- اجتماعية، تظهر سمات ثوريَّة لعصر الإصلاح بما أنَّه تضمَّن تحولاً شمل مختلف أوجه الحياة وأدخل عناصر جديدة في نظام المجتمع وأعاد تشكيل

14 Becker, S.O., Pfaff, S., & Rubin, J.: Causes and Consequences of the Protestant Reformation. ESI Working Paper 16-13 (2016). http://digitalcommons.chapman.edu/esi_working_papers/178

جماعاته الأيديولوجية. لقد أحصى كيلي أربعةً من عناصر الأيديولوجية الصاعدة التي شكَّلت القوة الدافعة للإصلاح، هي: الصراعات الاجتماعية والحاجة إلى التغيير، ودور التبشير بالحرية الفردية في تشجيع التصدِّي لسلطة الكنيسة الكاثوليكية، ورفض الامتيازات المؤسَّسية والحاجة إلى العدالة، ونظام الإقطاع الذي أتاح للأمراء الاستقلال بجيوشهم والتمرد على سلطة الملوك[15]. وقد شكَّلت هذه العناصر الأربعة قاعدة للتحولات التي ستعيشها مجتمعات أوروبا الغربية في القرنين التاليين لتنتج فكر التنوير في القرن الثامن عشر. وهذا المسار يرتبط بالدور المتعاظم للمفكرين بعد نجاح الحركات الإصلاحية، بوصفهم جزء من الطبقة الوسطى الصاعدة آنذاك، فبعدها ستبرز أيديولوجياهم المتمركزة حول الدور الحاسم للفكر في تغيير المجتمع. وهذا التوجُّه الأيديولوجي هو الذي سيطوِّره المؤرِّخون في منتصف القرن التاسع عشر إلى طريقة فهم للتاريخ تجعل التحولات الفكرية أساساً لثورات سيُقال إنّها صنعت أوروبا الحديثة. إنَّ التفاسير التاريخية المتمركزة حول مسيرة انتقال المعرفة الإغريقية عبر عصر النهضة مروراً بالإصلاح وصعوداً نحو عصر التنوير؛ هي التي تشكِّل أساس التوجه الهيغلي الذي سيصوِّر تاريخ أوروبا على أنَّه نتاج تحوُّل في الوعي اتَّخذ مساراً تقدُّمياً يتَّجه نحو الحداثة.

اعتماداً على المراجعة السابقة لخطاب عصر الإصلاح التي رصدت مآلات حراكاته؛ يُستخلَص أنَّ جهوده حقَّقت في جانبها الديني تغيُّراً فعلياً لأنها أوجدت طوائف دينية جديدة، وأنتجت تحولات اقتصادية أثَّرت على بناء المجتمع. ومن هذا المنظور يُمكن قول إنَّ وصف الخطاب التاريخي الأوروبي للتحول الذي شهدته تلك الحقبة يبدو مقبولاً، ولا يخدم وظائف أخرى خارج مقتضيات توصيف الحقبة نفسها، رغم عدم دقة وصفه بأنَّه "ثورة دينية". ولا يوجد ما يشير لارتباطه بمعرفة تخدم سيطرة محلية أو عالمية.

15 دونالد ر. كيلي: **بدء ...**، ص 333 - 334.

مثلما لقيت فكرة العودة إلى الأصول النقيَّة تعبيراً دينياً عنها في مطالبة الإصلاح بالرجوع إلى أصول المسيحيَّة؛ وجدت التعبير الدنيوي عنها في فكرة العودة إلى الأصول الإغريقيَّة. وهذه العودة تتَّصل بها حقبة أخرى يرى المؤرِّخون الغربيون أنَّها ساهمت في صعود أوروبا نحو العصر الحديث، وهي حقبة (الاكتشافات) الجغرافيَّة، أو الثورة الجغرافيَّة التي يُقال إنَّها نتجت عن الاتصال بعلوم الإغريق، وهي الثورة التي يستجلي الفصل التالي معالم خطابها.

الثورة الجغرافيَّة: اليوم المفقود لأسطول ماجلّان

يصوِّر المؤرِّخون الأوروبيون فترة نهاية القرن الخامس عشر بأنها كانت فترة تحوُّل كبير في المعرفة بأراضي وبحار العالم، نتجت عن رجوع العلماء إلى نصوص الإغريق والرومان، خاصة كُتب بطليموس[1]. ويقولون إنّ تلك النصوص المستعادة حقَّقت للأوروبيين معرفة جديدة كانت بمثابة نقلة كبيرة تُسمَّى في التاريخ الحديث (الاكتشافات الجغرافية)، أتاحت للبرتغاليين التعرُّف على الطريق البحري المؤدِّي إلى الشرق، وأوصلت الإسبان إلى أميركا. ويضيف المؤرِّخون إلى تلك الحقبة الرحلة التي قام بها البحَّار فرديناند ماجِلَّان (Ferdinand Magellan1480–1521)، الذي دار حول الأرض مبحراً إلى الغرب من إسبانيا وعاد إليها من جهة الشرق، فوصل الهند ماراً من أسفل قارة أميركا الجنوبية، وبذلك حقَّق ما يعدّه المؤرِّخون الغربيون واحدة من علامات التفوُّق العلمي الكبرى لأوروبا.

في المعرفة الأوروبية تُوصَف النقلة التي حقَّقتها مجموعة الرحلات هذه بأنها (ثورة جغرافيَّة)، ويعدُّها بعض المؤرِّخين أكبر تحوُّل حدث في التاريخ البشري، فلا يرونه مهمَّاً لأوروبا وحدها وإنما للعالم أجمع. لكن، للشعوب غير الأوروبية وجهة نظر أخرى، يتطلَّب التعرُّف عليها نظرة تتجاوز التمركُز حول تاريخ أوروبا.

---

1 عرف الأوروبيون كتابين لبطليموس هما (الماجستي) و(الجغرافيا) اللذيَن نقلهما العرب إلى أوروبا.

في هذا العام (2020م) أعدَّت اللجنة التاريخية الوطنية الفلبِّينية العُدّة لرفع النصب التذكاري المسمَّى (نصب الحرية الجديد)، ليُقام في يوم 27 أبريل في مكان تمثال الملك (لابولابو) الذي تمكَّن من هزيمة الإسبان وقتل ماجِلَّان في معركة ماكتان في سنة 1521م، احتفالاً بمرور خمسمئة عام على انتصار الفلبينيين على الغزاة، وسيُنقَل تمثال الملك إلى متحف سيقام تخليداً لذكراه[2]. وفي عام 2020 نفسه يعدُّ الإسبان عدَّتهم للاحتفال بذكرى رحلة ماجِلَّان نفسها، باعتبارها أول رحلة بحرية تدور حول الأرض وتحقِّق ما يرونه "إنجازاً علمياً". وهذا التعارض في فهم وتوصيف نفس الحدث يعكس الاختلاف الحاد في وجهات النظر بين الأوروبيين الذين يرون ماجِلَّان بطلاً قام بمَهمَّة علمية ناجحة، وشعب الفلبِّين الذي يراه مجرماً هاجم سواحل بلدهم، فقُتِل. وهو اختلاف ينطبق على جميع الرحلات التي قادها من يسمِّيهم الأوروبيون (المكتشفون)، فالشعوب التي نزل أولئك الرجال أراضيها تراهم غزاة وليسوا أبطالاً، فلأنها كانت تعلم بوجود أراضيها منذ زمن طويل ترى أنَّ من العبث وصف وصول الأوروبيين إلى أراضيها بأنَّه (اكتشافٌ) لها.

في فترة ما يُسمَّى الثورة الجغرافيَّة كان اطِّلاع البرتغاليين والإسبان على مصادر المعرفة الجغرافية الموثوقة محدوداً جداً. فالنصوص التي كانت أكثر تقدُّماً آنذاك، والتي جمعت بين المعرفة النظرية وتلخيص نتائج الخبرة العمليَّة في مجال ارتياد البحار وصناعة الخرائط كانت هي النصوص العربية، التي لم يُنقَل منها إلى اللغات الأوروبية إلا القليل جداً حتى فترة القرن السادس عشر. فكتاب الفرغاني، الذي نقل إلى كولمبس ومعاصريه القياس السليم لمحيط الأرض، لم يكن قد تُرجَم منه إلا جزء صغير في ذلك الوقت، وحتى هذا الجزء كان قد تُرجِم عن نسخة مترجمة إلى اللغة العبريّة، ولم يُنقَل النص

---

2 انظر الموقع التالي على الشبكة الدولية: https://bit.ly/3m097zo، شوهد بتاريخ 23/11/ 2020.

العربي كاملاً إلى اللاتينية إلا في سنة 1590م. ومقارنةً سريعة بين المعرفة الجغرافيَّة العربية والمعرفة الأوروبية في فترة الاستكشافات الجغرافية تؤكِّد أنَّ التفوُّق الكبير كان للمعرفة العربية. ولتوضيح ذلك نتناول أولاً حادثةً تسمى في التاريخ الأوروبي "اليوم المفقود"، تحكي ضياع يوم من أسطول ماجِلَّان عندما عاد إلى أوروبا من رحلته.

كان البحَّار البرتغالي فِردناند ماجِلَّان يعمل في خدمة ملك إسبانيا، الذي لم يحقِّق له وصول كولمبس إلى أميركا ثروة تُذكر مقارنة بما تحقَّق للبرتغال من وصولها إلى الهند، فاستمر الملك يحلم بوصول أساطيله إلى الشرق ليكون أقرب إلى ثروات الهند. لكن قسمة البابا لأراضي العالم بين إسبانيا والبرتغال منعت أساطيل إسبانيا من الإبحار عبر نصفها الشرقي، الذي كان البابا قد منحه للبرتغال. وفي سنة 1518م عرَضَ ماجِلَّان على ملك إسبانيا أن يقود أسطوله إلى الهند مبحراً إلى الغرب من أوروبا، فيحقِّق له ما فشل فيه كولمبس، مقابل حصول ماجِلَّان على جزء مما تدرُّه الحملة من مكاسب مالية. وافق الملك ووقَّع مع ماجِلَّان عقداً بذلك في إسبانيا بمدينة "بلد الوليد" (Valladolid) في اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس سنة 1518م. وأبحر ماجِلَّان في أول أغسطس سنة 1519م، رافعاً راية الحملات الصليبية التي كانت جميع الأساطيل الأوروبية ترفعها لأن رحلاتها الخارجية كانت تُعدُّ جزءاً من مشروع "غزو بلاد الوثنيين والكفار" كما جاء في البراءات التي أصدرتها السلطة البابوية، والتزمت أساطيل ملوك أوروبا الغربية بتوجيهاتها.

بعد شهور من السير بمحاذاة سواحل أميركا الجنوبية، وبإرشاد من سُكَّانها، وصل ماجِلَّان مياه المحيط الهادي، ومنها وصل إلى جزر شرق آسيا، وهناك وجد بعض شعوب المنطقة يدينون بالبوذية وبعضهم يدينون بالإسلام. وبوصفه قائد حملة صليبية بدأ ماجِلَّان يعرض المسيحية على ملك كل منطقة يستضيف

أسطوله، وعندما كان الملوك يفضِّلون البقاء على دينهم، كان ماجِلَّان يبدأ القتل والنهب، ثم يُشعل النار في القرى الطرفيَّة والساحليَّة ليلاً قبل أن تُقلع سفنه. فأثار ذلك رُعباً في البلاد التي مرَّ بها وانتشر بين سكَّان الجُزر خبر ما يمارسه من إرهاب، وقد وثَّقت مدوَّنة يوميَّات الرحلة بنفسها لعمليات الدمار هذه.

نتيجة لذلك السلوك الهمجي تحالفت ضد أسطول ماجِلَّان عدَّة قرى في جزيرة "ماتان" بالفلبِّين، وعند نزوله ساحلهم هاجمه ألفا رجل فقتلوا ستة من البحارة البرتغاليين كان بينهم ماجِلَّان نفسه، حدث ذلك في سنة 1521م[3]. وبعد مقتل قائدهم تابع البحَّارة الأوروبيون رحلتهم من الشرق عائدين إلى إسبانيا بقيادة القبطان أنطونيو بيغافيتا (Antonio Pigafetta:1491–1535)، فوصلوا جزيرة بورنو (Borneo) التي كانت سمعة ثرائها وتقدُّمها الاقتصادي قد بلغت ملوك أوروبا، وعُرف عنها غناها وضخامة تجارتها لأنها كانت مركزاً للتبادلات التجارية بين مختلف بلاد الشرق، وهناك قام الأسطول بعدد من عمليات النهب[4]. وفي الطريق بين آسيا وأوروبا، مروراً بالسواحل الجنوبية والغربية لأفريقيا، تابع الأوروبيون الهجوم على القرى والسفن التي صادفوها، حتى دخلوا المياه الأوروبية محمَّلين بما نهبوه.

عندما وصل الأسطول أرض أوروبا سجَّلت مُدوَّنة اليوميات التي كان يكتبها بيغافيتا بنفسه حادثة مدهشة وقعت لطاقم الرحلة وشكَّلت لُغزاً عصِي الحل. وصفَ بيغافيتا ما حدث عند وصولهم سواحل البرتغال بقوله:

> **"لنعرف إن كنا قد حافظنا على تسلسل أيام الرحلة كلَّفنا البحارة الذين سيهبطون الساحل بأن يستعلموا عن اليوم، فعلموا من البرتغاليين أنَّه الخميس، وأثار ذلك دهشة عظيمة لدينا بما أنَّه كان الأربعاء عندنا. ولم**

---

3 Pigafetta, Antonio; *The First Voyage Round the World, by Magellan*, (London: The Hakluyt Society, 1874). P. 102.

4 جزيرة بورنو هي أكبر جزيرة في آسيا، والثالثة في العالم من حيث الحجم. تقع في أرخبيل الملايو بجنوب شرق آسيا، وتقتسم أراضيها حاليا ثلاث دول هي: أندونيسيا وماليزيا وبروناي.

يكن بوسعنا الاقتناع بأننا أخطأنا، وكنت أنا الأكثر دهشة من الآخرين حيث إنني ظللت أسجل اليوم الجاري، وكنت دائماً في صحة جيدة. لكن، فيما بعد أخبرونا أننا لم نُخطئ، بما أننا كنا مُبحرين دائماً نحو الغرب متَّبعين مجرى الشمس ثم عدنا إلى نفس المكان، فيجب أن نكسب أربعاً وعشرين ساعة كما يتضح لكل من يُفكِّر في الأمر"[5].

في الحقيقة، لم تُحلّ المشكلة بالبساطة التي يوحي بها قول بيغافيتا، فقد سبَّب اليوم المفقود التباساً كبيراً للبحارة وقائدهم، ظلّوا يفكرون فيه طوال رحلتهم من البرتغال إلى إسبانيا. شاع خبر اليوم المفقود واعتبر الأوروبيون أنَّ المعلومة التي حصلوا عليها بخصوص كسْب يومٍ عند الدوران حول الأرض من جهة الغرب، تشكِّل اكتشافاً مهماً. وقد أوضح جيوفاني باتستا راموزيو، وهو أحد الذين ترجموا يوميَّات رحلة ماجلّان، أنَّ (اليوم المفقود) كان لُغزاً استعصى حلُّه ليس على بحَّارة أسطول ماجِلّان وحدهم، وإنما على عدد من علماء البلاط الإسباني. كتب راموزيو:

"لأنَّ الإسبان أبحروا لمدة ثلاث سنوات وشهر، ولأنَّ معظمهم كانوا، كما يفعل البحارة في العادة، يُدوِّنون أيام الشهور واحداً تلو الآخر؛ وجدوا عند رجوعهم إلى إسبانيا أنَّهم أضاعوا يوماً، فاليوم الذي وصلوا فيه إشبيلية كان السابع من سبتمبر، لكنه كان حسب سجلاتهم اليوم السادس. وقد ذكر بيتر هذا الأمر الغريب لرجل متميِّز غير عادي، كان في ذلك الوقت سفيراً لجمهوريته عند معالي الملك، فسُئل كيف حدث ذلك؟ ولأنَّه كان فيلسوفاً عظيماً على معرفة بالإغريقية واللاتينية، ولتعليمه الرفيع؛ أجاب: أنَّه لا يمكن أن يحدث سوى ذاك بما أنَّهم سافروا ثلاث سنوات سائرين مع الشمس في اتجاه الغرب. وبالإضافة إلى ذلك، أخبره أنَّ من يسيرون في اتجاه الغرب يطول يومهم كثيراً، كما لاحظ القدماء"[6].

---

5 المرجع السابق، ص 120.

6 المرجع نفسه، ص. 180-181.

هذه الطريقة التي حُلَّت بها المشكلة، حسبما نقل راموزيو، ذات دلالة مُهِمَّة في تشخيص مقدار تأخُّر المعرفة الجغرافيَّة في أوروبا آنذاك. إذ يستفاد منها أنَّه لم تتوفَّر للإسبان معرفة بمسألة بسيطة من مسائل الجغرافيا النظرية في فترة متأخِّرة من ما يُسمَّى عصر الكشوف الجغرافية، فلا قائد الأسطول ولا العلماء الإسبان توصَّلوا إلى الحلّ الذي لم يكن يتطلَّب في الشرق أو في شمال أفريقيا سوى معرفة متواضعة، كما سيتَّضح. ويُستنتج منه أيضاً أنَّ المفكِّرين والمثقَّفين الأوروبيين بدأوا في تلك الفترة يُفسِّرون التاريخ بمنظور متمركز حول الذات، فراموزيو يربط قدرة الرجل الذي استطاع أن يحلّ المشكلة بمعرفته باللغتين الإغريقية واللاتينية، ويصفه أيضاً بأنَّه رجل "غير عادي" وفيلسوف عظيم. وهذا يوضِّح المكانة الرفيعة التي نُسبت إلى الرجل بسبب حله إشكالاً بسيطاً من إشكالات الجغرافيا، وقد حدث ذلك في البلد الأكثر تقدُّماً في أوروبا في مجال البحرية والمعرفة الجغرافية.

تناقلَ المثقفون الأوروبيون خبر اليوم المفقود في أماكن ومناسبات كثيرة في تلك الفترة. وأوردت مدوَّنات البلاط الإسباني حادثة اليوم المفقود في نصٍّ كتبه واحد من المؤرِّخين الذين كانوا يوصفون في ذلك الوقت بأنهم من كبار المثقَّفين الأوروبيين، وأبرز "إنسانيي" إيطاليا، وهو بيتر مارتير دي أنغيرا (Peter Martyr d’Anghiera: 1457–1526)، الذي عمل في تلك الفترة مؤرِّخاً رسمياً لدى ملك إسبانيا. وفي مدوَّنته نجد معلومة مُهِمَّة حول هويَّة ذلك الشخص الذي استطاع حل مُعضلة اليوم المفقود.

في نص بعنوان "تاريخ العالم الجديد"، كتب دي أنغيرا أنَّه كان حاضراً في بلاط الملك عند وصول أسطول ماجلان، وأنه تأكَّد من وجود مشكلة في حسابهم لأيام الرحلة لأنهم وصلوا يوم الخميس، بينما كان اليوم في سجل رحلتهم هو الأربعاء. ويقول دي أنغيرا إنَّه حمل تلك المسألة المستعصية إلى

فيلسوف وعالم فلك إيطالي كان سفيراً لفينيسيا في إسبانيا، اسمه كاسبارو كونتاريني (Casparo Contarini: 1483–1542). يصفه بأنه: "كان ملمَّاً بمختلف ضروب العلوم والآداب"، ويقول إنَّه هو الذي أخبرهم بالحل.

الشيء الذي يؤكد أنَّ تلك المسألة البسيطة أثارت اهتماماً على أعلى المستويات في أوروبا آنذاك، إنَّ دي انغيرا أرسل رسالة مطوَّلة إلى البابا أدريان السادس ناقش فيها تفاصيل القضية، لما لها من دلالات دينية بالنسبة إلى ضبط مواقيت العبادة والطقوس والمناسبات الدينية في المناطق التي احتلَّها الأوروبيون في قارات أميركا وآسيا وأفريقيا، ولم يكونوا يعلمون حتى ذلك الوقت بوجود فروق زمنية بينها وبين أوروبا. وفي رسالة دي أنغيرا التي حملت الخبر إلى البابا، شرَحَ حل المشكلة على لسان كونتاريني كما يلي:

> **"لنفترض أنَّ أسطولين، برتغالياً وإسبانياً، انطلقا من نقطة واحدة. أبحر الأسطول البرتغالي إلى الشرق ليدور حول الأرض ويعود من جهة الغرب إلى موضع انطلاقه، وفي اللحظة ذاتها أبحر الأسطول الإسباني إلى جهة الغرب ليدور حول الأرض عائداً من جهة الشرق إلى نفس موضع انطلاقه. فعند عودتهما يكون الذي سار إلى الغرب يسير في اتجاه مسير الشمس، فيكون يومه أطول، فيقطع المسافة التي يقطعها الأسطول الآخَر في يوم أطول، فيقل عدد أيامه يوماً عن حساب الأيام عند من هو ثابت في موضع الانطلاق. أمَّا الأسطول البرتغالي، العائد من جهة الغرب؛ فلأنه سار عكس اتجاه مسير الشمس يكون يومه أقصر، فيحسب أياماً أكثر لقطع نفس المسافة التي يقطعها الأسطول الإسباني، فتزيد أيامه يوماً. فإن عاد الأسطولان في يوم الخميس بحساب المنطقة التي انطلقا منها، فإنَّ الأسطول العائد من جهة الشرق يكسب يوماً فيكون اليوم هو الأربعاء بالنسبة إليه، أمَّا العائد من جهة الغرب فيخسر يوماً ويكون اليوم هو الجمعة بالنسبة إليه..."**[7].

---

7 توجد عدة صيغ لهذا النص المترجم عن اللاتينية، انظر مثلاً:

https://webspace.science.uu.nl/~gent0113/idl/idl_discovery.htm

ويُعلِّق دي أنغيرا مخاطباً البابا: وحينما فكَّرنا في الأمر مليّاً، أدركنا أنَّه لا ينبغي أن يكون الأمر إلا كذلك.

لنعد إلى السياق الذي أوردنا فيه هذه القصة، وهو سياق المقارنة بين المعرفة العربية والأوروبية. فقبل قرنين تقريباً من رحلة فرديناند ماجِلّان إلى الشرق كان العالم السوري عماد الدين اسماعيل بن علي أبو الفداء (1331-1273م) قد ضَبَط بطريقة دقيقة في القرن الرابع عشر الميلادي، الموافق الثامن الهجري، فروق الأيام بالنسبة إلى شخصين يدوران حول الأرض من جهتَي الشرق والغرب ويعودان إلى النقطة ذاتها التي تحرَّكا منها، وتوصَّل بطريقة حسابية مضبوطة إلى ما سيتوصَّل إليه الإسبان بطريقة تجريبية بعد زمن طويل. ليوضِّح أنَّ المُبحِر من الغرب يكسب يوماً وأن المُبحر من الشرق يخسر يوماً، كتب أبو الفداء:

> **"ثم فُرِضَ تفرُّق ثلاثة أشخاص من موضع بعينه فسار أحدهم نحو المغرب والآخر نحو المشرق، وأقام الثالث حتى دار السائران دوراً من الأرض، ورجع السائر في المغرب من جهة الشرق والسائر في الشرق من جهة الغرب، نقص من الأيام التي عددها جميعاً للمغربي واحد، وزاد للمشرقي واحد. لأن الذي سار إلى الغرب، ولنفترض أنَّه دار حول الأرض في سبعة أيام؛ سار موافقاً لمسير الشمس فيتأخر غروبها عنه بقدر سُبع الدور بالتقريب، وهو مايسيره في كل نهار في سبع أيام، حصل له دور كامل وهو يوم بكماله. والذي سار إلى المشرق كان سيرُه مخالفاً لمسير الشمس فتغرب الشمس عنه قبل أن يصل إلى سُبع الدور، فيجتمع من ذلك مقدار يوم فتزيد أيامه يوماً كاملاً. فلو كان افتراقهم يوم الجمعة ثم حضرا إلى المقيم الجمعة الأخرى، فإنه يكون بالنسبة إلى المقيم يوم الجمعة، وبالنسبة إلى المغربي الذي حضر من المشرق يوم الخميس، وبالنسبة إلى المشرقي الذي حضر من المغرب يوم السبت. وكذلك لو فُرِضت هذه الصورة في الشهور والسنين"**[8].

8 أبو الفداء (عماد الدين بن اسماعيل بن محمد -1331م/ 711 هـ تقريباً) **تقويم البلدان** (باريس-بيروت: دار صادر، 1830م). ص 4. كان أبو الفداء، الذي ينتمي إلى الأيوبيين، جغرافياً ومؤرِّخاً وعمل قائداً حربياً وحاكماً على مدينة حما في فترة حروب الصليبيين على مدن الشام. وفي سنة 1320م مُنح لقب (سلطان)

هكذا نقل أبو الفداء، بلغة غاية في الإفصاح، معرفة دقيقة بحساب فروق الزمن الكوني التي تقع لمن يدور حول الأرض قبل دوران أسطول ماجِلّان حولها، مستبقاً بقرنين من الزمان توصُّل الأوروبيون إلى معرفة تلك الفروق[9]. ويُلاحَظ أنَّ نصَّ دي أنغيرا يكرِّر تماماً نفس مراحل نص أبو الفداء في شرح الحل، سوى أنَّه لا يفترض لزمن الرحلة أسبوعاً كما فعل أبو الفداء، بل إنَّه لا يفترض فترة زمنية محدَّدة للرحلتين وإن كانت شهراً أو سنة. وهذا يكشف أنَّه كان صاحب ثقافة عامة، وليس صاحب ثقافة علمية مثل أبو الفداء الذي كان يعي أنَّه لا بدَّ من تثبيت الوقت الذي تستغرقه الرحلتان لتنهض المقارنة بينهما على مقايسة علمية لفروق وقت الوصول.

بقليل من النظر نتوصَّل إلى نقطتين مُهمَّتين عند المقارنة بين الحلّ العربي لمواقيت الدوران كما توصَّل إليه أبو الفداء في القرن الرابع عشر، والحل الأوروبي الذي ظهر متأخِّراً عنه بقرنين كاملين. النقطة الأولى هي أنَّ كاسبارو كونتاريني، صاحب الحلّ الأوروبي، لم يكن فلكيَّاً أو جغرافيَّاً وإنما كان كاردينالاً يقوم بدور دبلوماسي في إسبانيا، ولأنه كان يعلم بالحلّ مسبقاً فلا بدَّ أنَّه تلقَّاه من معرفة كانت شائعة في إيطاليا، فمن أين اكتسب الرجل معرفة متطوِّرة كهذه وهو صاحب ثقافة عامَّة، إن لم يكن من بلاد جنوب المتوسِّط التي كانت المدن الإيطالية على صلة وثيقة بها؟ إنَّ غياب الحل في بلاد أوروبا الغربية مع وجوده في الثقافة الإيطالية وحدها يرجِّح أنَّه جاء من الثقافة العربية التي كانت قد توصَّلت إليه قبل زمن طويل، والتي كانت تمثِّل الحضارة العالمية في ذلك الوقت.

في عهد الحاكم المملوكي الناصر بن محمد.

9 من الواضح هنا أنَّ أبو الفداء كان معنيّاً في بحوثه العلمية بالاستجابة لانشغالات مجتمعه، فيوم الجمعة هي اليوم الوحيد من أيام الأسبوع الذي إذا أشكلَ على المسلم أعاق صحة عبادته، لأن صلاة الظهر تختلف فيه عن بقيَّة أيام الاسبوع. ويُلاحَظ أنَّ الدلالة الدينية التي منحها أبو الفداء لاختلاف الأيام؛ هي نفسها التي سيمنحها لها دي أنغيرا، حين أوضح في خطابه للبابا أهمِّية اختلاف الأيام والمواقيت لعبادة المسيحيين.

لقد انتبه باحث غربي معاصر يتركَّز عمله في مجال علاقة الزمن بالطبيعة، هو آرثر وينفري، إلى أنَّ أبو الفداء سبق الأوروبيين في شرح علاقة الوقت بالمكان، وأن المعرفة الجغرافية العربية كانت قد تسرَّبت إلى أوروبا عبر الأندلس وجرى تداولها هناك[10]. ولكنه ليفسِّر جهل الأوروبيين بتلك الحقيقة التي كانت قد أصبحت قديمة في العالم آنذاك؛ يقول إنَّ مواجهة المشكلة بطريقة نظرية شيء، ومواجهتها تجريبياً شيء آخر، لأن التجربة تجعل المشكلة مثيرة للدهشة. ولكن الأمر عكس هذا في الحقيقة، فالشيء المعلوم نظريَّاً لا تثير مظاهره التجريبية الدهشة، لأنها تصبح بمثابة برهان على صِدق ما عُلم عنه. وهذا يوضِّح كيف يلتفّ المفكِّرون الغربيون المعاصرون على حقيقة أنَّ أوروبا كانت متأخِّرة في مجال العِلم عن الشرق طوال القرن السادس عشر الذي يُصوَّر باعتباره عصر نهضة فكرية وثورة علمية وجغرافية.

النقطة الثانية التي يجب الانتباه إليها في الحل الذي قدَّمه الدبلوماسي الإيطالي هي أنَّه افترض يومَي الخميس والجمعة لوصول الأسطولين، مثلما افترضهما أبو الفداء الذي توصَّل إلى الحل في سياق دراسته لتغيُّر زمن صلاة الجمعة نتيجة تغيُّر المكان. فلماذا لم يركِّز الإيطالي على يوم له دلالة مُهِمَّة بالنسبة إلى المسيحيين، مثل يوم الأحد، إن لم يكن قد تلقى الحل عن المسلمين المعنيين بيوم الجمعة؟ إنَّ الشيء الذي يوضِّح أولوية ربط تغير مواقيت الزمان العالمي بالعبادة في تلك الفترة هو ما قام به المؤرِّخ دي أنغيرا بمجرَّد علمه بحل المشكلة، فقد خاطب البابا بخصوص تأثير هذه المعلومة على مواقيت عبادة المسيحيين. وهذه الملاحظة توحي بأن مسيحيي أوروبا عرفوا أخيراً كيف يضبطون المواقيت العالمية لعباداتهم، بعد أن تلقّوها عن المسلمين. ولكن

10 انظر:
Winfree, Arthur T. ; *The Geometry of Biological Time*, (New York: Springer, 2001). p. 10.

الواقع كان غير ذلك، فقد ظلَّ الإسبان والبرتغاليون يستخدمون مواقيت مختلفة حتى بعد أن عرفوا الحل الصحيح للمشكلة، واستمرَّ اضطراب مواقيتهم إلى القرن الثامن عشر، بينما كان العرب قد ضبطوا تعاملهم الديني مع الزمن منذ وقت طويل.

كان الفلكي أبو الحسن علاء الدين بن علي (1304–1375م) قد توصل إلى أهم نتائج بحوثه العِلميَّة بينما كان يعمل رئيساً لمؤذني مساجد دمشق، حيث كان يبحث مسألة تغيُّر المواقيت وضبطها بدلالة حركة الأجرام السماوية. وقريباً من تلك الفترة طوَّر عدد من العلماء المسلمين، بينهم نصير الدين الطوسي (1201–1274م) وقطب الدين الشيرازي (1263–1311م) أبحاثهم الفلكيَّة في ظل عنايتهم بالإجابة على أسئلة مجتمعهم، ومنها الأسئلة الدينية. وضِمن هذه السياق التاريخي والتقاليد العِلميَّة العريقة جاءت مساهمة ابن الفداء الذي من المهم إبداء ملاحظة أخيرة حول منهجيَّة الاستدلال العلمي عنده، فهي تقوم على معرفة بالمنهج التجريبي في أكثر أشكاله تطوُّراً.

في حلِّه لإشكالية تغيُّر الزمن عند الدوران حول الأرض لم يفترض أبو الفداء حركة شخصين دون أن يفترض وجود شخص ثالث يؤدِّي وظيفة المَرجِع لحركتيهما، وهذا شرط ضروري للتجارب العلمية التي تستلزم وجود ما يسمَّى المجموعة الضابطة. وهي فئة لا يتم تعريضها للمتغيِّر المستقل الذي يُراد قياس مقدار ارتباط المتغيِّر التابع به. فوجهة الدوران حول الأرض هي المتغيِّر المستقِل عند أبي الفداء، ومقدار الزمن متغيِّر تابع لها، لأنَّه يتغيَّر تبعاً لتغيُّر اتِّجاه الدوران، والرجل الثالث الثابت في موضعه هو العنصر الضابط للتجربة. إذاً، كان الفارق بين معرفة أبي الفداء المنتمي إلى القرن الثالث عشر، ومعرفة جغرافيي أوروبا في القرن السادس عشر، هائلاً في محتواها ومنهجها معاً، لا في واحد منهما.

لكي نستخلص الدلالة النهائية للحادثة، نعود ثانية إلى أسطول ماجلان، فلأن قائده بيغافيتا كان إيطالياً وضمّ أسطوله عدداً من البحارة الإسبان والبرتغاليين ولم يتمكَّن الجميع من حل "لغز اليوم المفقود"؛ فإنَّ هذا يبيِّن أنَّ جغرافيي الأمم الأوروبية الأكثر تقدُّماً في مجال البحرية في ذلك الوقت، كانوا يستندون إلى خبرات عملية تعينهم على بلوغ المنطقة المقصودة، مثل جمع المعلومات من سكان السواحل والاهتداء بعلامات الطبيعة البحرية، لكنهم لم يكونوا يملكون معرفة ذات طبيعة نظرية، أي معرفة علمية. وهذا يرجِّح أنَّه حتى على مستوى النُخبة الرفيعة لهذه البلاد لم تتوفَّر معرفة نظرية بالجغرافيا أو الفلك تُؤهِّلهم لأن يتصفوا بقدرة تحقيق "ثورة" تقوم على أسس علمية. وحتى إن وُجد واحد أو اثنان في إسبانيا لهما قدرة تفسير معضلة اليوم المفقود، فإنَّ ذلك لا يعني أبداً أنَّه وُجدت ثورة جغرافية، لأن القول بوجود عصر تحوُّل يعني وجود جماعات كبيرة معنيَّة بإنتاج المعرفة وتطويرها على أسس نظامية، وليس وجود أفراد فقط. إن كانت معضلة اليوم المفقود تكشف بهذا الوضوح مدى اضطراب تفكير الأوروبيين الناتج عن غياب المعرفة النظرية بالجغرافيا لديهم، فما هي دلالاته العمليَّة في تاريخهم الحديث؟

نتج عن عدم فهم الأوروبيين لتغيُّر الوقت العالمي خلافات عديدة ثارت بينهم. ولفترة طويلة جداً لم يفهم أولئك الذين سُمُّوا (مكتشفون) كيف يتعاملون مع الوقت عندما يلتقون خارج أوروبا، فكان كل منهم يعدّ الأسبوع بمرجعية وطنه وكأنه يعيش فيه، مُنكِراً حقيقة وجوده في مكان آخر وزمان آخر. وهذا بعكس المسلمين الذين كانوا يعلمون أنَّ الوقت الصحيح في حال الانتقال إلى منطقة بعيدة هو حركة الشمس المحلية لا الوقت بمرجعية المكان الذي أقلع منه الشخص. ونتيجة لذلك تضاربت تواريخ وثائق الأوروبيين ومعاملاتهم التجارية

ويوميات رحلاتهم، واضطربت الأيام التي كانوا يؤدون فيها عباداتهم[11]. والمثال المدهش على ذلك هو خلافهم حول أيام الأسبوع في جزر الفِلبِّين التي غزوها، فالبرتغاليون والإسبان الذين اقتسموا أراضيها استمروا مختلفين على وقتها لأكثر من ثلاثمئة سنة. ففي كل من ماكاو وموناكو كانت كل جماعة تؤرِّخ لنفس الحدث بفرق يوم كامل عن الأخرى، فظلّ أسبوع هؤلاء مختلفاً عن أسبوع أولئك في منطقتين متجاورتين!

ذكر البحار البريطاني وليام دامبير (William Dampier 1651–1715) في يوميات رحلته التي دار بها حول الأرض أنَّه عندما وصل ساحل الفلبين في بداية سنة 1687م وجد الفلبينيين في مِندناو (Mindanao) يعدون الأيام بفرق يومٍ عنه لأنَّه كان يحسبها بمرجعية بريطانيا، حسب اليوم الذي أقلعت فيه رحلته. وفي الوقت ذاته وجد الإسبان في جزر اللادرون (lardoone Islands) القريبة من مِندناو يعدون الأسبوع بفارق يوم عن جيرانهم البرتغاليين، رغم وجودهم معهم على أرض الفلبِّين. ولكي يحسم دامبير الخلاف عاد إلى حساب المسلمين للوقت بمرجعيَّة يوم الجمعة، فكتب عن خلاف الإسبان والبرتغاليين حول يوم الخميس:

> **"كان يوم الجمعة لدى الهنود المحمديين [المسلمين]، الذي يخرج فيه السلطان إلى المسجد، هو يوم الخميس بالنسبة إلينا رغم أنَّه بالنسبة إلى الذين جاءوا من أوروبا عبر الشرق [البرتغاليين] كان هو الجمعة أيضاً [...] ولقد وجدتُ أنَّ سبب ذلك هو أنَّ الإسبان جاءوا من ناحية الغرب مثلنا"**[12].

---

11 أشار المؤرِّخ الإسباني خوسيه دا أكوستا إلى أنَّ صيام الأوروبيين كان مضطرباً في أميركا بسبب الفرق في التقويم، فكان الإسبان يفطرون بيوم قبل البرتغاليين.

12 https://webspace.science.uu.nl/~gent0113/idl/idl_philippines.htm
شوهد في يوم 26/11/ 2020، الساعة 20.

حدث ذلك الاضطراب للأوروبيين في نهاية القرن السابع عشر، أي بعد فترة طويلة ممَّا يسمِّيه المؤرِّخون الأوروبيون الثورة العلمية، وعلى أعتاب (ثورة العقل) أو عصر التنوير. ففي كل مكان خرج إليه الأوروبيون واجهتهم مشكلة جهلهم بأن الوقت العالمي يرتبط بتغيُّر المكان، وهي مشكلة كانت بسيطة جداً بالنسبة إلى أمم الشرق.

الأكثر إثارة للدهشة أنَّ التوقيت الإسباني في المناطق التي حكموها في آسيا لم يتغيَّر إلا في وقت قريب نسبياً، هو منتصف القرن التاسع عشر. فعندما قررت الحكومة الفلبينية توحيد التقويم في بداية سنة 1845م كان لزاماً على من يؤرِّخون بطريقة الإسبان، المتأخِّرة يوماً، أن يتخلّوا عن يوم ليتوافق توقيتهم مع الوقت الطبيعي للفلبين، وكان لا بدَّ للدولة من أن تتَّخذ قراراً عاجلاً. وبالفعل، أصدرت السلطات في يوم الاثنين الأول من يناير سنة 1845م قراراً بحذف اليوم التالي الذي عليه الخلاف، وهو الثلاثاء، ووجَّهت بأن يكون "اليوم التالي هو الأربعاء في كل البلاد بأمر الحكومة"! فكان قراراً "تاريخياً" بالمعنى الحَرفي لأنَّه غير مسبوق. وبهذه الطريقة الفريدة حُلَّت معضلة تاريخية عاشها الأوروبيون وفرضوا بها اضطراباً على التجارة والمعاملات في بلاد الشعوب الأخرى لمئات السنوات، بسبب تفكيرهم القائم على مركزية أوروبية عمياء جعلتهم لا يرون وجوداً لتقويم زمني خاص بالبلاد الأخرى.

إنَّ حقائق كهذه تدعونا إلى النظر في سيرة من سماهم الأوروبيون (مكتشفين)، لتفسير أنماط سلوكهم وخبراتهم التي منحتهم مكانة مُهِمَّة في تاريخ أوروبا بعد أن اتضح بعدهم عن المعرفة العلميَّة، فمن هو فرديناند ماجلّان وما الطبيعة الحقيقية لرحلته؟

كان ماجِلَّان قُرصاناً ناشطاً في سواحل شمال غرب أفريقيا، وعمل لصالح ملك بلده البرتغال في فترة حربه مع مسلمي المغرب، لكنه تخلى عنه بعد عملية

قرصنة سرق فيها قطيع ماشية من بعض الرعاة في الساحل المغربي، ومكرَ عليه الملك ولم يعطه نصيبه منها[13]. وبعدها توجَّه ماجِلَّان إلى إشبيلية ليعرض خدماته على ملك إسبانيا، وتقديراً لخبرته في الإبحار والقرصنة تعاقد معه الملك وزوَّده بخمس سفن فعمل لصالح إسبانيا ضد وطنه البرتغال، في وقت كان فيه النزاع بين البلدين مستعراً، وتعاقد معه على غزو الشرق مبحراً من جهة الغرب، كما سبق التوضيح. ولم يعتمد ماجِلَّان على معرفة بالخرائط، ولأنه هو وبحارته لم يكونوا يعرفون مسارهم نحو الجهة التي يقصدونها؛ كانوا يأسرون من يصادفهم من مواطني البلاد الساحلية، أو ركاب السفن المبحرة، ويجبرونهم على إيصالهم إلى المنطقة القريبة منهم تحت التهديد وبهذه الطريقة وصلوا إلى جُزر شرق آسيا.

تذكر يوميات الحملة أنَّ الإسبان شاهدوا من سفنهم بعض المواطنين الآسيويين على مركِب، وعرفوا من ملابسهم أنهم مسلمون، وأدركوا أنهم صاروا قريبين من جزيرة بورنو ذات الغالبية المسلمة، فاقتربوا من مركبهم مظهِرين حسن النية، ثم قفزوا على مركبهم واختطفوا ثلاثة منهم أجبروهم على إرشادهم إلى ميناء بورنو. وحينما وصلوه أبقوا اثنين منهم لاستخدامهم رهائن عند الضرورة، وأرسلوا بحَّاراً إسبانياً مع المُختطَف الثالث ليحصلوا على إذن بدخول الجزيرة، متظاهرين بأنهم يريدون التجارة. وبعد فترة قصيرة عاد الاثنان بإذن حدَّدت فيه سلطات الميناء نوع البضائع التي يُسمح بالتجارة فيها. وأرسلت مع الرسولين، بحسب المراسم الشرقية وباسم سلطان بورنو، مراكب تحرسها المدافع محمَّلة بماء الشرب والطعام للضيوف الإسبان. فرسوا قريباً من الميناء وبدأوا يتاجرون مع مواطني الجزيرة وبعض بحَّارة السفن الأخرى، لكن بعد عدة أيام دبَّ الخوف في قلوب الإسبان الذين لم يألفوا الثقة بالآخرين، فلما شاهدوا سفناً تقترب من الميناء فسَّروا الأمر على أنَّه مكيدة وبادروا بمهاجمة السفينة الأقرب

13 Pigafetta, Antonio; *The First* …, P. 36.

واختطفوا ركابها وكان عددهم سبعة وعشرون رجلاً وهربوا إلى عمق البحر[14]. وفي اليوم التالي رأوا سفينة أخرى فاقتربوا منها مظهِرين حسن النية أيضاً ثم هاجموها واستولوا على ما فيها، واختطفوا طاقمها. وكانت هذه السفينة لابن ملك جزيرة عرفوا أنَّ اسمها "لوكام" (Lucam) وبرفقته تسعون بحَّاراً، أخذوهم جميعاً رهائن وفيهم ابن الملك[15]. لا تفيدنا مدوَّنة يوميَّات الرحلة بمصائر المختطَفين، لكن من المعلوم أنَّ الذين يختطفهم الأوروبيون في ذلك الزمان كانوا إمَّا أن يُطلق سراحهم مقابل فديات مالية كبيرة، أو يؤخذوا إلى أوروبا ليُستعبَدوا هناك، خاصة إن كانوا مسلمين.

لم يكن الأوروبيون متقدِّمين على شعوب آسيا في تلك الفترة من حيث السلاح، فيوميات أسطول ماجِلَّان تؤكد أنهم وجدوا مراكب سلطات ميناء بورنو تحمل مدافع كبيرة ومتطوِّرة. لكن المواجهات العسكرية لا يحسمها تقدُّم السلاح والمواجهات النظامية التي تلتزم أخلاقيات الحرب، بقدر ما يحسمها مقدار العنف الغاشم وقدرة المعتدي على تحويله إلى ممارسة مدمِّرة ضد المجتمعات المدنية التي تعيش حياة استقرار. وهذا ما كان الأوروبيون يفعلونه، حسب وثائق رحلاتهم.

لم يحاول البحارة الإسبان والبرتغاليون فهم الشعوب التي كانوا يلتقونها، ولم ينتظروا أن تبدأ بالعداء، فكانوا في الغالب يبادرون بمهاجمتها في أوطانها. لقد تصوَّروا أنَّ علاقتهم بالآخرين لا يمكن أن تقوم إلَّا على العنف لأنهم كانوا قد خرجوا غازين للعالم بتصريح من البابا فيما سمَّاه "الحملات الصليبية"، التي حسَّنَ المؤرِّخون صورتها بتحويل اسمها إلى "رحلات تجارية" و"اكتشافات جغرافيَّة".

---

14 المرجع السابق. ص 20.

15 المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

في كثير من الأوقات التي استقبلتهم فيها الأمم بالحُسنى واستضافتهم بكرم بالغ، ردَّ الأوروبيون على تقاليد الضيافة بعنف أعمى، دونما ضرورة. وللتدليل على عدم إمكانيَّة تبرير الجرائم التي كان الأوروبيون يرتكبونها، يمكن تقديم المثال التالي: قبل وصول ماجِلَّان إلى الفلبين، هبَط مع طاقمه جزيرة صغيرة لشعب آسيوي أحسن استقباله، واستضافه هو وبحارته بحفاوة. وبينما كانت الوجبات تقدّم لهم لاحظ ماجِلَّان النشاط الواضح لشابين خدومَين، فقرَّر أن يأخذهما إلى ملك إسبانيا، باعتبارهما "عينة بشرية" للمناطق التي مرَّت بها حملته توضِّح أنواع الشعوب الموجودة في العالم الخارجي. تقول المدوَّنة الرسمية للحملة إنَّ ماجِلَّان أخرج قيوداً حديدية كان يحملها، وأوحى للشابين بأنَّها أساور معدنية يمكنهما أن يتزينا بها. ووصفت المدونة ما فعله ماجِلَّان كما يلي:

> **"لمّا كان يخاف أن يسبِّب [الشابان] ضرراً للبحارة إذا استُخدِمت القوة معهما، أعطاهما قيدَين حديديين نظر إليهما الشابان بإعجاب، فطلب منهما وضعهما على قدميهما ليذهبا بهما الى أهلِهما. فوضعمها الشابان، وهنا سارع البحَّارة إلى استخدام المطرقة لتثبيت القيدَين، فلم يستطع الشابان الحركة ... "**[16].

بعد أن أسرَ ماجِلَّان الشابَّين فكَّر في الحصول على عينة أنثوية أيضاً من مواطنات الجزيرة، فأمرَ رجلاً كان يشاهد ما يجري أن يأتي لأحد الشابين بزوجته التي كانت تقف على الساحل، ليأخذها مع زوجها الأسير. لكن الرجل الذي وعد ماجِلَّان بتنفيذ طلبه تصرَّف كما ينبغي، فأخذ المرأة وهرب بها بعيداً عن الساحل. لقد كان ماجِلَّان يتصرف مع الآسيويين وكأنهم ليسوا بشر.

بسبب استمرار هذا النوع من السلوك الذي ساد في السنوات التالية؛ عمّ الاضطراب كل مكان وطئه الاوروبيون في الشرق، فتدهورت مراكز التجارة

---

16 المرجع نفسه، ص 53 - 54.

البحرية، وتفكَّكت علاقات التبادل الثقافي، وتدهورت الأوضاع الاقتصادية. وكانت هذه التأثيرات السالبة تتناقض كليّاً مع الآثار الإيجابية التي بدأت تظهر على أوروبا نتيجة خروجها غازية للعالم، بسبب بدء تدفُّق ثروات العالم إليها. وهذا الطابع غير السوي، القائم على خلق أوضاع عدم التكافؤ بين شعوب العالم عن طريق تدمير قدراتها، هو الذي سيميِّز العصر الحديث حتى وقته الحاضر. وهذا ما ظلَّت تؤكِّده النصوص التي كتبها أهل الشرق عن الخراب الذي سبَّبته لهم حملات القراصنة الأوروبيين.

إنَّ مطالعة مذكِّرات الغزاة الأوروبيين تفضُّ وهم ما يسمى "الثورة الجغرافية" لأنَّها تكشف أنَّ وصولهم إلى البلاد البعيدة كان من أجل النهب والخراب، فمذكرات فاسكو دا غاما أيضاً تشير إلى أفعال عنف لا تقلّ همجيَّة عمّا تحويه يوميات ماجلان. وبسبب ذلك النوع من السلوك سقط كثير من الغزاة الأوروبيين إمّا قتلى أو أسرى تطلَّب تحريرهم شنّ مزيد من الحملات على الشرق، فصار الأوروبيون يختطفون من يصادفونه من المواطنين ليقايضوهم بالأوروبيين الذين عجَّت بهم سجون الشرق بسبب جرائمهم، فخشي التجَّار الإبحار ولزموا أوطانهم وانهارت أسواق التجارة في الشرق كله. وبالمقابل، كانت التجارة بين أوروبا والأميركتين تزدهر بعد أن استوطنها الأوروبيون وأبادوا شعوبها وفتحوا تجارتها وأسواقها أمام بلادهم.

للنظر في قصَّة الثورة الجغرافيَّة من منظور غير أوروبي، ومعرفة الكيفيَّة الي رأت بها شعوب الشرق انطلاقة أوروبا الحديثة، يمكن الرجوع إلى نصوص بعض مؤرِّخي الشرق الذين وصفوا الآثار التي ترتَّبت على ظهور البرتغاليين في بلادهم. لقد وضع المؤرِّخ الهندي زين الدين بن عبد العزيز كتاباً بين سنة 963 هـ وسنة 1013هـ، أي بين نهاية القرن السادس عشر الميلادي وبداية القرن السابع عشر الميلادي، سجَّل فيه تاريخ غزو البرتغاليين للهند بإضافة مشاهداته إلى ما كتبه بعض المؤرِّخين الذين سبقوه. ولأن الكتاب أُشتهِر في

الهند، تُرجِم إلى عدد من اللغات الأوروبية في القرن التاسع عشر[17].

يورد الكتاب تاريخاً غير الذي يورده المؤرِّخون الأوروبيون لرحلة فاسكو دا غاما، التي يقولون عنها إنَّها "اكتشفت" الطريق إلى الهند. يوضح زين العابدين أنَّ الرحلة لم تتمكَّن من ممارسة التجارة في الهند لأنها وصلت بعد موسم التجارة، ولم يكن الأوروبيون يعلمون بأن التجارة تنتظم في موسم بعينه، فعادت سفنهم دون أن تحقِّق ربحاً بعد أن بقيت عدة شهور. وحتى لا يعود دا غاما إلى أوروبا خاسراً من رحلته، مارس القرصنة والنهب على طول خط العودة. ويحصي المؤرِّخ الهندي من أفعال البرتغاليين في المناطق الطرفية من الهند الجرائم التالية: حرق القرى التي على السواحل، وقتل الرجال واختطافهم، وأسر من يمارسون العبادة من المسلمين، وحرق المصاحف، وتعذيب الذين يغتسلون بالماء، والبصق على وجوههم، وإجبارهم على السجود للصليب[18]. لقد كان البرتغاليون يكرِّرون في الشرق تصرُّفاتهم مع مسلمي أوروبا الأندلسيين، التي استمرت طوال القرن السادس عشر وحتى بداية السابع عشر. حيث كان الاغتسال بالماء يعدُّ عند الأوروبيين علامة كفر تدلُّ على أنَّ فاعلها يدين بالإسلام، ويجب أن يُعاقَب عليها بالتعذيب.

يقول المؤلف إنَّ القراصنة البرتغاليين ظلوا يترصَّدون رحلات حج المسلمين حتى امتنع نهائياً وصولهم إلى الأراضي المقدسة، فكانوا يقبضون عليهم ويقيدونهم بالسلاسل ويبيعونهم رقيقاً في أوروبا. وعن وصول البرتغاليين إلى مجموعة جُزر ماليبار يقول المؤرِّخ إنهم بمجرَّد هبطوهم ساحل جزيرة اسمها "شتيلاكم"، ودونما سابق احتكاك بالسكان، بدأوا قتلهم ونهب ممتلكاتهم لأنهم علموا أنهم مسلمون، فقد كانوا يلتزمون قواعد الحملات الصليبية وتوجيهات البابا بشنِّ الحرب على جميع المسلمين. وبعدها:

---

17 المعبري (زين الدين بن عبد العزيز): **تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتگاليين**، (حيدر آباد: مطبعة التاريخ، د. ت).

18 المرجع السابق، ص 28.

"نزلوا جزيرة أميني وقتلوا من أهلها جمعاً كثيرين وسلبوا منهم أكثر من أربعمئة نفس من رجالهم وإناثهم، ونهبوا أكثر ما فيها من أموال وأحرقوا أكثر بيوتها ومساجدها"[19].

يقول المؤلف إنَّ تلك الجُزر التي تعرَّضت لذلك العنف لم يكن سكانها أهل حرب، ولا سلاح لهم، حتى أنَّ بعضهم حاربوا الغزاة بالحجارة والعصي. ولم يكن ذلك لعدم معرفتهم بالسلاح وإنَّما لسيادة الأمن واستتبابه في المنطقة، ففي المدن الكبيرة كان الهنود يستخدمون السلاح الناري، وقد هزموا البرتغاليين أكثر من مرَّة، فصار هؤلاء يهاجمون القرى الساحلية ويتجنَّبون المدن القوية.

نتيجة لاستمرار العنف وتزايده على مدى قرن كامل، ضعفت الهند في نهاية القرن السادس عشر، خاصة مناطق المسلمين الذين قطع البرتغاليون اتصالهم التجاري بشبه جزيرة العرب وسواحل البحر الأحمر وشرق أفريقيا. وبسبب انتظام البرتغاليين في العنف الذي لم تألفه بلاد تعتمد على التجارة، التي بطبيعتها تتطلَّب أمناً واستقراراً، خشي الهنود إفساد مواسم التجارة فصالحوا البرتغاليين أكثر من مرَّة للحفاظ على الأمن، لكن تلك الجهود مُنيت دائماً بفشل ذريع، فقد أرَّخ المؤلف لخمس اتفاقيات صلح عقدها حكام الهند مع البرتغاليين، فشلت جميعها لأن الأخيرين كانوا يعتمدون الكذب وعدم الوفاء.

حسب قول المؤرِّخ الهندي كان البرتغاليون يغدرون حتى بمن يفي لهم بطلبهم، فالذين كانوا يدفعون لهم الرسوم التي يطلبونها عند المرور بالمناطق التي يحتلونها، كان يُسمَح لهم بالمغادرة، ولكن بمجرَّد خروج سفنهم من السواحل كان البرتغاليين أنفسهم يستولون عليها. كتب المؤرِّخ الهندي:

"ثم من سنة ستين [1060هـ] صاروا يعطون أصحاب المراكب الورقة عند السفر فإذا ظفروا بهم في الباحة أخذوا المراكب وما فيها وقتلوا من فيها من المسلمين شر قتلة ذبحاً وإغراقاً بربطهم بالحبال ..."[20].

---

19 المرجع نفسه، ص 42..

20 المرجع نفسه، ص 44.

ويضيف أنهم كانوا يستهدفون بشكل خاص شحنات البهار، خاصة الفلفل والزنجبيل. وتلك الشحنات التي كانت تؤخذ غصباً هي ما سماه المؤرِّخون تجارة أوروبية، لتصوير عمليات القرصنة تلك نشاطاً شرعياً.

لم تسلم الرحلات التي تحرَّكت في بحر العرب ولا حتى في سواحل شرق أفريقيا وبلاد العرب من هجمات الأوروبيين، فتعرَّضت جميعها لعنف مستمر جعلها منطقة يهاب التجار المرور بها. وفي مرة استولى البرتغاليون على سفينة تجارية إثيوبية قادمة من شرق أفريقيا، وحسبما كتب المؤرِّخ زين الدين:

> **"[أخذوا] جمعاً كثيراً من تجار الحبوش وألزموهم الرجوع إلى النصرانية، وآذوهم حتى تنصَّر أكثرهم ظاهراً وخرجوا منها بمال من الأموال ثم رجعوا إلى الإسلام بحمد الله، ولكن امرأة حبشية ألزموها بذلك أبت وامتُحِنت حتى قُتِلت بذلك"**[21].

يرصد المؤرِّخ تركيز البرتغاليين على أفعال التعذيب والقتل وإجبار المسلمين على الدخول في المسيحية، لأنَّ رحلاتهم تتم تحت غطاء المشروع الصليبي لغزو العالم وتحويل شعوبه إلى المسيحية بالقوة، وأنَّ الاستيلاء على السلع كان جزءاً من تلك الحملات، فلم تكن هناك لا عناية بتحقيق اكتشافات ولا بإقامة علاقات تجارية مع الشرق، وكان كل شيء يتم ضِمن مشروع غزو برَّرته الكنيسة.

الشيء الذي يؤكِّد أنَّ البرتغاليين لم يكونوا يستهدفون تحقيق معرفة جغرافيَّة، وأن كلمة (اكتشاف) استُخدِمت لتبرير الاستيلاء على أراضي العالم حسب توجيه بابوات روما؛ هو أنَّ الرحلات كانت تسجِّل كل ما يقوم به قادتها من قتل وعنف وتدمير ليُثابوا عليه من جانب السلطات الرسمية والكنسيّة، حيث كان الملوك يكافئون أصحاب تلك الحملات، وتغفر لهم الكنيسة جرائمهم.

---

21 المرجع نفسه.

فيوميات رحلة ماجِلَّان تُختَم بأن قائدها، بعد عودته إلى إسبانيا واطلاع الملك علي تقرير الرحلة، حصل على لقب رفيع ومكافآت مادية نظير ما حقَّقه من انجازات.

هذه هي الظروف التي ساهمت بها فترة الثورة الجغرافيَّة، التي تتركَّز في نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر، في إزاحة مركز النظام العالمي من الشرق إلى الغرب، أي من البحر الأبيض المتوسِّط إلى المحيط الأطلنطي. ونتيجة لذلك تراجعت مكانة المدن الإيطالية التي كانت تؤدي دور الوسيط بين تجارة بلاد الشرق وتجارة غرب أوروبا، وبالمقابل صعدت مكانة موانئ إسبانيا والبرتغال، ومدن بلاد غرب أوروبا المُطلَّة على الأطلنطي، مثل أمستردام ولندن. ومع نهب إسبانيا لذهب أميركا في الفترة نفسها، وتسرُّبه من أسواقها إلى جاراتها من البلاد الأوروبية؛ ازدهرت تدريجياً اقتصادات كل بلاد غرب أوروبا، وفي أقل من ربع قرن أحاطت البرتغال وإسبانيا بالعالم من جهتي الشرق والغرب.

عرضَ هذا الفصل مقتطفات من نصوصٍ تعود إلى فترة ما يُسمَّى (الاكتشافات) الجغرافية، ونظر في محتواها على ضوء السياقات التي كُتِبت فيها وتوصَّل إلى أنَّ مفهوم الثورة الجغرافية لا يشير إلى جهود علمية وإنما يشير إلى غزوات قامت على تضافُر عمل السلطات السياسية والدينية في أوروبا الغربية، من أجل الدفع بمشروع غزو العالم. وخلص الفصل إلى أنَّه بسبب غياب الأمن الذي تسبَّبت فيه حملات الغزو الإسبانية والبرتغالية تراجعت حضارات الشرق، وهُجِرت تقاليد التبادل الثقافي التي كانت مزدهرة فيها، وبالمقابل صعدت مكانة بلاد جنوب غرب أوروبا المطلة على الأطلنطي. وبذلك حقَّقت حملات الغزو نقلة مُهِمَّة لاقتصادات أمم غرب أوروبا، بكونها أخرجتها من هامش النظام العالمي ومنحتها مركزاً جديداً، سيتحوَّل بمرور الزمن إلى المركز الأساسي

والوحيد. ويُستخلَص من هذا أنَّ الرحلات البحريَّة المسمَّاة (اكشافات) لا تملك خارج أوروبا، وفي تاريخ غالبية أُمم العالم، إلّا دلالات سالبة تماماً. ويمثِّل الفصل التالي نهاية مسيرة تحليل خطاب الثورات، متناولاً تحولاً مبكِّراً شهدته أوروبا، يصفه المؤرِّخون الغربيون بأنَّه سبقَ الثورة الجغرافية ومهَّد لها، وهو الثورة التجاريَّة.

الثورة التجاريَّة: التحاقٌ بتاريخ الإغريق

الثورة التجارية هي أحدث ما دُبِّر في سلسلة الثورات الأوروبية، فقد اصطُنِعت في سبعينيات القرن العشرين، مع أنَّها تتناول التحوُّل الأكثر قدماً الذي يُقال إنَّه مهَّد لدخول أوروبا العصر الحديث. تُعرَّف الثورة التجارية بأنها تحوُّل شهدته المدن الإيطالية المطلَّة على البحر الأبيض المتوسِّط، خاصة جنوا وبيزا والبندقية وميلان، نقلَها من الاقتصاد الزراعي الذي ساد معظم بلاد أوروبا في العصور الوسطى إلى إقتصاد يقوم على تداول المال، مستنِداً إلى التجارة الخارجية والإنتاج الحِرَفي المتطوِّر. وهي تُعدّ لحظة جنينيَّة للنظام الرأسمالي الذي سيبدأ في غرب أوروبا، وتمهيداً لعصر النهضة.

يُحلِّل هذا الفصل بعضاً من النصوص الأساسية لمؤرِّخي الثورة التجارية، ليستخلص ملامحها ويعيِّن الطريقة التي صيغت بها صورة لها جعلتها لحظة تأسيسية في مسيرة صعود أوروبا. يبدأ الفصل بعرض مساهمات المؤرِّخين الذين ابتكروا فكرتها ويعارضها بوجهات نظر مفكِّرين آخرين، تبنُّوا مواقف نقديَّة تجاهها ليستخلص وظيفتها في الخطاب العام للثورات الأوروبية.

في النصف الثاني من القرن العشرين كتب المؤرِّخ الأميركي، الإيطالي الأصل، روبرتو ساباتينو لوبيز (Roberto Sabatino Lopez 1910–1986) كتاباً بعنوان (تجارة أوروبا في العصور الوسطى) صاغ فيه قصَّة الثورة التجارية[1]. يرى لوبيز أنَّ زيادة عدد السكَّان وتطوُّر الزراعة في العصور

1 Lopez, Robert S.; *The Commercial Revolution of the Middle Ages 950-1350*, (Cambridge, Cambridge University Press, 1976).

الوسطى أوجدا ظروفاً مناسبة في أوروبا لنمو اقتصادها، بما أنَّ وفرة الغذاء تساعد على توجه المال نحو السوق وتفرُّغ أعداد كبيرة من الناس للعمل في المهن المرتبطة بالبيع والشراء، مثل المحاسبة والصيرفة والإدارة، وبذلك تهيئ الظروف التي تنتعش بها التجارة وتتطوَّر في ظلها. وتساعد التجارة الحرفيين على ابتكار حلول جديدة لاحتياجات الحياة العملية، وبالتالي تهيء أوضاعاً مناسبة لتطوُّر الصناعة. هكذا تترابط حلقات التطوُّر الاقتصادي المتمركز حول التجارة لتؤدِّي في النهاية إلى ظهور رأسمالية صناعية، حسب رأى لوبيز الذي يقول إنَّ ثورةً تجاريةً حدثت في نهاية العصور الوسطى في المدن الإيطالية، التي كانت مهيأة أصلاً للنشاط التجاري بسبب موقعها على البحر الأبيض المتوسط، وأنها هي التي مهَّدَت لنشأة الرأسمالية الصناعية في أوروبا الغربية.

ربط لوبيز النمو السكَّاني والزراعي في بلاد أوروبا بتحوُّل ثالث ميَّز فترة الثورة التجارية، هو هجرة أعداد كبيرة من سكان الأرياف إلى المدن ساهمت في الدفع بإيطاليا إلى درجة أعلى من التمدُّن. فحسب رأيه، نمت التجارة أولاً بين الشرق البيزنطي والمدن الإيطالية، وبعد أن تركَّزت في الموانئ الإيطالية فترة من الوقت بلغت بقيَّة بلاد غرب أوروبا. من الناحية الزمنية، يضع لوبيز تلك التحولات بين القرنين العاشر والرابع عشر الميلاديَّين. ورغم أنَّه يربط توسُّع نطاق التجارة الإيطالية وتراكم ثروتها بالعلاقات مع العالم الإسلامي، إلا أنَّه يعتبر ذلك بداية تحوُّل الاقتصاد الأوروبي نحو النمو الداخلي، الذي سيمكِّن أوروبا من السيطرة على الأسواق العالمية في الفترة المتقدِّمة من تطوُّر الرأسمالية. هذه هي فرضية لوبيز التي بنى عليها قصَّة الثورة التجارية في المدن الإيطالية، ووافقه عليها آخرون، أبرزهم إرفنج ريموند الذي شاركه كتابة بعض كتبه.

لم يبدأ لوبيز إنشاء القصَّة من اللا شيء، فقد أشار مؤرِّخون آخرون إلى أهميَّة نمو المدن الإيطالية واعتبروها أساس عصر النهضة، منهم مؤرِّخ الفن

أرنولد هاوزر (Arnold Hauser 1892–1972). بحُكم التزامه منهجاً ماركسياً في فهم الظواهر الإجتماعية، رأى هاوزر أنَّ التحولات الثقافية التي شهدتها إيطاليا في عصر النهضة لا بدَّ أن يكون لها أساس اقتصادي، فقال إنَّ تحوُّلاً نحو التجارة حدث أولاً في المدن الإيطالية، ربطه بتحوُّل في المجتمع نتج عن ظهور تنظيمات نقابيَّة للحِرَفيين ساهمت في ترقية المهن وتحسين الصناعة[2]. ويوجد بين المؤرِّخين مَن يربط العصر الحديث بالعصور الوسطى دون أن يركِّز على فكرة الثورة التجاريَّة، فمؤرِّخ العلم جورج سارتون ألحق النهضة الإيطالية بالقرون الثلاثة الأخيرة من العصور الوسطى، أي بالفترة من القرن الثاني عشر إلى الرابع عشر، وهي قريبة من الحقبة التي نسبَ إليها لوبيز بدء الثورة التجارية[3].

لكي يثبت أطروحته، ركَّز لوبيز على تطوُّر التجارة المعتمدة على النقود والحِرَف، لأنها الأقرب إلى خصائص الرأسمالية الصناعية. وهو يرد تطوُّر الحِرف إلى ظهور التنظيمات المهنية التي في ظل علاقتها بمجتمع التجارة ستتحوَّل إلى مجتمعات صناعية إيطالية، ينتقل نظامها إلى بقيَّة بلاد غرب أوروبا لتتخذ شكل رأسمالية صناعية ناضجة عند القرن التاسع عشر. حسب لوبيز، تتطوَّر الحِرف إلى صناعات، ويرتقي الحرفيون بمهارتهم ليصبحوا عمَّالاً وتقنيين، أمَّا التجار فيتحوَّلون إلى رأسماليين نتيجة تراكم ثرواتهم. وتتكامل هذه العناصر الثلاثة، الاقتصادية والاجتماعية والتقنية، لتنتج مجتمع الرأسمالية الصناعية الذي يميِّز حداثة أوروبا.

إنَّ تبنِّي لوبيز، الإيطالي الأصل، لفكرة الثورة التجارية يجد تفسيره في انشغاله بتاريخ وطنه، فهو يُدين بعبارات صريحة إهمال المؤرِّخين الغربيين

2 Hauser, Arnold: T*he Social History of Art, Vol. II: Renaissance, Mannerism, Baroque,* (London and New York: Routledge, 1999).

3 Binton, Crane: *The Shaping of Modern Thought,* (Englewood Cliffs: Prentice Hall Inc, 1963). P. 22.

لتاريخ إيطاليا في العصر الحديث، ويقول إنَّ فكرة الثورة الصناعية التي تردّ فضل نشأة الرأسمالية الصناعية إلى بريطانيا وجدت اهتماماً كبيراً لعدم وجود باحثين خبيرين باقتصاد العصور الوسطى. ويطالب بأن تحظى التحولات التي جرت في مجال التجارة باهتمام أكبر، لأن تاريخ الرأسمالية الصناعية لا يمكن معرفته من دون معرفة كيف اكتسبت الملامح العامة للاقتصاد الرأسمالي خصائص الإنتاج الصناعي الذي يختلف عن غيره من أشكال الإنتاج الرأسمالي. ويؤكد لوبيز أنَّ توسُّع الأسواق وارتفاع معدَّلات الربح وتراكم رأس المال ونمو شبكة علاقات التبادل السلعي، تحقَّقت جميعها في المرحلة التجارية للرأسمالية، قبل أن تتحوَّل إلى صناعية.

عند تحليل خطاب الثورة التجارية لدى لوبيز يتَّضح أنَّه صاغ تاريخها انطلاقاً من اهتمامه بالفترة التي عاش فيها، وهي فترة ما بعد الحرب الأوروبية الكبرى الثانية (1945–1949م)، التي خرجت فيها إيطاليا خاسرة ومدمَّرة اقتصادياً. وتظهر عنايته برفع شأن تاريخ إيطاليا على تواريخ بلاد غرب أوروبا، وخاصة بريطانيا، في الوظائف التي يؤدِّيها خطابه من حيث علاقة الحدث بالزمن. يضع لوبيز بداية الثورة التجارية في القرن العاشر متخطيِّاً القرن الحادي عشر الذي تتَّخذه معظم النصوص التاريخية بداية للتحوُّل الاقتصادي في إيطاليا. وهذا التعمُّق في التاريخ يتيح له أن يجعل منها حدثاً غير مسبوق، إذ يقول: "هنا، لأول مرة في التاريخ، استطاع مجتمع غير متطوِّر أن يُطور نفسه إلى حد كبير بجهده الخاص"، ويستدل على اختلاف تلك الفترة عن كل فترات التاريخ البشري بأنها: "تُعتبر أساس التطوُّر الذي ما زال مستمراً في حضارة الغرب لفترة ألف عام"[4].

هنا يظهر دور فكرة الثورة التجارية في رفع مكانة تاريخ إيطاليا بين دول غرب أوروبا: فلأن الثورة التجارية ترتبط بعصر النهضة الإيطالية، الذي يُعدُّ

---

4 Lopez, Robert S.; *The Commercial* ..., P. vii.

مرحلة انتقالية نحو العصر الحديث؛ يدفع لوبيز فترة بداية العصر الحديث عميقاً في الماضي لتغطي الفترة الممتدة من القرن العاشر إلى السادس عشر. وبذلك تستولي إيطاليا على خمسة قرون من تاريخ العصر الحديث، وفي نفس الوقت يتضاعف عمر الحضارة الغربية، فبدلاً من خمسة قرون تبدأ بالقرن السادس عشر وتبلغ قمتها في القرن العشرين، يصبح عمرها ألف عام تبدأ بالقرن العاشر لتصل القرن العشرين. بهذا يبدو لوبيز محقًّاً عندما يصف الحضارة الغربية بأنها "أعظم حضارات التاريخ"، وتصبح الثورة التجارية الإيطالية اللحظة المؤسسة "لأعظم الحضارات"، حسب قوله السابق.

ألحق مؤرِّخ آخر، هو تروفر دين، تطوُّر الاقتصاد الأوروبي الحديث بتحولات المدن الإيطالية أيضاً، مركّزاً على أربعة عوامل هي: ظهور التنظيمات التي انتسب إليها الحرفيون الإيطاليون، وتطوُّر التقنيات المستخدمة في الحِرف والصناعات، واتساع تداوُل النقد في المدن، والنمو الكبير في أعداد سكانها. وهذه ملامح قريبة جداً من تلك التي ركَّز عليها لوبيز. يضيف تروفر فكرة التخصُّص رائياً أنَّ المدن الإيطالية في تلك الفترة تخصَّصت في صناعات بعينها لأغراض التصدير، فيقول إنَّ صناعة النسيج ازدهرت في فلورنسا وميلان وكرمونة وجنوا، ونمت صناعة السفن في بيزا والبندقية، أمَّا الصناعات المعدنية فقد تطوَّرت في ميلانو وبيرغامو، وارتقت أنظمة المحاسبة المالية وإدارة العمل التجاري في توسكاني. ثم يضيف إلى التحولات الاقتصادية تحولات اجتماعية، ملاحظاً أنَّ تطوُّر الحِرف أثَّر على القيم والعادات الاجتماعية فيما يخص تداول النقود. ولأن تعاليم الكنيسة كانت تُقلِّل من شأن المال وتسعى لأن تصرف عنه المتديِّنين، ساهم اتِّساع تداوُله في دعم التوجُّه نحو القيم الدنيوية وتخفيف أثر التديُّن على الحياة العامة. وحسب رأي تروفر، أتاحت الثروة لفئة التجار اكتساب المظهر الاجتماعي لطبقة النبلاء وتبنِّي أسلوب حياتها،

وبدوره ساعد تشابُه المظهر والعادات على تحقيق قدر من التداخل بين فئات المجتمع، فتراجَعَ الفصل الحاد بين طبقات المجتمع، الذي كان يميِّز العصور الوسطى[5]. وهذا التصوُّر عن النتائج الاجتماعية للثورة التجارية يربطها أكثر ببداية الرأسمالية، التي يميِّزها المؤرِّخون عن الفترة الإقطاعية بظهور حراك اجتماعي أتاح لمختلف المواطنين المشاركة في اقتصاد السوق لاستثمار مالهم في ما يحقِّق الربح، بغضِّ النظر عن الطبقة التي ينتمون إليها.

كما هو الحال مع خطاب لوبيز، يحتكم خطاب تروفر إلى مخطَّط يهدف إلى استنتاج الفترة المتأخرة في تاريخ أوروبا، وهي فترة الرأسمالية الصناعية؛ من الفترة السابقة لها التي تقوم على النشاط التجاري. وبتأثير هذا التخطيط المسبق كان تروفر يبحث دائماً عن صلات بين الفترتين، ومن الطبيعي أن يعثر عليها حتى وإن كانت واهية. ويظهر هذا في مصادر الأدلة التي يستدل بها على حدوث ثورة تجارية، فهو من حيث الوثائق يعتمد على سجلات تجار إيطاليين في سنة 1397م، تورد معلومات عن اتساع صناعة غزل الصوف ونسجه، وتقتصر على أنواع بضائعهم[6]. لكن سجلَّات البضائع وحدها لا تدل على تحولات التجارة الخارجية، المتنوعة الجوانب. إنَّ مراجعة وثائق أخرى تخصُّ فترة سابقة على الفترة التي يتركز عليها عمل تروفر، توضِّح أنَّ العوامل الأكثر تأثيراً في الأوضاع التجارية للمدن الإيطالية كانت وثيقة الصلة بتجارتها مع مناطق الشرق بأكثر مما تشير إليه نصوص مؤرِّخي الثورة التجارية.

في المجال المالي كانت طرق توثيق المعاملات ونُظم التعاقدات ونِسَب تقسيم الأرباح قد تبنَّاها الإيطاليون عن الشرق. يظهر ذلك في أنَّ طرق إجراء العمليات الحسابية تطوَّرت في أوروبا مع بدء اعتمادها على الأرقام العربية

5 Dean, Trevor (ed.); *The Towns of Italy in the Later Middle Ages,* (Manchester and New York: Manchester University Press, 2000). P. 129.

6 المرجع السابق، ص. 120.

ونظام العد العشري، فقبل ذلك ظلَّت الحسابات التجارية متأخرة في أوروبا بسبب استخدام الأرقام اللاتينية التي لم تتح إجراء عمليات حسابية معقَّدة تتطلبها التجارة الكبيرة. حدث ذلك التطوُّر في القرن الثالث عشر، حين أوضح العالم الإيطالي ليوناردو فيبوناتشي (Leonardo Fibonacci of Pisa) في سنة 1203م كيف يستخدم العرب النظام العشري الذي أخذوه عن الهنود[7]. وفي الوقت ذاته كانت المعاملات البنكيَّة في إيطاليا قد بدأت تتطوَّر نتيجة التعرُّف على نظام الائتمان العربي. هذه التأثيرات العربية تشير إلى أنَّ تجارة المدن الإيطالية كانت تجارة وسطاء بين الشرق وبلاد غرب أوروبا، وأنها لم تصبح معتمدة على المصنوعات الإيطالية إلا قريباً من القرن الرابع عشر، أي قُرب بداية عصر النهضة. وهذا يتعارض مع القول بأن ثورةً تجاريةً كانت قد حدثت آنذاك، وأنها سبقت عصر النهضة ومهَّدت لظهوره.

مؤخراً انتُقِدت الطريقة التي يفهم بها المؤرِّخون ماضيهم انطلاقاً من الحاضر. إنَّ مؤرِّخاً مثل جورج دوبي (Georges Duby) يحاول أن يدرس علاقات الانقسام والصراع في أوروبا في القرون الوسطى من دون أن يفترض أنَّ مجتمعاتها تُشكِّل كُلاً يتطوَّر نحو وجهة واحدة، فهو يركِّز على تنوع مساراتها. وهو بهذه الطريقة ينزع عن فترة العصور الوسطى المتأخرة، التي تُنسب إليها الثورة التجارية، اليقين بأنها تتجه نحو غاية محدَّدة هي مولِد النظام الرأسمالي[8]. يركِّز دوبي على ثلاث قوى اجتماعية ساهمت في تسيير الاقتصاد الأوروبي في تلك الفترة، وأثَّرت تفاعلاتها على الصراعات التي دارت حول مِلكيَّة الأرض، وهي: فئات العسكريين، والمزارعين، ورجال الكنيسة. وحسب

7 Watt, Montgomery; *The Influence of Islam on Medieval Europe,* (Edinburg: the University Press of Edinburg,). p. 59.

8 Duby, Georges; *The Early Growth of the European Economy: Warriors and Peasants from the Seventh to the Twelfth Century,* (Ithaca-New York: Cornell University Press, 1997).

رأيه، فإنَّ الفترة الواقعة بين القرنين السابع والثاني عشر الميلاديَّين التي سبقت الثورة التجارية، شهدت هجرات أوروبية مستمرة تشكَّلت بعدها الأُمم والجماعات الأوروبية المختلفة، وفي هذه الفترة بلغ انتشار المسيحية مداه. ويصف هذه الفترة بأنها تتميَّز بغياب المعلومات التاريخية بسبب عدم معرفة غالبية الأوروبيين بالكتابة، وافتقارهم إلى تقاليد التدوين والتوثيق آنذاك. ويستنتج أنَّ المؤرِّخين لا يجب أن ينظروا في فترة العصور الوسطى بمعايير التاريخ الحديث، مفضِّلاً دراستها بطرق إثنوغرافية تقارب الطريقة التي تُدرَس بها المجتمعات غير المتطوِّرة في العصر الحديث. هنا تتراجع أهمِّية دراسة ظواهر التجارة والمال، وتفقد فكرة الثورة التجارية وظيفتها، وتظهر حاجة إلى تفاسير متعدِّدة بتعدُّد المجتمعات التي تترابط تواريخها حول اللحظة المراد تفسيرها. وبهذه الطريقة يقدِّم دوبي مثالاً جيداً للكيفية التي يُسهم بها تغيُّر المنظور التاريخي في تغيير محتوى القصة، وتفسير أحداثها من غير تمركُز حول تاريخ مجتمع معيَّن.

توجد منطقة وُسطى بين المقاربة التي تمنح الأرض مكانة مُهِمَّة في صعود أوروبا الاقتصادي والمقاربة التي تمنح تلك المكانة للتجارة، وهي منطقة يمكن العثور فيها على تصور أكثر اعتدالاً لما جرى في أوروبا العصور الوسطى وأنتج نظامها الحديث. فالمؤرِّخ الاقتصادي إريك وولف يرى أنَّ تحالفاً نشأ بين طبقتين اجتماعيتين في القرون الوسطى المتأخرة، هو الذي أتاح لأوروبا أن تتحوَّل من منطقة ذات اقتصاد هامشي إلى منطقة تركُّز للثروة، وهما: طبقة مُلَّاك الأرض الذين تمتّعوا بقوة عسكرية فرضوا بها نظاماً خِراجياً صارماً على الشعوب الأوروبية، وطبقة التجار الذين عملوا على تحويل فائض ذلك النظام الخراجي إلى ربح عن طريق توسيع نطاق تداول المال[9]. حسب رأي وولف استمرت هذه الطريقة التي تزايد فيها التوجُّه نحو مراكمة المال حتى نهاية القرن

9 Wolf, Eric R. : *Europe*…. P. 123.

الحادي عشر وبداية الثاني عشر، حين بدأت بعض الموانئ المطلَّة على البحر الأبيض المتوسِّط تتطوَّر إلى مدن تجارية نشطة، منها جنوا وبيزا والبندقية التي توسَّعت تجاراتها نتيجة مواقعها التي تتوسَّط بلاد الشرق ومنطقة غرب أوروبا.

بالرغم من أنَّ تصور وولف يعطي أهمِّية أيضاً لتطوُّر تجارة المدن الإيطالية، إلَّا أنَّه لا يتَّخذها منعطفاً حاسماً في ظهور الرأسمالية ولا يضفي على ما أحدثته صفة الثورة، وهو يزيحها أيضاً من اللحظة المبكرة التي وضعها فيها لوبيز، وهي القرن العاشر، ليضعها في لحظة قريبة من عصر النهضة، هي القرن الثاني عشر. الشيء الذي يدعم رأي وولف حول دور التحالفات في تلك الفترة، أنَّ تاريخ أوروبا شهد في المرحلة التالية التي ستعقب انحلال التحالف المشار إليه، تحالفاً آخر كان له شأن كبير في أن تبدأ أوروبا الغربية غزو العالم في القرن السادس عشر. فبعد انحلال النظام الإقطاعي– الخراجي، وضعف قوة حِلف التجَّار ومُلَّاك الأراضي؛ برز تحالف جديد أوسع نطاقاً حلَّت فيه سلطة الدولة القومية محل سلطة الحكام العسكريين، وتضامنت فيه ثلاثة أطراف، هي: الدولة والتجَّار والكنيسة. وهو تحالف سيلعب دوراً مهماً في صعود أوروبا نحو العصر الحديث، لا يشير إليه المؤرِّخون الذين نوقشت أعمالهم هنا.

في ذلك الوقت كانت البرتغال وإسبانيا قد منحتا التجَّار الذين ساهموا في تمويل الحملات الاستعمارية حق احتكار الأنشطة التجارية في المناطق التي كانت تتم السيطرة عليها. ومن جهتها، استخدمت الكنيسة سلطة محاكم التفتيش لتحقيق مصالح اقتصادية كبيرة في المستعمرات، خاصة في الأميركتين، فتوَّلت إدارة الأمور الدينية واحتكرت مَهمَّة نشر المسيحية ومراقبة المجتمع وأنشطة الثقافة وإقامة المؤسسات التعليمية، وامتلكت الأراضي الخصبة والمزارع الواسعة، ونتيجة لذلك راكمت الكنائس أموالاً كثيرة. وبهذه الطريقة ورِثَ تحالف

الدولة والكنيسة والتجار سلطة التحالف القديم، الذي كان قائماً بين المؤسسات الإقطاعية والأنظمة المَلَكية، فصارت الدولة والشركات التجارية، المسنودة بالكنيسة، المستفيد الأول من تطوُّر النظام الاستعماري. ولم يكن قيام هذا التحالف ممكناً على أساس اقتصاد السوق لأنَّه لم يكن قد ساد أوروبا آنذاك، لكنه صار ممكناً بعد أن فوَّضت الكنيسة السلطات الأوروبية بتملُّك المستعمرات، واقتسامها معها. واقتضى ذلك تحقيق تسامح بين مختلف الجماعات الدينية لتكوين أمم أوروبية يُوجد بينها تعايش سلمي، في الحد الضروري.

إنَّ فكرة تطوُّر التحالفات بين الجماعات التي دعمت الغزو الأوروبي للعالم تجد أساسها لدى المفكِّرين الذين درسوا الظروف التي سادت عموم بلاد أوروبا الغربية، ولم يعطوا المدن الإيطالية خصوصيَّة في نشأة الرأسمالية. يرى ماركس، الذي أخذ أساليب تراكم الثروة مدخلاً إلى دراسة الرأسمالية؛ أنَّ تطوُّر الحرف اليدوية في الحواضر وظهور التنظيمات الحِرَفيَّة في عدد من مدن أوروبا، ساهم في تطوُّر المرحلة الأولى من الرأسمالية التجارية عن طريق تحويل العمل إلى موضوع تبادُل[10]. ويرى أنَّ المدن الإيطالية كانت جزءاً من منظومة موانئ أوروبية كثيرة ساهمت في عملية تحوُّل التنظيمات الحرفية، فيقول عنها:

> **"الأشكال التاريخية الأصلية التي ظهر فيها الرأسمال– أولاً بصورة متقطعة ومحلية– إلى جانب أنماط الإنتاج القديمة، والتي فجّرت هذه الأخيرة تدريجياً، هي المكوِّنة للمانيفاتورة بالمعنى الدقيق (...). تظهر المانيفاتورة حيث يتوافر الإنتاج على النطاق الكبير من أجل التصدير والسوق الخارجية، فيكون أساسها بالتالي التجارة البحرية والبرية الواسعة النطاق، وتقوم في**

10 كارل ماركس: **أشكال الانتاج ما قبل الرأسمالية** (بيروت، دار ابن خلدون للطباعة والنشر، 1981). ص 97.

مراكز هذه التجارة، مثل المدن الإيطالية، والقسطنطينية، والمدن الفلمنكية والألمانية، وبعض المدن الإسبانية، برشلونة مثلاً ... إلخ"[11].

بالنسبة إلى ماركس، لم يحدث في المدن الإيطالية تحوُّل يمثِّل "ثورة" حقَّقت تراكماً في المال. وهو لا يتردد في وصف الرأي القائل بارتباط نشأة الرأسمالية بتراكم النقود، بأنَّه "لا يوجد ماهو أكثر غباء منه"[12]. أمَّا ماكس فيبر فيرى أنَّ الأخلاق الدينية البروتستانتية، وخاصة الكالفنية، هي التي لعبت الدور الحاسم في تحوُّل أوروبا الغربية إلى الرأسمالية[13]. وإلى جانب هذين الرأيين اللذين سادا منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، برزت آراء معاصرة أخرى، مثل الرأي القائل إنَّ تحوُّل الوعي الاجتماعي وبروز الأيديولوجيا في أوروبا الغربية هو الذي لعب الدور المهم في ظهور الرأسمالية[14]. في هذه المقاربات الثلاث لا تُشكِّل تحولات الأوضاع التجارية في المدن الإيطالية نقلة حاسمة في تاريخ الرأسمالية. وعلى عكس القول بتحوُّل داخلي في تاريخ أوروبا تسبّب في نشأة الرأسمالية، أشار ماركس في فقرة لامعة، إلى أنَّ بداية الرأسمالية وصعود مكانة أوروبا في التاريخ الحديث ارتبطا بجملة أنشطة مدمِّرة، مارسها الأوروبيون خارج أوروبا، فكتب:

"إنَّ اكتشاف الذهب والفضة في أميركا، واسترقاق وقبر شعب أستراليا في المناجم، وتدمير ونهب الهند الغربية، وتحويل أفريقيا إلى ساحة قنص للسود والمتاجرة بهم، هي التي ترسم علامات فجر الإنتاج الرأسمالي"[15].

---

11 المرجع السابق، ص 100.

12 المرجع نفسه، ص 98.

13 دونالد ماكري: **ماكس فيبر**، ترجمة أسامة حامد، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1975). ص 68.

14 دونالد ر. كيلي: **بدء ...**، ص 315 وما بعدها.

15 يقتبس ماركس هنا من كتاب بعنوان "Colonization and Christianity"، للكاتب وليم هويل، وهو أحد الذين عملوا على كشف الطابع اللا إنساني للتوسع الأوروبي. انظر:

Marx, Karl: *Capital*, (Moscow, Progress Publishers, 1970), p. 705.

مقابل هذا الرأي، يرى مؤرِّخو الثورة التجارية أنَّها كانت مفتاح صعود أوروبا، لأنها استهلت التحول الأهم الذي بدأ في القرن الرابع عشر وشمل مجالات الفن والأدب والفلسفة وعلوم الطبيعة والتقنية، وهو عصر النهضة. وبهذا يرسمون صورة غنيَّة بالتفاصيل لتحولٍ طويل الأمد، بدأ بالقرن العاشر أو الحادي عشر واستمرّ إلى القرن السادس عشر. ولأن المؤرِّخين يقولون إنَّ السمة المميِّزة لعصر النهضة كانت هي رجوع الأوروبيين إلى علوم الأغريق واستعادتها بعد أن انقطعوا عنها فترة طويلة؛ فإنَّ كل الحقبة الممتدَّة من الثورة التجارية إلى بداية العصر الحديث تُقدَّم بوصفها نتاج حراك داخلي للتاريخ الأوروبي. هذا التحوُّل تمثِّل الثورة التجارية مقدِّمته ويشكِّل عصر النهضة قمَّته، ويمثِّل الوصول إلى أميركا والهند نتيجته. وهكذا يُصوَّر اجتياح أوروبا لبلاد العالم كنتاج لدينامية مجتمعاتها، ولا تظهر في هذه الرواية أيَّة مساهمة للحضارات العالمية في الشرق أو الجنوب التي عاصرت مولِد أوروبا الحديثة.

في الواقع كان لحضارات الشرق، خاصة حضارة شرق وجنوب المتوسِّط، أثر بالغ الوضوح على التكوين المديني لإيطاليا في حقبة التحوُّل التجاري لموانئها، وعلى التكوين الثقافي لفناني ومفكِّري ما يُسمَّى عصر النهضة. لقد كان الملمح المميِّز لفكر ذلك العصر هو عُمق اتصاله بفكر المسلمين الذي اختلف عن الفكر المسيحي بأنَّه لم يتضمَّن تعارُضاً بين الحياة المادِّية والحياة الروحية، أي التمتع بالدنيا والنجاة في الآخرة. وتوافقت هذه السمة المميِّزة لفكر المسلمين مع ميل فناني وأدباء ومفكِّري القرن السادس عشر الأوروبيين إلى إبراز مكانة الإنسان في الحياة الدنيويَّة. والمثال البارز هنا هو موقف الفيلسوف الإيطالي بِكو دلّا مِراندولا، الذي يُعدُّ رمز التوجُّه الفكري الذي عُرِف باسم "الحركة الإنسانية" (humanism) في إيطاليا. لكي يؤكد مبدأ كرامة الإنسان الذي اعتمدت عليه أفكار الإنسانيين؛ استشهد مِراندولا بالفكر العربي في بداية أهم نصوصه الفلسفية (خُطبة حول كرامة الإنسان)، الذي ناقش فيه نظرة

الكنيسة للإنسان، مدافعاً عن كرامته وجدارته بأن يُقدَّر ويُحترَم في الدنيا[16]. كان ميراندولا قد أخذ، هو وإنسانيون آخرون، عن مصادر عربية شيئاً من الفلسفة الإسلامية وشيئاً من معارف شرقية هرمسية[17]. في ذلك الوقت لم يفصل أوروبيو القرن الخامس عشر بين الفكر العربي والشرقي والإغريقي، فرأوا أنهم إرث واحد يحق لهم الأخذ عنه[18]. لكن هذه الحقيقة هي ما تسعى قصَّة الثورة التجارية للتعتيم عليها بأن تختلق مسار تطوُّر أوروبي يصدر عن منابع معزولة عن حضارات العالم الأخرى، التي استمر أوروبيو العصور الوسطى يتفاعلون معها حتى بداية العصر الحديث.

كما سبق القول، تباينت تفاسير المؤرِّخين الأوروبيين لبداية العصر الحديث بحسب انتماءاتهم القومية وتواريخهم المحلية، فرفع الألمان مكانة عصر التنوير واحتفى الفرنسيون بالثورة الفرنسية وعظَّم البريطانيون شأن الثورة الصناعية، وبالمقابل كان من الطبيعي أن يرفع المفكِّرون الإيطاليون مكانة الثورة التجارية وعصر النهضة، بحكم أنهما منسوبان إلى إيطاليا. ولم يقتصر ذلك على مساهمة لوبيز وحده، فقد ابتكر المفكِّر الإيطالي الماركسي أنطونيو غرامشي تعبير (الثورة السلبيَّة) لتفسير تراجُع موجة الثورات الأوروبية في مرحلة ما بعد الثورة الفرنسية التي تميَّزت، حسب رأيه، بخمود الحماس الثوري في أوروبا كلها بعد هزيمة الطبقة العاملة الفرنسية في ثورة 1848م، وتعمَّق هذا الخمود بعد فشل كومونة باريس في سنة 1871م. ويقصد غرامشي بتعبير الثورة السلبيَّة

---

16 Mirandola, Giovanni Pico Della: *Oration on the Dignity of Man*, (Chicago: Gate Way, 1956).

17 هرمس هو حكيم وراهب مصري، يُقال إنَّه عاش بين القرن الأول والثاني الميلادي، لوّنت أفكاره بعض آراء مسلمي العصور الوسطى، رأى أنَّ الإنسان خُلِق مكرَّماً ولم يُطرد من العناية الإلهية، كما في التراث اليهودي. انظر:

Kinsman, Robert (ed.); *The Darker Vision of the Renaissance: Beyond the Fields of Reason,* (Los Angles: University of California, 1974). P. 101.

18 تييري هنتش: **الشرق ...**، ص 97.

احتفاظ الطبقة البرجوازية بالقدرة على تحقيق تحولات اجتماعية وسياسية تقلِّل فاعلية الطبقة العاملة وتفرض عليها تبعية تحقِّق للبرجوازية مكاسب تاريخية، وفي ذات الوقت تحقِّق مكاسب للطبقة العاملة[19]. لم يكن مفهوم الثورة السلبيَّة يصف تحولات بعينها بقدر ما كان يصف الفترات التي تخلَّت فيها تلك الشعوب عن صنع التحوُّل وفق التصوُّر التقليدي للثورة. وفي مقابل الثورة التي تستهدف السيطرة على جهاز الدولة بالقوة يقترح غرامشي تقويضاً تدريجياً لهيمنة الطبقة البرجوازية، ينزع عنها إمتيازاتها عبر تحوُّل ثقافي في المجتمع ينقل السلطة إلى الطبقة العاملة[20]. ويكشف مفهوم غرامشي للثورة عن الحاجة إلى تعبئة فترة ما بعد الثورة الفرنسية بدلالات تقلِّل من فشل الثورات في تحقيق شعاراتها. وتوصيف تلك الفترة بأنَّها سلبيَّة يرجح أنَّ ما نسبَه المؤرِّخون إلى الثورة الفرنسية من اتِّساع تأثيرها الذي قِيل إنَّه شمل أوروبا والعالم الخارجي؛ كان مصدره نزعة التمركُز حول بلاد شمال غرب أوروبا واهمال بقية البلاد الأوروبية، بما فيها إيطاليا.

تلخيصاً لما سبق؛ تناول هذا الفصل نماذج من نصوص مؤرِّخي الثورة التجارية أوضحت أنَّ تاريخها دُبِّر في ظروف تنازُع أمم غرب أوروبا على الاستئثار بالتاريخ الحديث، وأنها صِيغت في مقابل الثورة الصناعية المنسوبة إلى تاريخ بريطانيا. وأَبانَ الكيفية التي صاغ بها خطاب مؤرِّخيها صورة تحوُّل جذري حدث في مجال التجارة، بهدف تقليل فارق الألف وخمسمئة عام الفاصلة بين الفترة التي بدأت أوروبا الغربية تصعد فيها مع القرن الخامس عشر، وفترة ازدهار حضارة الإغريق والرومان في بداية القرون الميلادية.

---

19 انظر:

Thomas, Peter Thomas: Modernity as "Passive revolution": Gramsci and the Concept of Historical Materialism", *Journal of Canadian Historical Association*, vol. 17, no. 2, (2006). 61-78. pp. 68-70.

20 Adamson, Walter L. : Beyond "Reform or Revolution": Notes on Political Education in Gramsci, Habermas and Arendt, *Theory and Society* , vol. 6, no. 3 (Nov., 1978). 429-460. P. 430.

القسم الرابع

عصر حديث بلا ثورات

مولد فكرتَي الثورة والحداثة

تتبَّعت الفصول السابقة سلسلة الثورات الأوروبية واحدة بعد أخرى، ولم يتبيَّن وجود حدث أو لحظة شهدت تحولاً حاسماً في تاريخ أوروبا الداخلي يبرِّر إقامة قطيعة بين العصر الحديث وما يسميه المؤرِّخون العصور الوسطى. ولما كانت معظم قصص هذه الثورات قد دُبِّرت في القرن التاسع عشر؛ يبقى من الضروري التعرُّف على مفهوم التاريخ وتصوُّر المؤرِّخ لمهمَّته في ذلك القرن، لأنَّ تحولاً معيناً لا بدَّ أنَّه حدث في أوساط منتجي المعرفة التاريخية في أوروبا، أتاح لفكرة الثورة أن تلعب دوراً لديهم، يعينهم على الاستجابة لأسئلة عصرهم ويخدم انشغالات مجتمعاتهم.

يُعدُّ القرن التاسع عشر الفترة المناسبة لدراسة علامات اكتمال وعي أوروبا الغربية بذاتها من جهة انتقاله من إدراك ضِمني إلى وعي صريح، لأنها الفترة التي شهدت انبثاق وعي ذاتي جديد نظر فيه الأوروبيون إلى مجتمعاتهم على أنَّها تحقِّق تقدُّماً يصدر عن تاريخها الداخلي، فالأوروبيون لم يروا في تلك الفترة قوَّة سواهم قادرة على التأثير في العالم والتحكُّم بشعوبه. ولأن ظهور ذلك الوعي ارتبط بتصوُّر التاريخ كحركة تقدُّم مستمر، فإنَّ فهمَ خطاب الثورات يتطلَّب التعرُّف على تحولات فكر القرن التاسع عشر، الذي يُقال إنَّه هو أيضاً عاش (ثورة) لم تتناولها الفصول السابقة، هي الرومانسية (Romanticism).

يستهدف هذا الفصل معرفة كيف أمكن لفكرة الثورات أن تزوِّد المؤرِّخين الأوروبيين بأداة تفسيرية أتاحت لهم تدبير قصَّة صعود أوروبا، التي نسبت إليها انبعاثاً من ذاتها واستبعدت ما مارسته من سيطرة على الأمم الأخرى. يركِّز الفصل على أثر الفلسفة التاريخية في إعطاء أوروبا دور الذات المحرِّكة للتاريخ العالمي، والصانعة لمرحلة يُعتقَد أنَّها فريدة في مسار تطوُّر البشرية، هي مرحلة الحداثة.

اعتماداً على مفهوم الحداثة، يمكن تقسيم تاريخ أوروبا إلى ثلاث فترات: تمتد الأولى من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن التاسع عشر، وهي فترة الحداثة التاريخية (modernity). وتمتد اللحظة الثانية من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين وهي لحظة وعي أوروبا بالحداثة، وتبدأ بظهور مفهوم "الحداثية" (modernism). وتمتد الفترة الثالثة من منتصف القرن العشرين إلى بداية الألفية الثالثة، وهي فترة نقد الحداثة، والتي تُسمَّى أيضاً "ما بعد الحداثة" (postmodernism). والأخيرة هي فترة ظهور أزمة الحداثة، واللحظة التي طُرح فيها محتواها للتساؤل، وقد جاءت بعد تفكُّك امبراطوريات أوروبا الغربية في منتصف القرن العشرين، وتخلُّص مستعمراتها من السيطرة العسكرية–الإدارية وتحوُّلها إلى سيطرة عبر المعرفة.

فيما بين هذه الفترات تتداخل الملامح، ففي الوقت الذي تبدأ فيه فترة معينة بالانحسار تبدأ ملامح الفترة التالية في الظهور، فلا وجود لما يفصل بينها بطريقة قاطعة. ولفهم وظيفة قصَّة الثورات الأوروبية، يجب الرجوع إلى اللحظة التي وُظفت فيها فكرة الثورات في مجال التاريخ متزامنة مع مولد مفهوم الحداثية في منتصف القرن التاسع عشر، الذي ظهرت فيه تأثيرات الرومانسية. وهذه العناصر الفكرية الثلاثة (العنصر الحداثي والثوري والرومانسي) تترابط عند الفيلسوف الألماني هيغل (Georg W. Friedrich Hegel 1770–1831)

بأوضح ما يكون في فكرته عن التاريخ العالمي، التي كان كانط قد وضع أُسسها قبله[1].

لقد هضم هيغل فكر التنوير والرومانسية بطريقة نقدية أوجدت منهجه الجدلي الذي سيؤثر فيما بعد بطريقة حاسمة على فهم المؤرِّخين الأوروبيين لوظيفتهم. ومع انحسار فكر التنوير في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر كانت الرومانسية قد أصبحت حركة فكرية عمّت معظم بلاد غرب أوروبا، وشملت مختلف مجالات الدراسات الإنسانية من أدب وفن وفلسفة، فأثّرت على المعرفة الأوروبية إلى حدٍّ أنَّ بعض المؤرِّخين يعتبرونها الثورة التي أنجبت العلوم الاجتماعية والإنسانية. وقبل الدخول إلى فكر هيغل والنظر في أثره على صياغة مفهوم الحداثة، لا بدَّ من التعرُّف على المعالم الرئيسية للحركة الرومانسية.

حتي بدايات القرن الثامن عشر كان لفظ رومانس (romance) يُستخدَم في مجال الأدب لموضوعات الطبيعة الجميلة التي تثير الإعجاب والتعاطف. وبالتدريج، أصبحت الكلمة في نهاية القرن تُستخدَم للشِعر الذي يميل إلى التوحُّد بالطبيعة ويجعلها تنطق بأحاسيس الشاعر وانفعالاته وتحولاته النفسية، فرفعت مكانة الطبيعة حتى نظر إليها الفنانون والأدباء ككائن حي، واحتفت أيضاً بالعاطفة والمخيِّلة ودور العبقرية الفردية. ومع بداية القرن التاسع عشر صار الألمان يستخدمون اللفظ بمعنى نقدي يخص عناصر الرؤية الفنية، فاقترب معناه من الفكر التأملي والفلسفي. ومن حيث المحتوى الفكري، مثَّلت

---

1 على المستوى التاريخي، يرتّب هيغل عناصر الوعي الكلي بوصفها تتضمَّن العنصر الكلاسيكي والرمزي والرومانسي. ويظهر هذا في تقسيمه لأشكال الفن التي من خلالها تتجلَّى الفكرة الخالصة للفن. أمَّا في تمثيله لها على المستوى التزامني، كما في القرن التاسع عشر، فإلى جانب العنصر الرومانسي يضيف هيغل العنصرين الحداثي والثوري، جامعاً الكل في الثورة الفرنسية. انظر ”تجلِّي المثال في الأشكال الفردية للفن“ في القسم الثاني من:

Hegel: *Hegel’s Aesthetics: Lectures on Fine Arts Vol*. I, (Oxford, New York: Oxford University Press, 2010).

الرومانسية وعياً قوياً بالاختلاف عن العالم الكلاسيكي، فكانت بادرة من بوادر الوعي بضرورة التحديث وتجاوُز الماضي. محمَّلاً بمعناه هذا، اتَّسع نطاق استخدام المصطلح وشكَّل حركة فكرية متكاملة أزاحت التفكير الكلاسيكي وتزايد الحماس لها في دوائر المثقفين في معظم بلاد أوروبا الغربية.

في مجال الفن، رفعت الرومانسية مكانة الممارسة التلقائية والموهبة. وصرَّح صامويل كولريدج (Samuel Taylor Coleridge 1772–1834)، الشاعر والمفكِّر الإنجليزي الذي يُعدّ من أبرز رواد الرومانسية، بأن الإبداع إذا تُرِك للتلقائية فإنه يكشف عن قوانين طبيعية للمخيِّلة تجعلها الموضوع الأساسي للفن، إلى حدّ يمكنه أن يستقل عن الطبيعة. وكان كانط قد عرَّف المخيِّلة بأنها استعارة مادَّة من الطبيعة وتحويلها إلى شيء فوق طبيعي. أمَّا عند الشاعر الإنجليزي وليام ووردزورث (William Wordsworth 1770 –1850)، الذي كان يرى أنَّ الطبيعة تقدِّم للإنسان نموذج لعمل المخيِّلة؛ فقد صارت عنده المخيِّلة مثل الطبيعة، تنتج كُلِّيات مكتفية بذاتها. ولارتباط المخيِّلة الجماعية بالثقافة القومية، انتقل تأثير الرومانسية من الفن إلى مجال الفكر الاجتماعي والسياسي، فنُظِر إلى وعي الفرد على أنَّه يتشكَّل من ثقافة أمته وتراثها، لأنهما يزوِّدانه بطريقة خاصة في النظر إلى العالم والتعبير عنه. وبهذا ارتفعت مكانة الانتماءات القومية في مجال الفكر، وصار الفرد عاكساً لذات جماعية تصوغ فكره وتلهمه نظرته إلى العالم.

من هذا المنظور اهتم الفكر الرومانسي بالحِقب الزمنية ووجَّه عنايته إلى فلسفة التاريخ ورفعَ مكانتها لأنَّه اهتمّ بالكيانات الكبرى التي تهيمن على وعي الفرد، مثل الطبيعة والثقافة القومية والمخيِّلة الجماعية. ركزت الرومانسية على دور السياقات العامة في الكشف عن معنى الحدث التاريخي، وربطَت فهم التاريخ بفلسفة التأويل التي تهتم بالطرق المختلفة لإنتاج معانى النصوص. ولأن الفكر الرومانسي عارَضَ اليقين المفرط بالعقل الذي طغى على عصر

التنوير، وبحُكم معاصرة المفكِّرين الرومانسيين للثورة الفرنسية؛ شدَّدوا على أهمِّية تغيير الواقع عبر الأفعال البطولية ورفعوا دور الأفراد في توجيه التاريخ، آخذين في الاعتبار تأثيرات ثقافاتهم وانتماءاتهم القومية على مواقفهم الفكرية والعملية.

هنا صارت كتابة التاريخ جزءاً من مساهمة المؤرِّخ مع أُمَّته في صنع المستقبل، فأصبح يميل إلى إعطاء التاريخ صورة بنية كلية مهيمنة. وصرح المؤرِّخ الفرنسي جول ميشليه في كتابه المعنون (الشعب)، بأن المؤرِّخ هو بصر الشعب، فلأنَّه جزء منه؛ يستطيع أن يعبِّر عن تجربته ويكون عينه التي تنير له الطريق، ويجيب عن الأسئلة التي تُطرح عليه[2]. وهكذا حلَّ الشعب محل الطبقات العليا التي كان المؤرِّخون قبل ذلك يجعلون تاريخها موضع عنايتهم، ويتَّخذون سيرة الملوك والأمراء مركز اهتمامهم. فصار الفرد عاكساً لخصائص الشعب ومعبراً عن "روح الأمة"، وأُلحِقت الفردية بروح الجماعة، ومُجِّدَت روح المبادرة الفردية والتضحيات العظيمة باعتبارها خالقة لتاريخ الأمة المعيَّنة. وهكذا رسخت فكرة التماثل بين دور الفنان والمؤرِّخ عند الرومانسيين، فمثلما أعادوا خلق مفهوم العمل الفني من جهة أنهم اعتبروه يعكس حقيقة تنتمي إلى العالم الداخلي للفنان، لا العالم الخارجي؛ كذلك حوَّل الرومانسيون مفهوم الكتابة التاريخية لتكون تعبيراً عن تأويل المؤرِّخ للأحداث، ولم يعُد وصفها بطريقة موضوعية أمراً مرغوباً فيه، كما كان في الماضي.

في سنة 1785 طوَّر كارل موريتز (Karl Philipp Moritz 1756–1793) فكرة ديدرو عن ما سُمِّي "الكل الذي تنتجه الأجزاء"[3]. فربط وظيفة الفنان

---

2 Gossman, Lionel: History as Decipherment: Romantic Historiography and the Discovery of the Other, *New Literary History*, vol. 18, no. 1, (Autumn, 1986), pp. 23-57. P. 28.

3 Todorov, Tzvetan: *Theories of the Symbol,* (Ithaca- New York: Cornel University Press, 1984). pp. 157-158.

بالتوصُّل إلى غائية داخلية (internal finality)، تماثل العمل الفني بوصفه تحقُّقاً في ذاته، أي أنَّ هدفه كامنٌ فيه. ورأى شليغل ضرورة أن "تتماسك مكونات العمل الفني في كلية متسقة"، فقال في فقرة قصيرة ذاع صيتها:

"إنَّ الشعر كلام جمهوري: إنَّه كلام له قانونه في نفسه، وغايته تكمن في ذاته وحده. فكل عناصره مواطنون أحرار، لهم حق التصويت"[4].

هذا الوصف يوضح الدور المُهم الذي لعبه المجاز في الفكر الرومانسي، فتشبيه القصيدة بدولة جمهورية يحمل في باطنه فكرة الثورة كوسيلة لتغيير الأوضاع السياسية، وأداة لفهم التاريخ الذي اعتُبِر قوَّة كبيرة مؤثرة على الواقع. وفي هذا السياق، الذي عُرِّف فيه الفن بدلالة حدث سياسي–اجتماعي هو الثورة؛ انحاز المؤرِّخون إلى مَهمَّة التغيير واعتبروا أنَّ دورهم، كما الفنان، هو المشاركة في صُنع الحقيقة التاريخية بأن يصبحوا جزءاً من ذلك الكل الذي يسهم في بناء نظام جمهوري. أي أن يدعم المؤرِّخون جانب الشعب بتوضيح أنَّه صانع التاريخ، لا الملوك أو الطبقة الارستقراطية.

بعد أن فشلت الثورة الفرنسية في فرض نموذجها اتَّجه الفلاسفة الأوروبيون إلى تطوير فكر تاريخي لا يسعى إلى فهم الماضي كما هو في ذاته، وإنما يحاول صياغته بطريقة ثورية. وصار المؤرِّخ الرومانسي مثل الشاعر يعمل على اللغة لا على أحداث الماضي، وأصبح التاريخ موضوع تأويل لكل ما يحمل ملامح الفترات الزمنية، سواء تلك التي توجد في وثائق رسمية أو في نصوص فكرية أو في أعمال أدبية وفنية. وهذا الربط متعدِّد الأوجه بين مَهمَّة المؤرِّخ والأديب والفنان، الذي ميَّز الفكر الرومانسي، ظهر في الفترة ذاتها لدى منظِّري الحداثية، كما سيتَّضح. ويظهر استمرار أثر الفكر الرومانسي على الفكر الغربي المعاصر في المكانة المركزية التي ما زال يحتلها رمزه الأساسي

4 المرجع السابق، الصفحات السابقة.

فردريك هيغل، الذي عاش فترة صعود الرومانسية وعارَضَ بعض مبادئها ووافقها في جوانب أخرى، فهو يشكِّل المنعطف في مسار ابتكار قصَّة العصر الحديث والحداثة. وفي فلسفة هيغل يرتبط الفكر المعاصر بكل من الرومانسية والتنوير عبر عنصرين، هما: الوعي الذاتي والنقد، فهما يجعلان التأمل في الذات والانشغال بالعصر السمتين المميزتين للفكر الغربي المعاصر[5].

عند هيغل، ليس العقل مبدأً شاملاً للفهم البشري، لكنه شكل للفكر يتجلَّى في حركة التاريخ[6]. يرى هيغل أنَّ العقل المطلق يتحقَّق في الحضارة الأوروبية ممثَّلاً في صعود الأمم الجرمانية، ويستند في ذلك إلى تصوُّر عضوي لحركة التاريخ تلقَّاه عن الفكر الرومانسي. قبل أن يشيع المفهوم الرومانسي عن دور المؤرِّخ في صناعة التاريخ كان المؤرِّخون يعالجون الأحداث من حيث هي مادَّة خام، فلم يتدخَّلوا في بنائها وحاولوا تفسيرها باتخاذ حدث معيَّن مرتكزاً يبحثون عمَا تسبب فيه وما ترتَّب عليه. كان المؤرِّخ مقيَّداً بحدثٍ محدَّد من ناحيتي الزمان والمكان، وعليه فقط أن يستقصي المراحل التي مرّ بها الحدث ليبيِّن لماذا جاء بتلك الكيفيَّة المعيَّنة، وفي بعض الأحيان يكون عليه أن يتتبَّع الآثار التي ترتَّبت على الحدث. أمَّا بعد شيوع فلسفة هيجل واستقرار تأثير الرومانسية على الفكر الأوروبي، فقد أصبح المؤرِّخ يبحث عمَّا يعطي الحدث أو العصر المعيَّن مكانة في التاريخ ترفع شأن الأُمَّة التي يكتب تاريخها.

هنا اقترب عمل المؤرِّخ من عمل كاتب القصَّة، فكما أنَّ القاص يبدأ بفكرة متخيَّلة يعطيها مظهراً واقعيَّاً بأن يصطنع شخصيَّات ويدبِّر أحداثاً تدور في مكان وزمان قادرين على تجسيد فكرته المتخيَّلة؛ كذلك صار المؤرِّخ يتبنَّى فكرةً يرى أنَّها تؤثِّر على فهم المجتمع لتاريخه، فيرسم للتاريخ صوراً تجسِّد تلك الفكرة بأن ينظِّم الأحداث بطريقة توافق فكرته التي يريد نقلها إلى ذلك المجتمع.

5 Chase, Cynthia: *Romanticism,* (London and New York, Routldge, 1996). P. 11.

6 هنري د. إيكن: **عصر الأيديولوجية**، ترجمة فؤاد زكريا، (القاهرة: الإدارة العامة للثقافة، د. ت.). ص 111.

ولذا، من دون فهم مضمون الفكر الرومانسي يصعب فهم الكيفية التي صاغت بها فكرة الثورة صورة تاريخ أوروبي نابض بالتحولات، فعلى مدى القرن التاسع عشر أسهمت التصوُّرات الجماليَّة والفنيَّة بقدر كبير في توجيه عقلية المؤرِّخين. وكان أبرز الذين صاغوا صورة اللحظات المفصليَّة في العصر الحديث وفي مسار الحداثة هم مؤرِّخو الفن، أو كانوا من الفنانين أو الأدباء.

في الوقت الذي انشغل فيه المؤرِّخون بصناعة ماضٍ مجيد لأوروبا يرتبط بتاريخ الإغريق؛ وُلِدت فكرة الحداثة وركَّزت على أهمِّية الوعي بالزمن الحاضر. وهنا أيضاً كان أول منظِّري وعي الحداثة من المشتغلين بالفن والأدب، وهما الفرنسي شارل بودلير (Charles Baudelaire 1821–1867) ومواطنه جيرار نرفال (Gerard de Nerval 1808–1855)، فالحداثيَّة فكرة جماليَّة في الأساس، صاغتها مخيِّلة المعنيين بفهم الفن وتفسير الممارسات الجماليَّة.

لا يظهر دور الفنِّ والمخيِّلة ولغة المجاز في اصطناع وعي الحداثة لدى مؤرِّخي القرن التاسع عشر المشتغلين بالفنِّ وحدهم، فهو يظهر أيضاً لدى هيغل الذي طوَّر أفكاره عن الحداثة من حواراته حول الفن مع فلاسفة الجمال الرومانسيين، خاصة شِلنغ وهولدرلين اللذين كانا يجتمعان به في فرانكفورت. في أثناء تلك النقاشات صاغ هيغل فكرته عن توسُّط الفن بين الدين والعقل، حيث رأى أنَّ عامة الناس يتعلَّقون بالدين ولا يهتمُّون للتفكير المجرَّد بينما يهتم الفلاسفة بالتفكير المجرَّد ولا ينشغلون بالدين. والفن عند هيغل يربط التفكير الفلسفي بالديني لأنَّه يعطي الأفكار بعداً حسِّيّاً وأسطوريّاً يجعلها مقبولة لدى الشعب، وفي الوقت ذاته يجعل التمثيل الحسِّي موضوعاً للتأمل لدى الفيلسوف. وبحسب انشغال معاصريه بالمكانة الرفيعة للشعر استطاع هيغل عن طريق جعل الفن وسيطاً بين الدين والفلسفة، أن يعيد لُحمة مكوِّنات الذات الغربية التي شتَّتها القرن الثامن عشر عندما رفعَ العقل فوق الدين وجعلَ التفلسف

”عبادة للعقل“، حسب نقد هيغل لفكر التنوير. والفن، إذ يتوسَّط الدين والعقل، فهو لا يستجمع شتات الذات الأوروبية في مجال الفكر وحده، لكنه يعيد ربط الفرد بالجماعة، وخاصة المثقف البعيد عن الشعب. لأن الشعب هو ما يزود كلّ عمل بالمعنى، وبالتالي يعطي التاريخ معناه. لكي يوضح هربرت ماركوز ارتباط مفهوم الشعب بتصوُّر هيغل للتاريخ، كتب:

> **”[إن] الشعب هو الكلِّيّة العينية التي يصير فيها الوعي الذاتي للأفراد الفاعلين وعياً كلياً، كما يصير شيئهم الفعلي شيئاً كُلِّياً. وتلك كُلِّية عينية بلا شرط أو استثناء لأنها تكمن فوق الأفراد، أو خارجهم، بل هي لا تكمن إلا في عملهم وفعلهم. ومع ذلك فإذا كان الشكل التاريخي بأرفع درجاته للشعب هو الذي تتحقَّق فيه الحياة تحقُّقاً فعليّاً، من حيث إنَّها الواقع كله، وفي حقيقتها وحريتها، فسيكون بالضرورة أيضاً هو الشكل للروح باعتبارها تحقَّقاً صار واقعياً بالفعل، فهناك إذن ما يبرِّر قول إنَّ الروح صارت واقعية على نحو تاريخي“[7].**

إنَّ تاريخية الروح هي الشعب. وبوصفه شكلاً لتحقُّق الحياة، يصبح الشعب عاكساً لتلك التاريخية، وفي الوقت ذاته يصبح تاريخاً للروح[8]. ولأنَّ هيغل اعتبر الشعب ”الكُلِّية العينيَّة التي يصير فيها الوعي الذاتي للأفراد الفاعلين وعياً كُلِّياً“، واعتبره أيضاً شكل تحقُّق الروح؛ صارت كتابة التاريخ عنده شبيهة بالفن. وبما أنَّ الشعب هو تاريخية الروح فإنَّ أفعاله لا تُوصف كأحداث منفصلة، وإنَّما كروح لها كُلِّيتها، وهنا أيضاً يلتقي المؤرِّخ مع الفنان الذي ينتج كُلِّية مكتفية بذاتها تعبِّر عن تجلِّيات الروح. وليوضِّح هيغل الجانب الفنِّي في صنعة التاريخ، وصفَ مَهمَّة المؤرِّخ كما يلي:

---

7 هربرت ماركوز: **نظرية الوجود عند هيغل: أساس الفلسفة التاريخية**، ترجمة ابراهيم فتحي، (بيروت: دار التنوير، 1984). ص 415.

8 يميز هيغل بين الشعب بوصفه الشكل الأول للروح الواقعية، عن الشعب من حيث هو شكل نهائي لتحقُّق الحياة. فالأول له وجود خارجي يتمثل في حرية العمل، من حيث هو وجود واع بحقيقته لذاته. في حين أنَّ الثاني جوهر غير متعيَّن.

"لا يملك المؤرِّخ، وهو يعكف على تقديم وصف أمين للأحداث الواقعية، إلَّا أن يكِّون لنفسه فكرة إجمالية عن المضمون المتنوِّع للأحداث والشخصيات، كيما يعيد من ثم خلقها بالروح، وفي شكل مستوحى من الروح. على أنَّه لا يجوز [للمؤرِّخ]، في إعادة رسمه هذه للوقائع، أن يكتفي بصحَّة التفاصيل ودقّتها؛ بل عليه، من جهة أولى، أن يُخضِع الوقائع التي يتعقّلها إلى ترتيب ما، وأن يخلع عليها شكلاً ما، وأن يجمِّعها ويربط بينها على نحو تتولَّد معه صورة واضحة جليَّة عن الأُمَّة التي يصف قسماتها ويسرد وقائع أحداث حقبة محدَّدة من حقب تاريخها، والشروط الخارجية، والعظمة أو الضعف الداخليين للأفراد الذين تميَّزوا بفاعليتهم؛ وعليه من جهة ثانية أن يجمع هذه الأجزاء طراً في كل واحد يُظهِر للعيان الدور الذي اضطلع به كل جزء في التاريخ الداخلي للشعب، والقسط الذي أسهم به في هذا الحدث أو ذاك، الخ"[9].

من هذا الوصف، يتَّضح أنَّ هيغل جعل كتابة التاريخ تركِّز على اصطناع صورة للشعب من حيث هو ممثِّل لتاريخية الروح، باستخدام الوقائع كمادَّة، وفي الوقت ذاته يركِّز على أنَّ التاريخ يجب أن يُصاغ بوصفه تاريخاً داخلياً للشعب. ومقارناً بين التاريخ والشعر، يقول هيغل عن الأول "إنه يفسح مكاناً واسعاً للفن"[10]. وفي الرومانسية "يمكن لحساسية هذه الأسطورة الشعرية أن تضم، بحركة واحدة، الشعب والفلاسفة" معاً، كما كتب يورغن هابرماس[11]. بعقد مصالحة بين الفيلسوف والشعب، أنجز هيغل خطوة تماثل المصالحة التي حقَّقتها الجماليات الرومانسية بين الفنان والشعب عن طريق توسيط الثقافة القومية، وكلتاهما تماثلان مصالحة مؤرِّخي الفن بين التاريخ والشعب بتوسيط فكرة الثورة.

---

9 هيغل: **فن الشعر**، ترجمة جورج طرابيشي، (بيروت: دار الطليعة، 1986. ص 1981). ص 41-42.

10 المرجع السابق، ص 41.

11 يورغن هابرماس: **القول** ...، ص 53.

إذاً، كانت الإشكاليَّة الرئيسية لفكر القرن التاسع عشر، كما مثَّلتها الفلسفة الهيغلية والتاريخانية الرومانسية، هي توحيد الوعي الذي كان موزَّعاً بين الدين والفلسفة والأخلاق، وإنشاء وحدة بين المثقَّف والشعب. ولم يكن ذلك ممكناً إلا بجمع تلك الموضوعات في ساحةٍ تستطيع أن توحِّد شتاتها، هي الذات الغربية، فوحَّدت الرومانسية وعي الأمم الأوروبية بذاتها على أرضية فكرة القوميَّة. وهذا لا يعني بالطبع أنَّ أوروبا توحَّدت عمليَّاً، فقد ظلّت تعيش صراعاتها في الداخل والخارج، فكان التوحُّد على مستوى الروح أو الوعي فقط.

بعد أن اتَّضح دور فكر الرومانسية في بناء تصوُّر للتاريخ يقوم على إعطاء الأُمَّة مكانة مركزية تقرِّب كتابة التاريخ من الفن؛ يبرز سؤال مُهم هو: لماذا تركَّزت وحدة الوعي الأوروبي عند منتصف القرن التاسع عشر حول الوعي بالتاريخ، دون أشكال الوعي الأخرى؟ ولا يُجاب على هذا السؤال إلّا بتشخيص الأوضاع الملموسة التي عاشتها أمم أوروبا الغربية آنذاك.

تميَّز القرن التاسع عشر بمواجهة أمم أوروبا الغربية للعالم الخارجي من أجل اقتسامه، فكانت وحدة أُمَّة كل بلد أوروبي على أساسٍ قومي مطلباً ملحّاً يستجيب لمهمة خلق تقارب بينها يتيح لها الاصطفاف في مواجهة العالم الخارجي الذي غزته، وفي ذات الوقت كان يتيح لكل قومية فرصة أن تكون لها ذاتيتها التي تمنحها حق التنافس مع القوميات الأوروبية الأخرى من أجل اقتسام العالم. وهنا تجلَّت فاعلية المشروع الرومانسي في أنَّه يجمع الشعوب الأوروبية على أساس مبدأ القومية الذي يحقّق تجانساً سياسياً بينها، وفي ذات الوقت يمنح كل منها استقلالها عن الأخريات، ويصون خصوصيتها. وفي ظل اتخاذ القومية مبدأً لتعريف الذات وأداة لتحقيق وحدة أمم أوروبا وتمايز قومياتها عن بعضها؛ كان من الطبيعي أن تكتسب الذات الجماعية الأوروبية

وعياً يجعلها مرجعاً لنفسها. وهذا بالضبط ما يسمى عند المفكِّرين الغربيين: الحداثيَّة، أو الوعي بالحداثة.

كانت الحداثية في سمتها الجوهرية، أي بوصفها وعياً بانقطاع الزمن؛ إفصاحاً عن مركزيَّة ذاتيِّة في لحظة صارت فيها أوروبا مركزاً للنظام العالمي. فمع بروز الوعي بالحداثة كانت أوروبا قد صارت موضوع تفكُّر فلسفي وتاريخي، بينما أُحِيلت بقيَّة العالم في الوعي الأوروبي إلى فضاءات طبيعية، خالية من البشر، عُدَّت "أراض بكر" وُجِدت من أجل الإنسان الأوروبي ليتملَّكها. ولهذا فإنَّ إزاحه هيغل للشعوب غير الأوروبية عن "مسرح تاريخ العالم"، المتزامنة مع تبلوُر تصوُّره للحداثة بوصفها وعياً ذاتياً، هي التي مثَّلت الأساس الفلسفي العميق للفكر المتمركز حول الذات الأوروبية الغربية، المستمر حتى وقتنا هذا[12].

إنَّ قصَّة ثورات العصر الحديث تصوِّر الذات الجماعية الأوروبية في صراع ضد قدَر قضى بانفصالها عن أصلها القديم، الإغريقي، فتخوض صراعاً لتستعيد العلاقة معه وتعيد بعث ذاتها في كيان حضاري جديد بعد عشرين قرناً من الغياب. أمَّا قصَّة الحداثة فتختص بجانب آخر من جوانب بعث الذات الأوروبية، فهي تعرض الصراع ضد التحديدات المسبقة للذات الفردية، عن طريق التأكيد على ما هو لحظي وعرَضِي، وهنا أيضاً ترمي الذات بنفسها في خضم الحاضر لتُولَد حرَّة مرة أخرى، فهي تصارع القدر بوصفه قوة خارجية تضغط على الذات.

12 تركَّزَ وعي الإنسان الأوروبي بذاتيته حول العلاقة بالزمن لأن الحداثية كانت تعبيراً عن اكتمال ذاتية ظلت في صعود مستمر منذ نهاية القرن الخامس عشر. وسيتزامن وصول فكر الحداثية قمته، ممثلاً في ظهور الفن الطليعي (avant–guard) في بداية القرن العشرين، مع اللحظة التي سيبدأ فيها مشروع الغزو الأوروبي في التراجع. ومع منتصف القرن العشرين سيبدأ وعي الذاتية الغربية في الانحلال ليبرز ميلٌ نحو نقد الحداثة.

إنَّ مفهوم الثورات الذي يمثِّل السمة المميِّزة لفاعلية الذات الجماعية كما جسَّدها الفكر التاريخي، يتلاقى بشكل ملفت مع التصوُّر الحداثي للذات الفردية، فيلتقي الاثنان على أرضيَّة الفكر الرومانسي الذي تطوَّر في نفس الفترة. وهذه المظاهر الفكرية الثلاثة ترتبط بالمسار الثلاثي لكل من: صعود واكتمال وتحلُّل، الذاتية الغربية، الذي استمر موازياً لمشروع غزو العالم.

لا شيء يوضِّح الدور المؤثِّر للرومانسية في بناء صورة الذات الأوروبية أكثر مما لخصه الفيلسوف والاقتصادي الإنجليزي جون ستيوارت مِل حول دور كبار مفكري الرومانسية في تشكيل فكره وفكر عصره عموماً، إذ كتب في سيرته الذاتية:

> **"إنَّ سلسلة كبار الكتاب والمفكرين من هردر إلى ميشليه [...] الذين صار التاريخ بواسطتهم علماً للأسباب والنتائج، [...] بجعلهم أحداث الماضي ذات معنى وموضع فهْم في التطوُّر التدريجي للبشرية؛ هم الذين قدَّموا الوسيلة الوحيدة للتنبؤ بالتاريخ وتوجيهه"**[13].

درسَ هذا الفصل السياق الفكري الذي ساد القرن التاسع عشر بوصفه منظومة فكرية تضم ثلاثة مكوِّنات شكَّلت تصوُّر الأمم الأوروبية لتاريخها وذاتها: صُوِّر التاريخ حركة انبعاث من الماضي تتَّجه نحو المستقبل عبر ثورات مستمرة، وصُوِّرت الذات في هيئة كيان حضاري يُولَد من أصل نقي يعود إلى الإغريق، وصُوِّر الإنسان الحديث ككائن معني بالزمن الحاضر. وركَّز الفصل على تيار الرومانسية بوصفها رحماً وُلِدت منه التصوُّرات الأوروبية عن الذات والآخرين، ومعه تبنَّت الحداثية تصوُّراً عن ذات متخيَّلة، تُولَد من نفسها في قطيعة تامة مع الماضي. وفي الوقت نفسه صاغت قصَّة الثورات صورة

13 Mill, John Stuart; *Principles of Political Economy*, (London, Longmans, Green, 1909). P. X.

أُمَّة تخلق نفسها من ذاتها، منبعثة من الماضي باتجاه المستقبل. قام هذان التصوران على فكرة كائن ذاتي التخلُّق يدخل مع الزمن في علاقة صراعية: تستسلم أوروبا في البداية للزمن بوصفه سلطة للماضي، حيث الأصل الحضاري الذي ستنبعث منه ذاتيتها محتبس فيه، ثم تنفكّ عن سلطة الماضي وتسبح مع تيار الزمن في حاضر يمتد إلى اللا نهاية، وهذه هي بالضبط فكرة الحداثة، التي تُعرَّف بأنَّها "مرجع لنفسها". ترتبط قصتا الحداثة والثورات ببعضهما من جهة أنهما تعبِّران عن وعي الذات الأوروبية بوضعيتها الزمنية، القائمة على تصوُّرين: خلق المستقبل من الماضي والانبعاث من الذات. وهما تصوُّران يتميَّزان بأنهما يتضمَّنان تعارضاً ذاتيَّاً، ويمثِّل التعارض الذاتي أساس التصور الرومانسي للحياة بوصفها صراعاً مع القدر.

تحقَّقَ الارتباط بين فكرتي الثورة والحداثية على أرضية الرومانسية نتيجة علاقات معينة اتَّصلت فيها أوروبا بالعالم الخارجي. ويسعى القسم التالي إلى استخلاص تلك العلاقات التي ينتهي معها تتبُّع سرديَّة الثورات بالتوصُّل إلى الأوضاع الملموسة والشروط التاريخية التي أدَّت إلى صعود أوروبا عتبة العصر الحديث، وهي الشروط ذاتها التي دفعت بمناطق العالم الأخرى خارج الرواية الأوروبية لما يُسمَّى (التاريخ العالمي).

مسارات صُعُود أوروبا الغربيَّة

بخلاف الصورة التي صنعها المؤرِّخون الأوروبيون للعصر الحديث، القائمة على فكرة صدوره من تاريخ أوروبا الداخلي؛ لا بدَّ من فهمه على أساس خروج أوروبا غازية للعالم، فقد بدأ انقشاع ليل العصور الوسطى عن أوروبا وبزوغ فجر الحداثة مع انفتاحها على العالم وتفكيكها لنظامه الحضاري متعدِّد المراكز[1]. صاغت أوروبا نظاماً عالمياً جديداً تميَّز بأحادية المركز عندما استكملت غزو أراضي العالم بسيطرتها على الأميركتين وأستراليا ومعظم بلاد الشرق وأفريقيا، وفي تلك الفترة كتب الأوروبيون تاريخ العالم على أنَّه تاريخهم.

كانت إسبانيا أول دولة أوروبية تتبنَّى نظام دولة قومية لها لغة رسمية واحدة ودين واحد وثقافة واحدة، وتُحكَم من طرف (عِرق) واحد. وارتبط تبنِّي إسبانيا لذلك النظام بتصفية عنيفة لوجود غير الأوروبيين من يهود ومسلمين وإزالة ميراثهم الثقافي، فصار نظام الدولة القومية ذات البعد الواحد المدخل للتوسُّع في العالم. ورغم أنَّه يمكن العثور على بدايات الصعود الاقتصادي لبلاد غرب أوروبا في لحظات أخرى سبقت تحوُّلها إلى نظام الدولة القومية، مثل نشأة المدن التجارية الساحلية في جنوب إيطاليا؛ إلا أنَّ أثر هذه التحولات اقتصر على الانفتاح على منطقة حوض المتوسِّط، أمَّا التحوُّل الحاسم الذي انفتحت فيه دول غرب أوروبا على العالم كله فقد جاء مع ظهور الدولة القومية

1 حول تزامن لحظة الحداثة مع حلول النظام العالمي أحادي المركز محل النظام متعدِّد المراكز؛ انظر:
Dussell, Enrique 'Beyond Eurocentrism: The World-System and the Limits of Modernity', in: Jameson, Fredric and Miyoshi, Masao (eds.); *The Cultures of Globalization*, (Durham and London: Duke University Press, 1998).

المتوسِّعة خارجياً والجالبة لثروة المستعمرات إلى العواصم الأوروبية[2]. وهو تحوُّل حقَّقته إسبانيا والبرتغال قبل أيَّة دولة أوروبية أخرى. وبعد أن حقَّقت سياسات النقاء العِرقي وأحاديَّة الهويَّة القوميَّة والغزو الخارجي تفوُّقاً اقتصادياً كبيراً لإسبانيا على بقيَّة دول أوروبا؛ تبنَّت تلك الدول التقاليد ذاتها وسارت على درب إسبانيا[3].

تنظر الصفحات التالية في صعود أوروبا نحو العصر الحديث من جهة الآثار السالبة التي وقعت على شعوب العالم، لإبراز الجانب المظلم لصعودها. وهو ما تهمله أو تنكره الرواية الأوروبية التي دُرِس خطابها في الفصول السابقة. يرصد هذا الفصل دور العنف في تطوُّر أوروبا على حساب بلاد الجنوب، فيركِّز على أساليب تدمير قدراتها عبر شكلين من أشكال العنف الجماعي، ساهما في بناء أوروبا. يجمع بين هذين الشكلين أنهما استنزفا قدرات المجتمعات التي استُعمِرت ونتج عنها إفقار البلاد التي لم يتمكَّن الأوروبيون من غزوها، فكسبوا من تدميرها بتحويلها إلى أسواق للسلع الأوروبية. هذان الشكلان هما التدمير المباشر للمجتمعات ومثاله استعباد مواطني غرب أفريقيا، والتدمير غير المباشر بالاستهداف عن بعد ومثاله حرب الأفيون التي شنَّها البريطانيون ضد الصينيين.

2 يرى فرنانديز-أرمستو أنَّ التوسُّع الإسباني في جزر البحر البيض المتوسط، مثل مايوركا وصقلية، كان بداية توحيد مسارَي التجارة الأوروبية اللذين مرّ أحدهما بشمال أوروبا والثاني بجنوبها. وهذا الرأي، على صحته، يجب أن يُفهم من جهة أنَّ توحيد المسارين لم يكن حدثاً مفصليّاً بالنسبة إلى مستقبل التجارة الأوروبية، فالحدث الحاسم هو ارتباطها بأميركا، انظر المقدمة والفصل الأول في:

Fernandez-Armesto, Felipe; *Before Columbus: Exploration and Colonization from the Mediterranean to the Atlantic 1229-1492,* (Philadelphia, University of Pennsylvania Press,1987).

3 رغم أنَّ إسبانيا ارتبطت اقتصادياً بالأطلنطي في القرنين السادس عشر إلا أنَّها ظلت مرتبطة بالمتوسِّط وتقاليد التبادل الحضاري بين ساحليه الشمالي والجنوبي، فقد كان التفاوت الاقتصادي والتقني والثقافي بين الساحلين هو شرط استمرار تبادل التأثيرات بينهما؛ حسب رأي فرناند بروديل. انظر كتابه:

Braudel, Fernand; *Memory and the Mediteranean*, (New York: Alferd A. Knopf, 2001).

مع منتصف القرن السادس عشر كان اقتصاد إسبانيا قد بدأ يتحسَّن نتيجة تدفُّق الذهب والفضة إليها من المكسيك وبيرو. وانعكست إيجابيات ذلك بوضوح على الأوضاع في بريطانيا التي كان اقتصادها، حتى بداية القرن السادس عشر، لا يعرف نشاطاً مُهمَّاً سوى تصدير نسيج الصوف المنتَج يدوياً إلى بعض دول غرب أوروبا. حتى ذلك الوقت كانت شركة "التجَّار المغامرون" هي الوحيدة التي تحاول توسيع تصدير القماش البريطاني بإيجاد أسواق له في أوروبا، لكن مع منتصف القرن الذي شهد بدء صعود مكانة إسبانيا، معتمدة على تحالفات التجار والغزاة؛ توجَّه البريطانيون إلى الخارج لبناء مستعمرات على الطريقة الإسبانية، فأُنشِئت شركات ألحقت الاقتصاد البريطاني بممارسات الغزو، وكانت كل شركة تُسمَّى باسم المنطقة الجغرافية التي تتاجر معها.

في البداية أسَّست بريطانيا (الشركة الإسبانية) المعنيَّة بالتجارة مع إسبانيا في سنة 1577م، وتبعها ظهور شركات استهدفت توسيع نطاق التجارة البريطانية في الشرق، فتكونت (شركة الشام) في سنة 1592م، ثم (شركة الهند الشرقية) في سنة 1600م. بعد ذلك تأسَّست شركات ما وراء الأطلنطي في محاولة لمنافسة تجارة إسبانيا، فكانت أولها (شركة فرجينيا) التي ظهرت في سنة 1606م، ثم (شركة الأمازون) التي نشطت بين 1616-1623م، وبعدها (شركة خليج ماساتشوستس) في سنة 1629م[4]. ولم تكن هذه الشركات كيانات تجارية بالمعنى المفهوم اليوم من كلمة شركة، لأنها كانت تخدم السياسات الخارجية للدولة، وتتحوَّل تدريجياً إلى مؤسَّسات تملك جيوشاً تغزو أراضي الشعوب التي تتاجر معها، فتحكمها وتحولِّها إلى مستعمرات بريطانية. ونموذج ذلك شركة الهند الشرقية التي غزت الهند وفتحت الباب واسعاً أمام تطوُّر صناعة النسيج البريطانية بتدمير صناعة النسيج الهندية. واستمرَّت حكومات غرب أوروبا طوال القرن السابع عشر تبيع لشركاتها تراخيص العمل فيما وراء

4 لا تعتبر هذه الفترة نهاية أنشطة تأسيس الشركات البريطانية، ففي العام 1629 وصلت شركة اسمها "المغامرون الملكيون" إلى أفريقيا، تم استبدالها في سنة 1660م بأخرى اسمها "الشركة الملكية الأفريقية".

البحار، وتعطيها حق احتكار الأنشطة التجارية بعقود طويلة الأمد، فصارت تلك الشركات أذرع قابضة للدولة البريطانية وضعت العالم، تدريجياً، تحت سيطرتها.

سارت دول غرب أوروبا التي تحوَّلت إلى قوى عظمى على تلك التقاليد التي لها أصولها في التجربة الإسبانية. وقد وصفَ إريك وولف العملية التي بدأت بغزو إسبانيا لأميركا ثم وحَّدت اتجاهات نمو بلاد غرب أوروبا وانتهت باستيطان مواطنيها للأميركتين وأستراليا؛ وصفها بأنها كانت بمثابة "عملية صناعة اعتماد متبادل بين بلاد العالم"، وضعت أوروبا الغربية في قمة النظام الاقتصادي العالمي، وجعلت بقيَّة مناطق العالم مجرَّد هوامش "تابعة لأوروبا الغربية ومعتمدة عليها" إلى اليوم[5].

حقَّق ذلك التحوُّل ثلاث ميزات لبلاد أوروبا الغربية ساعدتها على تطوير علاقات اقتصادية قوية فيما بينها، وأزاحت الجنوب إلى هامش النظام العالمي. كان أهم هذه الميزات هو توفُّر مقادير كافية من النقود سمحت بتوسيع قنوات التجارة بين أمم أوروبا الغربية، بقدرٍ أتاح لها خلق أسواق داخليَّة كبيرة، فقبل ذلك لم يكن للذهب والفضة وجود بكميات كافية في أوروبا تتيح توسيع نطاق التبادل. وكانت الميزة الثانية هي توفير المواد الخام للصناعة الأوروبية بأسعار زهيدة ضمِنت للصانع تحقيق ربح كبير، وهو ما لم تُتِحه المواد الخام التي كانت موجودة في أوروبا بكميَّات محدودة آنذاك. أمَّا الميزة الثالثة فكانت فتح أسواق عالمية للمنتجات الأوروبية التي لم تكن مرغوبة في الشرق، وبعائدات تلك الأسواق ستتحسَّن جودة المنتجات الأوروبية وتفوق منتجات الشرق نفسه[6].

---

5 Wolf, Eric; *Europe…*, p. 130.

6 ميّز فرناند بروديل بين اقتصاد السوق واقتصاد الرأسمالية، رغم ترابطهما، وذلك حين أوضح أنَّ قانون المنافسة القائم على حرية الإنتاج والعرض والطلب هو السمة المميزة للأول، وأن الاحتكار، القائم على تقييد حرية السوق هو ما يميز الثاني. فكانت مرحلة صعود بلاد جنوب المتوسِّط في العصر الحديث المبكر مقدمة ظهور الرأسمالية في شكلها الناضج، وكلاهما كان مرتبطاً باستغلال منتجات مناطق ريفية. انظر:
Karagöz, Ufuk and Ozveren, Eyüp; Braudel's Mature Mediterranean: Civilization and Capitalism, *Journal of Mediterranean Studies,* vol. 24 no. 1 (2015). 69-86.

اقتضى تحقيق تلك الشروط أن يُحوِّل الأوروبيون شعوب بعض البلاد التي غزوها إلى قوة عمل متداولة في أسواق الغرب، فاستُعبِد ملايين الرجال من مواطني غرب أفريقيا بالاختطاف، وحُوِّلت قدراتهم إلى قوة عمل مجاني. وحُوِّلت ملايين النساء الأفريقيات المستعبدات إلى آلات بيولوجية في أوروبا وأميركا وجزر الكاريبي تفرِّخ جيوشاً من الأطفال المستعبَدين بالميلاد، لتتمكَّن الرأسمالية الناهضة من تغذية أسواق العمل بجموع احتياطية من الأيدي العاملة بالمجان. ومع منتصف القرن السادس عشر كان وجود مواطني أميركا الأصليين قد استُنزِف وتفكَّكت مجتمعاتهم، وانحدرت نسبة مواليدهم بسبب الاستغلال المفرط في العمل، الذي لم يسمح بتعويض الوفيَّات وأعاق الإنجاب وتربية أجيال جديدة. وكانت هذه الظروف هي التي أوجدت حاجة ماسة لاستجلاب قوة عمل أخرى من مكان غير بعيد، فكان مواطنو غرب أفريقيا هم الضحايا لأن بلادهم أقرب إلى سواحل الأميركتين من غيرها. حدث هذا في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تتوسَّع في أميركا الشمالية مستفيدة من الدرس الإسباني في الغزو والاحتلال وتأسيس المستعمرات.

في المرحلة الثانية من صعود أوروبا، مع منتصف القرن السابع عشر الذي تراجعت فيها مكانة إسبانيا وصعدت فيه مكانة بريطانيا وفرنسا؛ لم يعُد للمعدنين النفيسين دور مؤثر في تغذية تطوُّر البلاد الأوروبية، فبدأ تصدير المحاصيل الزراعية النقدية المنتَجة في المستعمرات إلى أسواق أوروبا. وبدأ نزع الأراضي الخصبة من المواطنين ووُظِّفت لإنتاج القطن وقصب السُكَّر والتبغ والبُن والشاي، وكانت جميعها منتجات شرقية جديدة غير معروفة للأوروبيين، فتعلَّموا طُرق زراعتها وتصنيعها وصارت سلعاً واسعة الاستهلاك بينهم. وأتاح ظهور هذه المنتجات تشغيل عدد كبير من الأوروبيين عمَّالاً في صناعات لا تتطلَّب قدرات كبيرة على التصنيع، فتحقَّق تقسيمٌ عالمي للعمل خلق فارقاً بين شعوب المستعمرات والأوروبيين وِفق منطق تمييزي، فالإنتاج الذي يحتاج جهداً كبيراً

ويحقِّق دخلاً قليلاً، مثل التعدين والزراعة، أُلقِي به على عاتق المستعمرات، أمَّا الصناعة فلأنها تتطلَّب جهداً أقل وتضمَن دخلاً عالياً فقد خُصِّصت لأوروبا. وبالإنفاق عليها من المال المتدفِّق من المستعمرات تطوَّرت الصناعات اليدوية الأوروبية التي كانت بسيطة في البداية، وبمرور الزمن واستمرار تحسينها انتهت إلى صناعات تقوم على تكنولوجيا متقدِّمة. أمَّا عمليَّات الإنتاج الزراعي واستخراج المعادن التي فُرِضت على شعوب المستعمرات، فلأنها كانت تقوم على امتصاص الثروة وقوة العمل دونما تعويض لهما، فقد انتهت إلى إفقار قدرات شعوب المستعمرات وتدمير معرفتها بالصناعة وإفراغها من الثروات الطبيعية. وتوافَقَ هذا النوع من تقسيم العمل مع التمييز العنصري الذي مارسته أُمم أوروبا ضد بقية البشر، وصاغ له فلاسفتها ومثقفوها النظريات التي تدعمه. وبعد أن كانت الصناعات تتركَّز في الشرق انقلبت الموازين وتركَّزت في أوروبا الغربية، وظلّت ثقافة التمييز في المعرفة المعاصرة تسند ذلك التفوُّق إلى اليوم. وبينما انتبه المفكِّرون المعاصرون إلى منطق تقسيم العمل الذي صاغته العلاقات الاستعمارية بين أوروبا وبقية بلاد العالم، لم ينتبهوا إلى الدور الذي ظلَّت تؤدِّيه المعرفة التي أنتجتها أوروبا في مجال صون ذلك الانقسام، واستدامة سيطرتها على العالم.

كان إيمانويل والرشتين من أبرز الذين أوضحوا دور تقسيم العمل العالمي في تطوُّر أوروبا، فبيَّن أنَّ تقدُّمها لم ينشأ عن تحولات حدثت فيها، أو جُهد بُذِل داخلها، بقدر ما أنَّه نشأ عن تحويل المناطق التي كانت متقدِّمة عليها إلى هامش لاقتصاداتها، فسمح لها ذلك بأن تركِّز الثروة والصناعة داخلها. يرى والرشتين أنَّ تطوُّر النظام العالمي الحديث مرّ بثلاث مراحل: بداية تمدُّده داخل أوروبا، ثم تقسيم العالم إلى مناطق مرتبطة باستغلال المركز للهامش، والمرحلة النهائية هي تطوُّر دول ذات بنى اقتصادية قوية في أوروبا. ويرفض والرشتين فكرة أنَّ النظام التجاري الذي وُجِد في أوروبا كان يتَّجه بطبيعته

لأن يصبح رأسمالياً، رائياً أنَّ النظام الرأسمالي في أساسه نظام سوق عالمي. وهذه الفكرة تعارض الفكرة التقليدية حول أنَّ السوق ينظِّم نفسه بطريقة تلقائية وفق قوانين غير مرئية، ويرى والرشتين أنَّ سيطرة الشركات والعنف الدولي والقمع المنظَّم قانونياً هي التي خلقت النظام الرأسمالي، باشتغالها متضامنة مع بعضها[7]. كان تساند عمل شركات ما وراء البحار والقوة العسكرية للدول الأوروبية وتشريعات التجارة الدولية في فترة القرنين السادس عشر والسابع عشر، هو الذي أعطى الفرصة لبلاد شمال أوروبا لتعتلي قمة النظام العالمي. ولأن تطوُّرها بدأ بصناعات بدائية اعتمدت على إنتاجٍ زراعيٍ واسع، كان تحقيق ربح كبير يتطلَّب إيجاد عمل غير مدفوع القيمة، أي قوة عمل قسري مجاني توفِّره أيدي عاملة كثيرة. وحقَّق الأوروبيون ذلك الشرط بخطف مواطني غرب أفريقيا بأعداد هائلة لاستعبادهم وتشغيلهم في المزارع الكبيرة بالأميركتين (plantations)، وخاصة في جنوب أميركا الشمالية.

7 توافِق أراء مؤرِّخي مدرسة النظام العالمي وجهة النظر هذه، التي تعطي التوسُّع الاستعماري الإسباني دوراً مؤثراً في تطوُّر اقتصادات بلاد غرب أوروبا المعتمدة على النظام الرأسمالي، مع الإقرار بوجود فروق بينها. فبعد أنَّ فصَلَ فرناند بروديل بين اقتصاد السوق والاقتصاد الرأسمالي، منتقداً رؤية ماركس الخطِّيّة للتاريخ الاقتصادي الذي يمر من العبودية إلى الإقطاع ثم الرأسمالية؛ فصل موريس دوب (Maurice Dobb) أيضاً بين تطوّر التجارة ونشأة الرأسمالية، رائياً أنَّ الأولى لم تكن شرطاً للثانية، ولكنها، بمساهمتها في تقويض أساس النظام الإقطاعي هيأت الظروف لنشأة الرأسمالية. ويقول إنَّ التراكم الذي نتج عن التجارة الاحتكارية الدولية هو الذي قوّض الأساس الإقطاعي في أوروبا، وبالتالي هيأ الظروف لميلاد الرأسمالية فيها. وهذا يتوافق مع تشديد ماركس في بعض المواضع على أنَّ التوسُّع في العالم الجديد وتوسيع الأسواق ساهم في زيادة التراكم الناتج عن التجارة، رغم أنَّه يؤكد في (الغروندريسة) أنَّ المال وحده ليس كافياً للتطوّر الرأسمالي ولا بدّ له من استغلال العمل المأجور. ويوافق والرشتين على أنَّ الرأسمالية نشأت من خارج النظام الإقطاعي بالفعل، لكن تحت شرط ارتباط المركز بالأطراف في نظام عالمي واحد. فالتحول نحو الرأسمالية حدث في مناطق متعددة وبتحويل الاقتصادات العالمية التي تعمل بوصفها كلاً واحداً، وليس داخل أوروبا وحدها، واستمرّ يتطوّر أيضاً بوصفه كلاً واحداً. من أجل عرض مختصر لتسلسل وجهات النظر هذه، انظر الفصل الأول من:

Park, Maarten; *Early Modern Capitalism; Economic and Social Change in Europe 1400-1800,* (New York: Routledge, 2001).

كانت زراعة قصب السُكَّر وتصنيعه وتجفيف الشاي والبُن والتبغ تجري في المستعمرات، أمَّا تعبئة وتغليف المنتجات فتتم في المدن القريبة من الأسواق. وقد احتاج استهلاك تلك السلع في أوروبا حدوث تطوُّر تقني فرضته عمليَّات نقل تلك المنتجات وتجهيز المعامل الخاصة بتعبئتها وبناء المخازن ومحلّات البيع. وتطلَّب نقلها إيجاد مواصلات وشبكة طرق تربط بين المدن، وفرضَ اتِّساع نطاق توزيعها ترقية وسائل الاتصال بين أصحاب العمل والوكلاء المحليِّين والتجَّار. وتطلَّب خزنها وبيعها تشغيل عدد كبير من العمَّال احتاج تنظيمهم إلى خبراء يقومون بتقسيم المهام بينهم ومراقبة أدائهم، أمَّا التسويق فتطلَّب تطوير حسابات التكلفة ومسك الدفاتر ومتابعة الديون والتعاملات الضريبية ... إلخ. وكان كل هذا يقوم على نشاط عقلي وتقني فتح الباب واسعاً أمام تطوُّر نظم الإدارة والصناعة في البلاد الاستعمارية، وترقية مؤسساتها.

إلى جانب التطوُّر المهني والتقني، أتاحت تلك التحولات لأوروبا مراكمة ثروات مادِّية ومعرفة نظرية ونُظم إدارية وخبرات عملية نتجت عن التحكُّم بالمستعمرات، ساهمت كلها في نقلها من مرحلة التجارة إلى مرحلة التصنيع بأن وفَّرت الشروط الضرورية لذلك. إنَّ تطوُّر الحِرف الذي يُقال إنَّه نقلَ أوروبا إلى الصناعة لم يكن ممكناً أن يحدث من دون ظهور مجتمع يحتاج إلى صناعات بدلاً من الحِرَف من حيث كم المنتجات ونوعها، مثلما أنَّ الماكنة التي ينسب إليها المؤرِّخون إيجاد المجتمع الصناعي لا يمكن أن تكون صانعة للسلع من دون توفُّر حاجة واسعة لاستهلاكها، ومن دون وفرة المواد القابلة للتصنيع بمقادير كبيرة تفوق قدرات العمل اليدوي، ومن دون نظام ضبط العمل وإدارته، وبلا قدرات بشرية على صيانة أدوات العمل، ومن دون وجود أسواق وقدرة شرائية، ففي غياب هذه الشروط لا يمكن استنطاق الماكنة.

ساهمت صناعة السُكَّر التي تعلَّمها الأوروبيون من بلاد الشرق في انتشار تعاطي الشاي والقهوة بينهم، وأدى هذا إلى ارتفاع دخل البلاد الأوروبية.

وشكَّلت عائدات الجمارك البريطانية من واردات الشاي الصيني وحده حوالي 7% من دخلها، فصارت في القرن الثامن عشر أكبر مصدِّري الشاي إلى أوروبا وأميركا الشمالية[8]. يدلُّ على اتساع استهلاك تلك السلعة أنَّ أسرة بريطانية متوسطة كانت تنفق في تلك الفترة ما يقارب 6% من دخلها على الشاي والسُكَّر وحدهما[9]. وإذا أُضِيفت القهوة التي تحتاج السُكَّر بكميات معينة، وهي أيضاً مُنتَج لم يكن الأوروبيون يعرفون عنه شيئاً؛ فإنَّ نسبة الإنفاق عند الأسر المتوسطة تقترب من 9% . هذا يخص الإنفاق على السُكَّر في منتجات غذائية كمالية تخص المشروبات الساخنة. وترتفع الكمية كثيراً إذا أضيف إنفاق الأُسر على المشروبات الباردة والأطعمة التي تتطلب إضافة السُكَّر، مثل المخبوزات والحلويات التي تطوَّرت بسرعة بوصفها صناعة غذائية تزامَن نمو استهلاكها مع تزايد تعاطي الشاي والقهوة. وأدى ذلك إلى ارتفاع الإنفاق لدى طبقات المجتمع البريطاني على المنتجات الغذائية، بمن فيهم العمال، بقدرٍ ساهم كثيراً في توسيع دائرة الإنتاج والتبادل[10].

يمكن توضيح شمول عملية إلحاق معظم مناطق العالم بالمركز الأوروبي، ومضاعفة عملية تركيز الصناعة فيها، بأن يُنظَر في الكيفية التي تمكَّنت بها بريطانيا من امتصاص ثروات المناطق التي لم تتمكَّن من احتلالها بطريقة مباشرة، فعمدت إلى ممارسات تدميرية غير تقليدية من أجل السيطرة عليها. وتمثِّل مساعي بريطانيا لإخضاع الصين مثالاً جيداً لهذا النوع من الممارسات، حيث خاضت ضدها حرباً فريدة من نوعها عُرفت باسم "حرب الأفيون"، استمرت من سنة 1839م إلى 1860.

8 Ward, J. R.; The Industrial ..., p. 51.

9 المرجع السابق، ص 54.

10 حول أثر تطوّر صناعة السُكَّر على زيادة انفاق العمال البريطانيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وعلاقة ذلك بالاستعمار ونظام الاستعباد في أميركا، انظر:

Sheridan, Richard B.; *Sugar and Slavery: An Economic History of the British West Indies 1623-1775,* (Barbados and Jamaica: University of the West Indies, 2000). p. 26-28.

بعد أن أنشأت بريطانيا شركة الهند الشرقية، صارت الشركة تشتري الشاي من الصينيين بأموالهم ذاتها، الماخوذة منهم عن طريق تهريب الأفيون إليهم. كان البريطانيون يزرعون الأفيون في الهند ليُهرَّب إلى الصين بطريقة غير قانونية. ومع ازدياد حجم تجارة بريطانيا في الشاي الصيني الذي كانت تصدِّره إلى أميركا وأوروبا، ازدادت كمية الأفيون المتدفِّق إلى الصين[11]. وبواسطة هذه العملية المزدوجة حصل البريطانيون على الشاي مجاناً، لأن عمل الهنود شبه المجاني في إنتاج الأفيون جرت مبادلته بالشاي الذي احتكرت بريطانيا تصديره. وفي الوقت الذي حقَّقت فيه هذا العملية الثراء لبريطانيا دمَّرت مجتمعات الهند بسبب تحويل أراضيها من إنتاج الغذاء إلى إنتاج الأفيون، فانتشر الفقر ومات ثلث سكان إقليم البنغال في مجاعة ضربته في سنة 1770م.

على الجانب الآخر، نجح البريطانيون في تدمير قدرة الصينيين على الإنتاج بتشجيع تعاطيهم للأفيون. فحتى منتصف القرن الثامن عشر لم يزد ما كان يدخل الصين من الأفيون عبر نافذة التجارة العالمية عن 140 الف كيلوجرام، وكانت تلك هي كل الكمية التي تحتاجها الدولة للأغراض الطبية والتي تمر من حدودها بطريقة مشروعة تراقبها الدولة وتأخذ عليها الجمارك. وفي نهاية القرن الثامن عشر صدرت توجيهات من حكومة بريطانيا إلى شركة الهند الشرقية بالمتاجرة في الأفيون مع الصينيين ضد سياسة الحكومة الصينيَّة التي كانت تسعى للسيطرة على تأثيراته السالبة على مجتمعاتها واقتصادها. ولأن الشركة البريطانية كانت تحتكر إنتاج الأفيون في الهند، أنشأت مستودعات كبيرة في مدن قريبة من الصين وحوَّلتها إلى مخازن هائلة، وبدأ تسريبه بكميات كبيرة إلى الداخل. ونتيجة لهذه السياسة ارتفعت كمِّية الأفيون التي اخترقت حدود الصين في سنة 1800م إلى ما يقارب المليون ونصف كيلوجرام، أي ارتفعت في خمسين عاماً فقط إلى أكثر من عشرة أضعاف الكمِّية التي

11 في البداية، استخدمت بريطانيا نفوذها التجاري لجعل تجار كانتون الصينيين مدينين للتجار بريطانيين، وبعد إغراقهم في الديون شجعتهم على التحول إلى تجارة الأفيون ليتمكنوا من سدادا ديونهم. انظر:
Ward, J. R.; The Industrial …, .p. 57.

كانت مطلوبة للأغراض الطبية قبل ذلك[12]. أغرق الأفيون الشعب الصيني، وأضعف البريطانيون سيطرة الدولة على النظام الداخلي، واشتعلت حرب دمار لم يُعرَف مثلها من قبل. حقَّق تهريب الأفيون أرباحاً كبيرة للبريطانيين، وفي ذات الوقت مكّنهم من اختراق نظام الامبراطورية الصينية الحصينة وتدمير آخر معاقل الحضارات المتقدِّمة خارج أوروبا، بعد أن دُمِّرت حضارات الهند وأميركا وشمال أفريقيا[13]. وأتاح ذلك لبريطانيا تحويل أراض هندية واسعة إلى حقول لإنتاج الأفيون، فافتتحت مجالاً جديداً للاستثمار لم يكن ممكناً فتحه في أوروبا، واستطاعت فتح الأسواق الصينية أمام المنتجات الأوروبية نتيجة تحوُّل قطاعات واسعة من الصينيين إلى عاجزين عن العمل بسبب إدمانهم الأفيون. وبهذه الطريقة حقَّق تهريب الأفيون إلى الصين منفعة متعدِّدة النتائج لبريطانيا.

بكونها كانت تبيع الأفيون المزروع في الهند للصينيِّين، وتشتري منهم الشاي بمالهم لتصدِّره إلى أوروبا وأميركا؛ حقَّقت بريطانيا ربحاً متعدِّد الأوجه في عملية تبادُل غير مشروعة بين سلعتين لم يكن البريطانيون ينتجون أيَّاً منهما. وأدى ذلك إلى تدمير الذين يزرعون الأفيون والذين يستوردونه على السواء، فأُفقِر الهنود والصينيون واغتنت بريطانيا دونما جهد. ويوضح مثال الأفيون كيف لعب الاستعمار دوراً مُهمَّاً في جلب الثروة لأوروبا عبر الجريمة الدولية، العابرة للقارات.

استمرَّ احتكار بريطانيا لتصدير الشاي الصيني فترة طويلة، فساهم في دعم النمو القوي لاقتصادها حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وفي سنة 1773م، التي كانت فيها أميركا الشمالية ما زالت مستعمَرة بريطانية، قاطَعَ

---

12 كارل ماركس: **في الاستعمار...**، ص 9-8.

13 للاطلاع على وصف مبسَّط لتقدُّم الصين التجاري طوال القرنين السادس عشر والثامن عشر، والذي يوصف بأنَّه مثّل ''ثورة تجارية''؛ انظر:

Zelin, Madelene; ‘China’s Economy in Comparative Perspective, 1500 Onwards’ , *in: Embree, Ainslie T. and Gluk, Carol; Asia in Western and World History: Aguide for Teaching,* (London and New York: Routledge, 1997).

المستوطنون الأميركيون شاي شركة الهند الشرقية. بدأت المقاطعة حين أعفت الحكومة البريطانية الشركة من الضرائب، وأضرَّ ذلك بمصالح المستوطنين الأميركيين العاملين في استيراد الشاي لأنَّ بريطانيا لم تعفهم من الضرائب، فكسدت بضاعتهم لأنَّهم عرضوها بأسعار أعلى من أسعار شركة الهند الشرقية. وأثناء مطالبة المستوطنين بالاستقلال عن بريطانيا، تحوَّلوا إلى استهلاك البُن الذي كان في يد تجَّارهم لإضعاف بريطانيا التي اعتمد اقتصادها على تجارة الشاي، فشكَّلت المقاطعة أحد اسباب نجاح ثورة المستوطنين التي أدَّت إلى مولِد الولايات المتحدة. وهذا المثال يوضِّح دور منتجات الجنوب في التحولات الاقتصادية والسياسية التي مرت بها أوروبا الغربية، وهو دور لعبته أصناف أخرى من منتجات المستعمرات، مثل البُن.

عرفت أوروبا البُن أيضاً من حضارات الشرق، وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية أوَّل من بدأ توريده إلى أوروبا حين وسَّعت إنتاجه في سورينام وأندونيسيا منذ سنة 1600م، فحقَّق لها دخلاً كبيراً من أسواق أوروبا. وفي بداية القرن الثامن عشر أُنتِج البُن بكميَّات كبيرة في منطقة الكاريبي والمارتنيك، وساعد قرب مزارعه من أميركا الشمالية على ارتفاع استهلاكه فيها، فاتَّسع إنتاجه بقدر كبير في هاييتي التي اضطلعت بعبء توفير نصف استهلاك أوروبا منه في تلك الفترة. وكما فعلت تجارة الشاي في حالة الثورة الأميركية، لعبت تجارة البُن دوراً مهماً في علاقة حكومة الثورة الفرنسية بهاييتي، فاضطرت للاعتراف باستقلالها لتضمَن استمرار تدفق منتجاتها من البُن والسُكّر، لأنهما كانا مصدَرين أساسيَّين من مصادر ثراء فرنسا واستقرارها السياسي في فترة ما بعد الثورة، التي تدهور فيها الاقتصاد الداخلي لفرنسا بسبب التوترات السياسية. وهكذا لعبت منتجات المستعمرات دوراً مهماً في نمو البلاد الغربية، ليس فقط بتوسيع التجارة بين جانبي الأطلنطي ولا بتهيئة الظروف الملائمة لظهور الصناعة الآلية فيها، لكن أيضاً بدعم التحولات السياسية التي جرت

فيها. فتحقَّقت ثورتا أميركا وفرنسا ضِمن علاقات القوة التي استُغِلَّ فيها ارتباط اقتصادات أوروبا بمنتجات المستعمرات والسيطرة على ثرواتها وامتلاك ناتج عمل شعوبها، وأيضاً بامتلاك الشعوب في ذاتها باستعباد أفرادها والمتاجرة بهم.

طوال الفترة الواقعة بين النصف الثاني من القرن السادس عشر والنصف الأوَّل من القرن السابع عشر، شكَّل خطف الأفارقة والمتاجرة فيهم عماد النظم الاقتصادية لهولندا وبريطانيا وفرنسا. وهنا أيضاً نتج عن التوسُّع في تجارة البشر دخول المزيد من المستثمرين الأوروبيين في دائرة الأثرياء، وارتفع حجم التدفقات المالية إلى أوروبا، وهذه الأموال التي غذَّت دورة الاقتصاد الأوروبي أدَّت إلى رفع استهلاك السلع الكمالية بسبب ارتفاع مستوى الدخل. وتوسَّعت زراعة محاصيل أخرى كان على رأسها التبغ الذي عرفه الأوروبيون من مواطني أميركا، وشاع لديهم أنَّه يداوي بعض الأمراض، فارتفع استهلاكه حتى صار تدخينه مزاجاً لعامة الأوروبيين. وترتَّبت على ذلك موجة أخرى من استغلال أراضي المستعمرات لخدمة مطلوبات رفاهيَّة الإنسان الأوروبي، فحُوِّلت مساحات شاسعة في جنوب أميركا الشمالية لزراعة التبغ الذي جلب مزيد من الثروات لأوروبا. وبالطبع جلب معه المزيد من إزاحة السكان الأصليين إلى حافة المجاعة والموت، وأدخل مزيداً من الأفارقة في دائرة الاستعباد.

هكذا ارتبط مسار تطوُّر أوروبا بصناعة التخلُّف في المستعمرات، فالدخل المتدفِّق منها كان يؤدِّي إلى رفع الحاجات الاستهلاكية للأمم الأوروبية، ويتطلَّب إشباع تلك الحاجات المزيد من التوسُّع في المستعمرات وإخضاعها لحاجات الأسواق الأوروبية. وكان هذا يعني زيادة إفقار شعوب المستعمرات، ليعود ذلك ويحقِّق لأوروبا المزيد من التدفقات المالية فترتفع الحاجات الاستهلاكية مرة ثانية، وبهذه الطريقة تتكرر الدورة عدة مرات وتغذي نفسها بنفسها. والنتيجة أنَّ قدرة المجتمعات الأوروبية على الاستهلاك كانت تنمو بنمو قدرتها على تدوير الثروة وجني الأرباح، في الوقت الذي تتراجع فيه أوضاع شعوب المستغَلَّة إلى

الهامش مع تراجع ما تحصل عليه من نتاجات أراضيها وعملها. هكذا خلق الاستعمار ارتباطاً متبادَلاً بين تطوُّر أوروبا وإفقار الجنوب، فكانت تلك العملية تدير نفسها باستمرار طوال حقبة العصر الحديث، مستندة إلى خبرة أوروبية عريقة في مجال استدامة السيطرة وتوظيف العنف.

بالطبع لم يكن ارتباط الحضارة بالعنف شيئاً جديداً في التاريخ، ولم تخلقه أوروبا الغربية من العدم، فقد اعتبر الرومان أنفسهم رمزاً للحضارة وهم الذين كانوا يجعلون وحوشهم تفترس البشر في حفلات الترفيه، ويصفون الآخَرين بأنهم "برابرة"[14]. من ناحية أخرى، لم تقتصر ممارسة الأوروبيين للعنف على توسُّعهم في البلاد البعيدة فقط، فقد مارسوه ضد بعضهم أيضاً بطرق رُوعِي فيها أحياناً إيقاع أقصى قدر من الألم بالضحية وأن يُصاب بضرر نفسي بليغ[15]. وفي العصر الحديث ساهم تراكم خبرة العنف والتدمير لدى الأوروبيين في تطوير ثقافة إخضاع شديدة الفاعلية، دعمها المفكِّرون بتوفير مبرِّرات عقلية تقوم على أسس عنصرية، فميزوا بين نطاق الإنسانية الذي يتركَّز في أوروبا ونطاق اللا إنسانية الذي خُصِّص لبقية البشر. وصار عنف الدولة الأوروبية المبذول على الصعيد العالمي تقليداً ارتبط بإدارة مؤسساتها الاستعمارية، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو دينية أو علمية.

لم تقتصر ممارسة العنف ضد شعوب أميركا في مستهل الحداثة على الإسبان وحدهم، كما يدَّعي معظم مؤرِّخي بلاد شمال غرب أوروبا، فقد تلقّى الفرنسيون والبريطانيون الخبرة الإسبانية عندما غزوا أميركا الشمالية بعد

---

14 Heather, Peter: *Empire and the Barbarians: The Fall of Rome and the Birth of Europe,* (New York: Oxford University Press, 2010).p. xiv.

15 قدَّم بيتر هيزر المثال التالي لتفشي العنف المفرط في أوروبا في العصور الوسطى: في العام 882م قبض زونتبولد (Zwentibald)، دوق المورافيين الذين سكنوا سلوفاكيا، على اثنين من ابناء الملك انجلشتشوك (Englishchalk)، وانتقاماً منه بسبب اعتدائه على مملكة المورافيين، قطع اليد اليمنى لكل منهما. ثم قطع لسانيهما وأعضائهما الجنسية، مع عناية خاصة بأن "لا يبقى أي أثر للعضو الجنسي"، ثم أرسلهما إلى أبيهما. انظر: المرجع السابق، ص xiii.

منتصف القرن السادس عشر، وطوَّروا كثيراً من تقاليد التدمير التي ورثوها منها. ولم يمارسوا الإبادات فقط وإنما حرصوا على إثارة العداء بين المواطنين الأصليين ونشر ثقافة العنف بينهم، ودفعوا المال لهم ليبيدوا بعضهم بعضاً حتى تتحقَّق للأوروبيين إزاحتهم من الأرض.

حسب أحد المؤرِّخين، عمل الأوروبيون على بث الرعب في قلوب سكان أميركا الشمالية بأفظع الطرق، فكان قطع الرؤوس وتعليقها على الطرقات ودفع الرشاوى لاغتيال الزعماء المحليين وتحفيز العنف المتبادَل بينهم شيئاً مألوفاً. ويعزو إليهم نفس المؤرِّخ بدء انتهاك الأعراف التي أجمع عليها البشر في ظروف الحرب، وأهمها عدم قتل الذين لا يشاركون فيها من مجتمعات الطرفين، فكان الإنجليز يقتلون الجميع ويستهدفون بوجه خاص الأطفال والنساء[16]. وكثيرة هي الشواهد في تواريخ مستعمرات بريطانيا التي تؤكِّد ارتباط تطوُّرها بممارسة العنف في المستعمرات بهدف اضعاف مجتمعاتها وتفكيكها.

توضِّح الحادثة التالية طبيعة تلك الممارسات: عند نزول الإنجليز منطقة خليج ماساتشوستس لأول مرة؛ قابلهم المواطنون الأميركيون بالترحيب، كما فعل سكان جزيرة البهاما مع الإسبان عند وصولهم أميركا، فأحسنوا ضيافتهم. لكن سرعان ما بدأ الإنجليز حملات نشطة للاستيلاء على الأرض تحت قيادة هولندي اسمه وليم كيفت (Willem Kieft 1597–1647)، كان الأوروبيون قد نصَّبوه حاكماً على الأرض التي هبطوها ضيوفاً، وسموها هولندا الجديدة، فبدأ الإنجليز حرباً لا هوادة فيها ضد السكَّان المحليين لتهجيرهم والاستحواذ على أراضيهم. ومن أمثلة الفظائع التي مُورست ضد السكَّان ما حكاه إنجليزي اسمه ديفيد بيترسون عن ما جرى لقبائل البكوت (the Pequots)[17].

16 Jennings, Francis; *The Invasion of America: Indians, Colonialism, and the Cant of Conquest,* (United States of America, University of North Carolina Press, 1975). P. 212.

17 مجموعة قبائل من مواطني أميركا الأصليين يسكنون منطقة كونكتكت، ويوجد بعضهم في وسكنسن. خاض ضدّهم المستوطنون الأوروبيون حرب إبادة عنيفة بين السنوات 1634 - 1638.

يقول بيترسون إنَّه سمع ضجيجاً في أحد الأيام عند منتصف الليل فخرج لاستطلاع ما يحدث، ومن مكانه رأى النيران تشتعل في قرية قريبة ولكنه لم يتبيَّن ما كان يجري فيها بسبب الظلام. وفي الصباح رأى الإنجليز عائدين إلى القلعة وحين استفسر عن الأمر أخبروه، حسب قوله:

"إنهم قتلوا حوالي ثمانين هندياً، معتبرين أنهم قاموا بعمل يماثل بطولات الرومان بقتلهم مواطنين كانوا في نوم آمن، وبتمزيق الأطفال الرُضَّع الممسكين بأثداء أمهاتهم، إرباً إرباً تحت أنظار والديهم"[18].

يتابع بترسون سرد القصَّة موضِّحاً الطرق التي اتبعها الإنجليز في التلذُّذ بالعنف ضد مواطني القرية، بعد أن قتلوا أطفالهم ومزَّقوا أجسادهم. فيقول:

"رُمِيت أوصال بعض الأطفال في النيران لتلتهمها ورُبط بعضهم إلى الأعمدة ومُزِّقت أجسادهم وثُقِبت بطريقة يهتزُّ لها قلب الحجر. وقُذف بعضهم في النهر، ولما رَمى الآباء والأمهات أنفسهم وراء أطفالهم لإخراجهم، منعهم الإنجليز من الخروج من الماء، فغرق الأطفال وأهلهم"[19].

أمَّا الذين استطاعوا الهرب واللجوء إلى الغابات ليلاً، فيقول بيترسون إنهم في صباح اليوم التالي:

"بدأوا يخرجون تحت وطأة الجوع والبرد، وكانت أيدي بعضهم أو أقدامهم مقطوعة، وبعضهم مثخن بالجراح في كل موضع، فجاءوا يستعطفون الأوروبيين أن يسمحوا لهم بأن يتدفأوا ويحصلوا على خبز، ولكنهم كانوا يُقتَلون بدم بارد ويُقذفون في الماء"[20].

يقول بترسون إنَّه بمجرَّد أن علم بقيَّة مواطني المنطقة بما حدث، هاجموا الأوروبيِّين. ويعلِّق: "لكنَّنا لم نسمع أبداً أنَّهم قتلوا طفلاً أو امرأة"[21].

---

18 المرجع السابق، ص 164.

19 المرجع نفسه، ص 164 - 165.

20 المرجع نفسه، ص 163.

21 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

بمثل هذه الممارسات التي يمكن أن تُملأ بها صفحات عديدة تؤرِّخ لغزو أراضي أميركا وغيرها من بلاد العالم استهلَّت أوروبا صعودها للعصر الحديث، لكن كتب التاريخ الأوروبية المعاصرة نادراً ما تورد هذا النوع من الأحداث. لقد أحصى فرانسيس جنغز عدة ممارسات لا أخلاقية للإنجليز أثَّرت بشكل حاسم على اصطدامهم بسكان أميركا ورجّحت الكفة لصالحهم، منها: إثارة العداء بين السكان وخلق الانشقاقات وإثارة القتال بينهم لتيسير السيطرة عليهم، وتدبير الخدع وخرق اتفاقيات السلام، بما فيها تلك التي أُبرِمت في ظروف السلم. هذا إلى جانب استخدام تقاليد حربية كانت مرفوضة بين البشر لا تكتفي بالحد من قوة العدو، بل تستهدف إبادته ومحو وجوده تماماً. وترتَّب على ذلك أنْ ردّ السكان الأصليين بعنف أيضاً على سلوك الأوروبيين، فصوّرتهم المصادر الأوروبية بأنهم "شرِّيرون ومتوحِّشون تتلبَّسهم روح شيطانية"، بهدف تغذية دوافع الأوروبيين لممارسة العنف[22]. بهذه الطرق طوَّر الإنجليز والفرنسيون خبرة القمع التي ابتدرها الإسبان عندما قاموا بغزو أميركا الجنوبية والكاريبي، والتي شكَّلت التمرين الأول في رفع قدرات بلاد غرب أوروبا على التوسع الاستعماري.

كان التمرين الثاني هو الاستعباد الذي استمر منذ منتصف القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر. ورغم أنَّ البرتغال كانت هي التي ابتدرت خطف واستعباد مواطني غرب أفريقيا، إلَّا أنَّه لا توجد اليوم إحصائيات دقيقة حول تلك الفترة. أمَّا عن استعباد شعوب أميركا، فاعتماداً على إحصاءات موثوقة أوردها المؤرِّخ الاقتصادي إريك وولف، استعبَدَ الأوروبيون خلال النصف الأول من القرن السادس عشر في نكاراغوا مائتي ألف مواطن، وفي البرازيل

22 المرجع نفسه، ص 212 - 213.

سبعمئة وخمسين ألف مواطن، وكان هؤلاء من مواطني أميركا الأصليين فقارب مجموعهم المليون إنسان. وقياساً على هذه الإحصاءات يمكن تقدير عدد الذين استُعبِدوا في كل القارة خلال القرن الذي تلى غزوها بواسطة الأوروبيين، بما يقارب الخمسة ملايين أميركي، وهذا عدد كبير قياساً إلى أعداد مواطني البلاد آنذاك[23]. وكان مجال استغلالهم الأساسي هو استخراج المعادن وزراعة التبغ والأرز والنيلة، التي تركَّزت في المنطقة الجنوبية من أميركا الشمالية، واستُجلِب أكثرهم من المستعمرات الإسبانية في أميركا، خاصة المكسيك.

وثَّقَ لاس كاساس الكيفيَّة التي كانت تُنقل بها شحنات مستعبَدي أميركا، فيقول إنَّ السفن لم تكن تحمل من الطعام إلا ما يكفي بحارتها ليمكن شحنها بأكبر عدد ممكن من المستعبَدين، وكانت النتيجة الحتمية هي موت أغلبهم. وفي مرة استطاعت سفينة فقَدَت بوصلتها أن تستدل على الطريق لمسافة خمسة أميال بحرية بالجثث الطافحة من المستعبَدين الذين ماتوا جوعاً في سفينة كانت تحمل شحنة منهم، وظلت ترمي بجثثهم إلى البحر[24].

بعد البرتغال وإسبانيا دخلت هولندا مجال اختطاف مواطني غرب أفريقيا. وفي الفترة بين 1650–1640م، صارت شركة الهند الغربية الهولندية أكبر كيان أوروبي يتاجر في المستعبَدين، أمَّا بين السنوات 1650 و 1660م فقد صاروا السلعة الحصرية للشركة[25]. وعُرف القرن الثامن عشر في التاريخ الاقتصادي

23 قدّر لينفورد فيشر عدد المستعبَدين من المواطنين الأصليين في كل القارة، في الفترة بين 1492 وحتى 1900 بعدد يتراوح بين اثنين ونصف إلى خمسة ملايين. انظر:
Fisher, Linford: “Why shall we have peace to bee made slaves’: Indian Surrenders During and After King Philip’s War, *Ethnohistory*, vol. 64, no. 1 (2017), 91-114.

24 Las Casas, Bartholeme: *A Short Account of the Destruction of the Indies,* (London, Penguin, 2004). p. 92.

25 Valls, Andrew (ed.): *Race and Racism in modern Philosopy,* (Ithaca and London, Cornell University Press, 2005). P. 19.

لأوروبا بأنَّه "العصر الذهبي" لاسترقاق مواطني غرب أفريقيا، ففي الفترة الممتدة بين 1701م و 1810م نقلَ الأوروبيون أكثر من ستة ملايين أفريقي إلى كل من جمايكا التي كان البريطانيون يحتلُّونها وسانت دومينيك التي كان الفرنسيون يحكمونها، حيث استُعبِدوا ليخدموا في مجال زراعة قصب السُكَّر. وحتى بعد منع تجارة الرقيق في بريطانيا في سنة 1807م اختطف التجَّار الأوروبيون حوالي اثنين مليون أفريقي نقلوهم إلى كوبا للعمل في مزارعها التي تصب منتجاتها، أو عائداتها، في أوروبا[26].

على مدى الفترة الممتدة بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر وحدها، استعبَدَ الأوروبيون حوالي عشرة ملايين أفريقي، استُخدِموا في زراعة التبغ وقصب السكر وتصنيعهما في ولايات فرجينيا وكارولاينا. وتقول بعض التقديرات إنَّ هذا العدد الذي وصل على قيد الحياة لم يكن يمثِّل سوى خُمس الذين اختُطِفوا، لأن عدد الذين كانوا يموتون منهم هو أربعة من بين كل خمسة مختطَفين[27]. وكان السبب الرئيسي لموتهم هو المرض والجوع وسوء النقل وقسوة المعاملة. واستمرت عمليات الخطف على مدى القرن السابع عشر وبلغت أوجها في القرن الثامن عشر.

تقول إحصاءات أخرى إنَّ مجموع الأفارقة الذين اختُطِفوا في مئتي عام تجاوز خمسة عشر مليون إنسان من غرب أفريقيا وحدها، وصل منهم عشرة ملايين إلى أميركا وأوروبا، ومات خمسة ملايين في الطريق[28]. وبإضافة هذا العدد إلى ما سبق تقديره من مستعبَدي شعوب أميركا وهو حوالي خمسة ملايين، يكون مجموع ما استعبده الأوروبيون حوالي عشرين مليون إنسان،

---

26 Wolf, Eric R.: *Europe* ..., P. 196.

27 جورج ليفير: **عصر ...**، 1970، ص 9-8.

28 انظر قاعدة بيانات الاستعباد في الموقع التالي على الإنترنت:
The Slave Trade Data Base: SPSS CODEBook, 2019 Edition.
https://www.slavevoyages.org/documents/download/SPSS_Codebook_2019.pdf

وبإضافة الموتى من المختطفين يقارب العدد خمسين مليوناً. ويمكن تقدير هول هذه الكارثة الإنسانية إذا علمنا أنَّ عدد سكان أوروبا كلها، باستثناء روسيا فقط، كان ستين مليوناً عند بداية الاستعباد، أي أنَّ منطقة غرب أفريقيا وأميركا الجنوبية أُفرِغتا من ما يقارب سكان أوروبا كلها.

لا شكّ أنَّ هذا النوع من استغلال البشر إذا أُضِيف إلى استغلال الأرض والمعادن والمواد الخام كان كافياً لأن يدمِّر مجتمعات هذه المناطق ويورثها تخلفاً دائماً، وبالمقابل كان عائده كافياً لأن يصنع لأوروبا تقدُّماً يضمن لها الاحتفاظ بفارق نمو كبير بينها وبين هذه المناطق في المستقبل، لأن انخفاض أعداد السكان لا يُعوَّض بسهولة. حقَّقت هذه الأنماط من الاستغلال التقدُّم لأوروبا ليس فقط عبر الثروة التي جلبتها لها قوة العمل المجاني وتوسُّع التجارة، وإنما أيضاً عبر تطوير النُظم المؤسّسيَّة والاجتماعية والسياسية لبلادها. وكانت مهام السيطرة على المستعمَرات كافية لأن توفِّر للأوروبيين فرصة تنمية أجهزة إدارية فاعلة، وخبرات سياسية كبيرة في مجال تسيير شؤون إمبراطورياتها. وبالتالي، كان الثراء المادي وتنظيم المجتمع وتقدُّم الأجهزة الإدارية ونمو المدن من أبرز علامات الحداثة، الناتجة عن ممارسة الضبط والسيطرة[29].

تشير بعض وثائق أوروبا إلى ارتباط نمو بلادها بتدمير مناطق العالم. ومن تلك الوثائق احتفاء أدبيات القرن التاسع عشر بظهور ازدهار اقتصادي ورفاه اجتماعي مفاجئَين في بلاد شمال غرب أوروبا أثارا دهشة القادمين من دول أخرى. نقل ر. سوزي (R.Southey) عن إسباني زار بريطانيا في أواخر القرن الثامن عشر دهشته الشديدة لما تشهده من نمو، فعبَّر عنها بقوله:

---

29 تؤكّد دراسات اقتصادية معاصرة أنَّ تطوّر أوروبا الغربية في الفترة بين 1500-1850 نتج عن نمو سريع جداً في مستوى التمدُّن والتجارة وعدد السكان وتحوُّل مؤسسات الدولة، الناجم عن الارتباط بمنطقة الأطلنطي، ولم يصدر عن خصائص داخلية خاصة بأوروبا أو استمرار الإرث الروماني الإغريقي. انظر: Acemoglu, et al: The Rise of Europe: Atlantic Trade, Institutional Change, and Economic Growth, *The American Economic Review*, vol. 95, no. 3, (June 2005), 543-579. P. 572.

"ربما لم تحظ مملكة أبداً بتحوُّل غير عنيف كالذي حظيت به إنجلترا في هذا العهد، فالمدن تتضاعف امتداداتها والضرائب تتزايد، وقيمة المال ترتفع كأنَّما تُكتَشف مناجم فيها، وتُشَق القنوات من طرفها إلى طرفها الآخر، وحركة المواصلات تتزايد بحيث أصبحت سرعة الاتصال عشرة أضعاف ما كانت عليه. واختراع ماكنة البخار يجعل من هذه الحقبة أشبه بحقبة اختراع المطبعة، والتصنيع يسير إلى أقصى مدى، لقد انتقلت روح التجارة إلى كل شيء. ومع ضياع الإمبراطورية في أميركا تُكتسَب أخرى في الشرق. وهذا جزء من الصورة، فالتحوُّل يبلغ أصغر الأشياء، حتى ملابس وأذواق كل طبقات المجتمع"[30].

تصف هذه الفقرة اتِّساع نطاق التقدُّم والرفاه السريع الذي حدث في بريطانيا عند القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، فيما يشبه الانفجار المفاجئ. وهو شيء لا يُفسَّر بعوامل التصنيع واختراع الماكنة، لأن التصنيع كان واحد من مظاهر التحوُّل كما يشير النص الذي يوضِّح ارتباط ذلك الرفاه بالاستعمار. فهو يشير إلى أنَّ استقلال الولايات التحدة عن بريطانيا تم تعويضه بالسيطرة على مستعمرات في الشرق، ويقصد بذلك الهند. الشيء الأهم، أنَّ النص يؤكد ظهور علامات الرفاه على كل فئات المجتمع الانجليزي، وهو ماتؤكده أيضاً وثائق تاريخية مثل الأعمال الفنية والأدبية المنتَجة في تلك الفترة في كثير من بلاد شمال غرب أوروبا. فلوحات الرسامين الرومانسيين والانطباعيين في فرنسا توثِّق لتزامن اتساع رفاه الطبقة البرجوازية مع توسع نطاق الغزو الخارجي، ويظهر ذلك بوضوح في أنواع الملابس والحلي والأثاث والمساكن.

على طريقة ذلك الكاتب الإسباني، نظرَ المؤرِّخون الأوروبيون في أوضاع التقدُّم التي آلت إليها بلادهم في القرن التاسع عشر، مستشعرين ضرورة تفسيرها. وبحسب النظرة المتمركزة حول الذات التي غذَّت نزعة السيطرة على

---

30 المرجع السابق، ص 20.

العالم؛ بدأ الأوروبيون تدبير تاريخ داخلي لصعودهم نحو العصر الحديث، واصطناع مشهد يعتِّم على حقيقة السيطرة التي مارسوها، وصِيغت صورة جاذبة عن تحولات نتجت عن حراكات كبيرة جرت على كل المستويات، وقدِّمت بوصفها ثورات.

ملخَّص هذا الفصل، أنَّ تقسيم العمل الذي فرضته أوروبا الغربية بالعنف على شعوب العالم، وزوَّدها بالمعادن والمواد الخام والمحاصيل النقديَّة وقوة العمل المجاني، أوجد حاجة ماسَّة لتطوير قدرات العمَّال والحِرَفيين الأوروبيين، وتأهيل المهنيين والاختصاصيين في معظم المجالات، فساهم ذلك في تطوير الصناعة ونُظُم العمل وإدارته، ومعها ارتقت مؤسسات المجتمع والدولة الأوروبية. ولأن فرض التبعيَّة الاقتصادية على الشعوب الأخرى شكَّل أساس عملية تحديث أوروبا؛ فإنَّ قدرة أُممِها على تأمين مطلوبات تطوُّرها اعتمدت إلى حد كبير على استمرار الهيمنة الخارجية، فكان لا بدَّ من الحفاظ عليها لتستمر عجلة التحديث. فصار الشرط الضامن لاستمرار وتوسُّع حداثة أوروبا هو استدامة نظام السيطرة العالمية، وعندما تفكَّكَ نظام السيطرة العسكرية والإدارية على المستعمرات اضطلعت المعرفة الأوروبية بمَهمَّة التحكُّم بعقول النُخب الحاكمة للبلاد التي كانت مستعمرة، لضمان تبعيَّتها.

لم يقتصر الأثر الإيجابي لهذه الممارسات على أوروبا وحدها، وإنما استمرّ ليسهم في تطوُّر القارات التي استوطنها الأوروبيون والتي تشكِّل اليوم ما يُسمَّى (الغرب)، وعلى رأسها الولايات المتحدة، فقد أوضح المؤرِّخ إدوارد بابتست أنَّ نمو الرأسمالية فيها ارتبط ارتباطاً وثيقاً بنمو تجارة الرقيق واستغلال قوة عمل المستعبَدين[31].

---

31 انظر:

Baptist, Edward E,: *The Half Has Never Been Told: Slavery and the Making of American Capitalism*, (New York: Basic Books, 2014).

هذه الممارسات التي صاغت العصر الحديث تشكِّل منظومة هيمنة متكاملة تأسَّست على مبدأ التمييز بين الأوروبيين وشعوب العالم. ويبقى الاستعمار عنصراً واحداً فقط فيها، لأنَّه لم يكن سوى لحظة تأسيسية لعملية تبعية كليَّة، شملت طرق التفكير والمعرفة بالعالم والآخرين وإدراك الذات لتضمَن استدامة نظام الطاعة والخضوع لدى شعوب المستعمرات. واليوم يقع عبء التحرُّر من هذه الوضعية، التي أساسها التبعية العقلية، على هذه الشعوب وحدها.

نظرة عامَّة على الثورات الأوروبيَّة

دبَّر المؤرِّخون الأوروبيون الخطاب العام للثورات الأوروبيَّة بالترتيب التالي: رُفعت الثورة الفرنسيَّة إلى مستوى الحدث العظيم ما بين حدوثها وحتى سنة 1848م، واستخدم فردريك إنجلس مفهوم الثورة الصناعيَّة في سنة 1845م، وأشاعه توينبي بعده ليحقِّق لوطنه بريطانيا ثورة توازي الثورة الفرنسيَّة. وفي القرن التاسع عشر اصطُنِعت صورة ثورة للإصلاح الديني وتبعته الثورة الجغرافية، وفي القرن العشرين أُنشِئت قصَّة الثورة العِلميَّة لسدّ الفراغ الزمني الذي يلي عصر النهضة. وفي القرن ذاته ابتُكِرت فكرة الثورة التجارية لتشغل الفترة الزمنية الطويلة التي تفصل عصر النهضة عن تاريخ الإغريق.

يُلاحَظ أنَّ جهود تدبير معظم هذه الثورات تركَّزت في الفترة الواقعة بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، والتي أوضحت الفصول السابقة أنَّها كانت فترة ما بعد الرومانسية. وفيها احتاج الأوروبيون إلى تفسير تطوُّرهم الذي نتج عن السيطرة على أراضي العالم وثرواته، فخدمَت قصَّة الثورات هذه المهمة بأن فسَّرت نهوض أوروبا بأنَّه نتاج حراك وفاعليَّة لأمم أوروبا الغربية. ولأن الفترة التي صِيغ فيها خطاب الثورات كانت فترة تحوُّل في وعي أوروبا بذاتها؛ فإنَّ سؤالاً ثانياً ينطرح حول علاقة خطاب الثورات بخطاب الحداثية (modernism) الذي وُلِد في الفترة ذاتها، وركَّز على ظهور وعي جديد بالزمن. إنَّ مناقشة علاقة خطاب الثورات بخطاب الحداثية تتطلَّب إبراز صلتهما بالقرن السادس عشر، وبوجه خاص لحظة صعود الوعي بالذات القوميَّة في أوروبا الغربية.

ربطت هانّا أرندت (Hannah Arendt) صعود البرجوازية الأوروبية بنشأة الدولة القوميَّة لأنها تكَّونت في سياقها، وحسب رأيها فإنَّ البرجوازية الأوروبية "... كانت حتى ذلك الوقت أوَّل طبقة في التاريخ تتمكن من السيطرة اقتصادياً من دون أن تستولي على الحُكم"[1]. وبما أنَّ الدول الأوروبية حكمت مجتمعاً يسوده الانقسام الطبقي، قدَّمت البرجوازية نفسها وكأنها تحكُم باسم الأُمة بلا انحياز لأية طبقة. ولأن مفكِّري التنوير كانوا يعبِّرون عن نظرة الطبقة الوسطى التي توافقت مصالحها مع البرجوازية، دعوا إلى التوحُّد عبر العقل، لأنَّه يجمع الناس بغضِّ النظر عن اختلافاتهم الدينية والسياسية. هكذا كانت وضعيَّة التحدُّث باسم المجتمع ككل، دونما انحياز إلى طبقة أو طائفة، قد أوحت بوجود توافُق اجتماعي وسياسي وفكري بين الأوروبيين، فهيَّأت الشرط الذي دفع بمشروع التوسُّع الاستعماري، وهو شرط تجانُس أُممِ أوروبا المؤدِّي إلى تصوُّر هويَّة واحدة تميِّزهم عن بقيَّة شعوب العالم.

في استقصائها جذور العنف الذي تمارسه الدولة الحديثة، أكَّدت هانّا وجود ارتباط عميق بين نشأة الدولة الأوروبية الحديثة وتقاليد العنف الذي مارسته محاكم التفتيش الأوروبية، وتراثها الذي رسَّخته في فترة العصر الحديث المبكر. وفي سياق تنقيبها عن جذور الفاشيَّة بحثت عن دور أنظمة الحُكم الأوروبية في إعطاء أُمَّة معيَّنة حق الهيمنة على الشعوب على مستوى العالم، وتوصَّلت إلى أنَّه يمكن العثور على تلك الجذور في النظام الاستعماري الذي طوَّرته بريطانيا باستخدام نظام إداري حقَّق لها سيطرة سياسية مطلقة آنذاك. وتقول إنَّ التنظيم البيروقراطي هو الذي مكَّن بريطانيا في القرن التاسع عشر من تزويد موظفيها الذين يديرون المستعمرات بسلطة قمعية أتاحت لهم النظر إلى أنفسهم بوصفهم (عِرق) متميِّز عن بقيَّة البشر. تضيف هانّا، أنَّ توافُق النظام الإداري مع الفكر العِرقي في إدارة المستعمرات البريطانية أتاح لجهاز الدولة تطوير

1 Arendt, Hannah; *The Origins of Totalitarianism*, (Cleveland: The World Publishing Company, 1962). P. 123.

قدرات التدمير بتوظيف مبادئ العقل، لأنَّه لا يمكن ممارسة الاضطهاد إلا إذا تمَّت عقلنته. وتؤكِّد أنَّه رغم أنَّ بِنية الدولة القومية القمعية القائمة على تضامن العقلانية والأيديولوجيا العِرقية اختلفت في الفترة بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر؛ فإنَّ إسبانيا كانت أوَّل دولة أوروبية تمكَّنت من تحضير ذلك الترياق الفعَّال في إخضاع الشعوب، المتمثِّل في تركيبة تجمع بين النظامين السياسي والإداري ونظام معرفة وتنشئة عقلية.

مثلما لاحظَت هانّا الارتباط بين نشأة الدولة القومية وصعود دور البرجوازية في مشروع السيطرة الأوروبية، لاحظ جوزيه راباس أيضاً وجود ارتباط بين نظام إدارة الدول في المستعمرات الأوروبية ونشأة الدولة القومية كقوة غازية عالمية. وأكَّد أنَّه يمكن تتبُّع أصول نظام إدارة المستعمرات البريطانية رجوعاً إلى اللحظة التي غزا فيها القائد الإسباني هرناندو كورتس مملكة المكسيك (مملكة الأزتك)، لأنَّ تجربة الإسبان هي التي زوَّدت البريطانيين بخبرة إدارة المستعمرات الواسعة، التي تفُوق القدرات المباشرة للإداريِّين. يقول راباس:

> **"إنَّ التطوير المبكِّر لنظام الحُكم غير المباشر الذي صاغه كورتس، وأعطى فيه دوراً للنُخبة الوطنية؛ يماثل بوضوح الدور الذي أُعطِي للنُخب الوطنية في نظام الإمبراطورية البريطانية. ويُوازي بوضوح كبير المساهمات التي قامت بها الأنثربولوجيا الوظيفية في إنشاء نظام إدارة فاعلة"**[2].

باطِّلاعها على نتائج التجربة الإسبانية تحصَّلت كل من بريطانيا وفرنسا، وبعدهما بقيَّة بلاد غرب أوروبا، على معرفة نظرية وعمليَّة بطُرق إدارة البلاد التي جرى غزوها، وعبر تجربتها الخاصة أضافت تلك البلاد خبرات جديدة إلى أساليب السيطرة. ويختلف الاستعمار الذي طوَّرته بلاد شمال غرب أوروبا في القرن الثامن عشر عمّا مارسه الإسبان في القرن السادس عشر بأنَّه توصَّل إلى طريقة جديدة لاستدامة الإخضاع، وهي غرس معارف في عقول

2 Rabas, Jose: *Inventing America*, (Oklahoma: University of Oklahoma press,1994). p. 88.

أمم المستعمرات تحطُّ من مكانتهم وتمحو ثقتهم في ذاتهم ومجتمعاتهم، وترفع مكانة أوروبا التي تسيطر عليهم، وبذلك تسلبهم قدرة المقاومة وشق طريق تحرُّر يقودهم إلى تطوُّر مستقِل.

كان الفيلسوف فرانسيس بيكون أول الذين أشاروا إلى دور الوصفة العقلية في إخضاع الشعوب عندما قال إنَّ المعرفة يمكنها أن تخدم تمكين الغزاة. كان بيكون قد اطَّلع على نصوص كاتب إيطالي عاصره اسمه جيوفاني بوترو (Giovanni Botero 1544–1617) قال بإمكانية تحقيق سيطرة ناجعة عن طريق تحصين الغزاة لأنفسهم ببناء قلاع تحوُل دون أن يتَّصل بهم مواطنو البلاد التي يغزونها، فلا يقع بينهم وبين الغزاة تداخل. وشدَّد أيضاً على أن تُقام المستعمرات قريبة من مركز الإمبراطورية ليحصل المركز على فوائد أكبر، فإذا ابتعدت المستعمرات عن المركز قلّت فائدتها له، حسب رأي بوترو. تُرجِم كتاب بوترو إلى عدة لغات أوروبية في زمن صدوره، وكان تداول هذا النوع من النتاج الفكري الذي أُضيف إلى الخبرة العمليَّة التي وفَّرها الإسبان والبرتغاليون، من أبرز أسباب نجاح الأوروبيين في تحقيق قدر كبير من السيطرة لم تبلغه أمة أخرى قبلهم.

بالمقابل، يظهر تعامي المؤرِّخين المعاصرين عن ارتباط الفكر الأوروبي بالسيطرة في تجاهلهم المستمر لرسوخ التمييز لدى مفكري وفلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر، من أمثال بيكون وبركلي ولوك وكانط. فلم تُنتقَد أفكار بيكون حول الاستعمار والسيطرة بطريقة جادة إلا في دراسات تُعدُّ على أصابع اليد الواحدة، رغم أنَّ أفكاره كانت قد لقيت انتشاراً واسعاً لدى بعض الذين عاشوا في زمنه، كما حدث مع المفكر السياسي الإنجليزي جيمس هارنجتون (James Harrington 1611–1677).

كان بيكون هو الذي أشاع مصطلح الاستعمار (colonization) بمعناه الذي يشير في الأصل إلى نمو النباتات وتكاثرها حتى تحتل المكان بكامله، وذلك عندما شبَّه عملية بناء المستعمرات بتكاثر النباتات في مقال كان قد كتبه حول الغزو العسكري وأعطاه عنوان: (عن المزارع) (Of Plantations). وفي سياق تنظيره للكيفية التي يمكن أن توطِّد بها بريطانيا سيطرتها على مناطق أميركا الشمالية وإيرلندا؛ اقترح بيكون استخدام القوة العسكرية لإرهاب مواطنيها وإزاحتهم من أراضيهم. وصف بيكون أسلوب السيطرة القائم على عزل الغزاة عن المواطنين بأنَّه "الطريقة الحديثة" التي يستخدمها الإسبان، ووضعها مقابل تداخُل الغزاة مع المواطنين والتزاوُج معهم، الذي كان يمثِّل أسلوب الرومان. هذا الترابط بين الفكر والسيطرة في سياق تطوُّر مشروع الغزو الأوروبي للعالم هو الذي يفسِّر لماذا تزامنَ ظهور الوعي بالحداثة مع بروز نمط وعي تاريخي يستهدف إخفاء الجانب المظلم للعصر الحديث بتدبير قصَّة ثورات أوروبية.

الشيء الذي يدلُّ على التواطؤ بين خطابي الحداثة والثورات؛ أنَّه فيما وراء سطح قصَّة نقاء التاريخ الأوروبي لم تغب أبداً عن نصوص المؤرِّخين الأوروبيين علامات اتصال تاريخ أوروبا الحديث بالجوانب المظلمة للحداثة. فخلف محاولات إخفاء مظاهر الهيمنة كانت نصوص مدبِّري تاريخ أوروبا تفصِح جبراً عن حضور العنف في لغتها. وأبرز علامات ذلك هو مصطلح الثورة الذي ينسب صعود أوروبا إلى تحولات تأخذ صورة انفجارات كبرى في مجالات العلم والتقنية والدين والمجتمع والفلسفة والفن.

في الغالب تتَّصف الثورة، في مفهومها الذي اكتسبه المصطلح في الفكر الأوروبي الحديث، بثلاث صفات: فهي أولاً تحوُّل جذري يستغرق موضوعه، سواء أكان المجتمع أو الفكر أو العلم، وثانياً هي تحوُّل سريع يترتَّب عليه انقلاب مفاجئ في الأوضاع، وهي ثالثاً تتَّصف بالعنف، إذ يستجيب الموضوع

قسراً للتغيير. لقد كانت صفات الشمول والسرعة والعنف، المتضمَّنة في مفهوم الثورة الذي يصطنع صورة الجانب المضيء لتاريخ أوروبا؛ هي السمات نفسها التي ميَّزت الجانب المظلم لصعود أوروبا، فقد اتصف غزو للعالم بأنَّه تحقَّقَ بسرعة وعنف كبيرين وشمَلَ معظم مناطق العالم. وهذا التطابق بين خصائص الخطاب التاريخي المصطنع والخطاب المقموع يكشف عن البنية العميقة لنمط الوعي الذي ألهم مدبِّري التاريخ الأوروبي خطابهم السائد اليوم.

بسبب اتِّصاف تاريخ صعود أوروبا بصفات العنف والسرعة والشمول، التي كانت قد ميَّزت الممارسات الاستعمارية أيضاً، اكتسب مفهوم الثورة المتَّصف بذات الصفات سلطةً لا شعورية على تفكير المؤرِّخين الغربيين، فلعب في نصوصهم ذلك الدور المحوري، الغالب على تفسير تاريخ العصر الحديث. إنَّ سمات التحوُّل الثوري تنطبق على تاريخ صعود أوروبا من جهته السالبة فقط، فهو ثوري من حيث صعود ظواهر الدمار والسيطرة، لا من حيث صعود العقلانية والحريات والقيم الإنسانية وغيرها مما هو شائع في الخطاب المعاصر حول توصيف الحداثة.

لأن الفكر التاريخي الأوروبي لم يرغب في فضح علاقة الحداثة بالعنف، اصطنع تاريخاً لتطوُّر أوروبا يغطِّي على ماجرى بإضفاء طابع تدريجي على انفجاره السريع، لكي يقرِّب سرعة مساره من الهدوء المألوف لحركة التاريخ. لكن، لصعوبة اصطناع تاريخ طبيعي لمسارٍ تميَّز بعجلة متسارعة وعنف بالغ؛ أعطى المؤرِّخون ثوراتهم صورة تحولات عضوية للتخفيف من طابع الانقطاع والقسر اللذَين تحقَّق بهما تطوُّر أوروبا، فمُدّ نطاقها الزمني ليبدأ بالثورة التجارية والنهضة والإصلاح الديني، ويمرّ بالثورة العِلميَّة ثم الثورة العقلية، لينتهي بالثورتين الصناعية والفرنسية. فكلما تكاثرت التحولات وامتدَّت سلسلتها، طالت مراحل الانتقال نحو اللحظة النهائية وبدا الانتقال سلساً والمسار طبيعياً، وتلاشى الطابع العنيف الذي يستدعي التساؤل حول كيفية حدوثه في زمن

قصير. وهنا تكمن وظيفة نَظْم المؤرِّخ للأحداث التاريخية، واضفاء تماسك عضوي على مراحله وعصوره.

إذاً، فيما وراء قصَّة صعود أوروبا الحديثة، وعبر التدابير التي صيغت بها سلسلة ثوراتها، تظهر فاعلية تاريخية متناقضة بين السرعة والبطء، بين الانقلاب المفاجئ والتحوُّل التدرجي، وهذا يظهر في تكامُل الوظيفتين اللتَين ظل يؤدِّيهما مفهوما "الثورة" و"السلسلة" في خطاب المؤرِّخين الغربيين، في مراحل تقلُّبهما بين المنهجيات المختلفة المستخدَمة في المعرفة التاريخية الحديثة، والتي تظهر أيضاً في تنوعات المدارس التاريخية المعاصرة.

في مفهوم التحوُّل التاريخي طويل الأمد الذي طوَّرته مدرسة الحوليَّات الفرنسية في وقت قريب، وشاع استخدامه بعد النصف الثاني من القرن العشرين؛ تراجعت عناية المؤرِّخ بالأحداث وما يتَّصل بالحدود الضيِّقة للزمان والمكان. وتبعاً لذلك لم يعد السرد هو الأسلوب الوحيد لصياغة الخطاب التاريخي، وصار الأسلوب الكمِّي يؤدِّي دوراً مُهمَّاً في تحليل الوقائع التاريخية وتفسيرها. ولأنه يتم التركيز فيها على ما يمكن أن يُدرَس عبر حقب طويلة، مثل الثقافة المادِّية والأفكار والمعتقدات؛ لم تعدْ علامة التحولات هي سرعة الزمن، بل البطء. واعتمد المؤرِّخون على رصد الانقطاعات بين الفترات الطويلة، أي على وجود "قطيعة" فيما بينها. ولأنَّ السمة المميِّزة للثورة لم تعد تتركَّز في سرعة التحوُّل قدر تركُّزها في اختلافات المراحل التاريخية؛ استمرَّ مصطلح الثورة مُستخدَماً عند بعض مفكري التاريخ الجديد لوصف تحولات العصر الحديث، ولم يُنتَقَد استخدامه بطريقة نظاميَّة مؤثِّرة[3].

---

3 وُصِف ما قام به مؤرِّخو الرومانسية في القرنين التاسع عشر والعشرين بأنَّه مهّد لحدوث "ثورة كوبرنيكية" ربطت العلوم الإنسانية بالتاريخ. انظر:
جاك لوغوف: **التاريخ الجديد**، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007). ص 482.

بخلاف خطاب القرن التاسع عشر، الذي مازالت سلطته حاضرة في نصوص المؤرِّخين الغربيين حتى اليوم، برزت مؤخَّراً مطالبات بروايات تاريخية متعدِّدة الأصوات. تقول جنيفر غولوبوي، بما أنَّ التاريخ الاجتماعي يتناول مجتمعات الماضي، فلا بدَّ من أن تُضمَّن فيه وجهات نظر معظم أعضاء المجتمع ليعكس نظرات مختلف الجماعات المتعايشة فيه، ومن هذا تستنتج ضرورة دراسة أثر علاقات القوة وصراعات الفئات الاجتماعية على المعرفة التاريخية[4]. وتشير باحثة أخرى في التاريخ الاجتماعي إلى أنَّ فئات معيَّنة من المجتمعات الحديثة لا تظهَر في التاريخ ولم يهتمَّ بها المؤرِّخون؛ لأنَّها لم تكن جزءاً من عمليات الإنتاج الصناعي الواسع أو المؤسسات الكبيرة، وتقدِّم فئة الحِرفيين مثالاً لهؤلاء[5]. وعلى هذه الأرضية التي تطالِب بتاريخ متعدِّد الأصوات، تتزايد اليوم المطالبة بأن تكتب مجتمعات الجنوب تاريخها من واقع خبرتها، بما يصنع صورة للعصر الحديث تترابط فيها التواريخ المحلية لكل الشعوب بطريقة منصفة.

بالطبع تتضمَّن بعض نصوص المؤرِّخين والمفكِّرين الغربيين اعترافاً بمساهمات بعض الحضارات غير الأوروبية في نشأة العصر الحديث والتاريخ العالمي، لكن تلك الاعترافات ترِد في نصوصهم دائماً بطريقة عارِضة ثم تُزاح مساهمات تلك الحضارات إلى مكانة ثانوية. فرغم أنَّ حضارة شرق وجنوب المتوسط (الحضارة العربية الإسلامية) كانت هي الأقرب مكانياً وزمانياً إلى أوروبا الغربية وأثَّرت فيها كثيراً، إلَّا أنَّ مساهمتها أُبعِدت إلى الهامش دائماً بدعوى أنَّها لم تُضف شيئاً لما ابتكره الإغريق، وأن فضيلتها اقتصرت على أنَّها حفظت للأوروبيين تراث (أسلافهم) الإغريق ليواصلوا تطويره، عبوراً بعصر

---

4 انظر مقدمة كتابها:

Goloboy, Jennifer (ed.); *Industrial ..,* .

5 Hanna, Nelly: *Artisan Entrepreneurs in Cairo and Early Modern Capitalism* (1600-1800), (New York: Saracuse University Press, 2011). P. 4.

النهضة. هذه هي الفكرة التقليدية التي تتكرَّر في معظم النصوص الغربية، فالشرق مجرَّد خازنٍ لا ترقَى مساهمته إلى مساهمة الإغريق وأمم غرب أوروبا، حسب وجهة النظر تلك.

تُستَلزَم عدَّة استنتاجات من المناقشة السابقة. أهمّها أنَّ قصَّة العصر الحديث لا تعكس صورة موضوعية لما جرى في ماضي أوروبا فعلاً، وإنَّما هي نتاج مخيِّلة تاريخية تشكَّلت في ظروف حاجة أوروبا لدعم مشروع سيطرتها، وأنَّ صعودها الحضاري تميَّز بصفة لم يتَّصف بها صعود حضارة أخرى، هي تعميم السيطرة عبر غزو عسكري تضامن فيه عمل الاقتصاد والمعرفة مع السياسة والدِين. بدأ مشروع السيطرة بتوجُّه السلطات السياسية للدول الأوروبية، ممثَّلة في ملوكها، لاقتسام العالم فيما بينها، وساندهم بابوات روما بمنحهم أراضي العالم استناداً إلى مبدأ الحق الإلهي والنيابة عن المسيح في نشر المسيحية. وساهم التجَّار والرأسماليون في تمويل حملات الغزو عبر اتِّفاقيات تضمَن تقسيم أرباح ثروات المستعمرات بين الحكَّام والتجَّار والكنيسة. وفي ظل هذا التوافُق الواسع حظي المشروع أيضاً بدعم المفكِّرين الذين اضطلعوا بمهمة صوغ مزاعم تفوُّق الإنسان الأوروبي على غيره من البشر بلغة فلسفيَّة وعلميَّة.

هذا التضامُن في دعم السيطرة ينفي فكرتين يتمسَّك بهما المؤرِّخون الغربيون لتبرئة المشروع الأوروبي من مسؤولية تدمير الحضارات الأخرى. إنَّه ينفي فكرة أنَّ التوسُّع العنيف كان دائماً ملازمة لنشر الحضارات، وأن احتلال أوروبا للعالم كان حدثاً عابراً لم يرتبط به تطوُّرها بطريقة جوهرية. ردّاً على الادِّعاء الأول فإنَّ مراجعة التاريخ الحضاري العالمي توضِّح أنَّ معظم حضارات الجنوب لم تنتشر أو تتوسَّع عبر العنف، أمَّا عن الادِّعاء الثاني فقد أوضح الفصل السابق أن ممارسة العنف المفرط شكَّلت عنصراً أساسيَّاً في صعود أوروبا يختلف عن كل ما مُورِس في الحضارات الأخرى، فإلى جانب اتِّصافه بتضامُن جهود مختلف فئات المجتمعات الأوروبية، تميَّز العنف

الأوروبي بشموله كل بقاع العالم، واكتسابه طابعاً مُستداماً منحَه استمرارية إلى اليوم.

إن كانت الاستنتاجات السابقة تفسِّر نشأة خطاب الثورات في عمومه، يبقى هناك سؤال مُهِم بخصوص انقسام التاريخ الحديث إلى عصر حديث مبكِّر وعصر حديث متأخِّر، وهو تقسيم يطابق تمييز خطاب الثورات بين ما دار في إيطاليا والبرتغال وإسبانيا من ثورات، وما دار منها في بريطانيا وفرنسا وألمانيا. والإجابة عن هذا السؤال تجيب أيضاً عن ما يكمن وراء خطاب الثورات من أدوار بخصوص الظروف المحليَّة لكل دولة أوروبية في تاريخ العصر الحديث، بما يتيح فض وهم عالمية تاريخ أوروبا ويوضِّح أنَّه ليس سوى تناسج لتواريخ محلية واقليمية، مثله مثل تواريخ جميع أمم العالم.

فيما وراء خطاب الثورات تبدو ديناميَّات التواريخ المحلية الأوروبية ماثلة في الصراع بين كتلتي دول شمال غرب أوروبا ودول جنوب غربها، وهذا انقسام يتغذَّى على انقسام تاريخي بين هاتين الكتلتين الجغرافيتين ارتسمَ على أساسٍ طائفي يجري بين دول الشمال التي تمثِّل الكتلة البروتسانتية (بريطانيا وفرنسا وألمانيا) ودول الجنوب التي تمثِّل الكتلة الكاثوليكية (إسبانيا والبرتغال). والتمييز الذي يُلاحَظ في الخطاب التاريخي بين مجموعة الثورات التي تخصّ العصر الحديث المبكِّر والمجموعة التي تخصّ العصر الحديث المتأخر؛ يقوم على انقسام إقليمي بين الدول الأوروبية يوافق انقساماً طائفياً بين الكاثوليك والبروتستانت. فالرواية التي يقدِّمها المؤرِّخون الأروبيون إلى العالم على أنَّها رواية محايدة لتاريخ العصر الحديث تحمل داخلها صراعات أُممِهم وتباينات تواريخها المحلية، ولهذا السبب لا يمكن فهم كيف نُظِّمَت الثورات الأوروبية ورُتِّبَت سلسلتها بمعزل عن فهم علاقتها بالصراعات التاريخية بين كتلتي بلاد الشمال وبلاد الجنوب.

كانت أبرز ملامح الدولة الحديثة، التي وُلدت مع الدولة الإسبانيَّة عقب سقوط غرناطة في سنة 1492م، هو صون الهويَّة القوميَّة بتوظيف أيديولوجيا النقاء التي أخذت أشكال عديدة. وكان مظهرها الأول هو فكرة النقاء العِرقي، التي تجلَّت في صورتها المبكرة في إبعاد الإسبان المسلمين واليهود عن وظائف الدولة الوَليدة وجهازها الاقتصادي، وقد تمّ ذلك بوساطة محاكم التفتيش. تركَّزت مَهمَّة محاكم التفتيش في الحد من التنوع والحفاظ على "نقاء الأمة" الإسبانية التي كانت هويتها في طور البناء آنذاك، وفي ذات السياق اضطلعت محاكم التفتيش في المستعمرت الإسبانية، وخاصة في أميركا، بمهمة عزل المواطنين عن المشاركة في جهاز الدولة وإبقائهم خاضعين لحُكم الغزاة الإسبان. من هنا يمكن فهم أهمِّية المبدأ الذي قامت عليه فكرة نقاء الدم في الدولة الإسبانية (Limpiza de sangre)، والذي يقول عنه ديفيد نورنبرج:

> **"حسب هذا المبدأ فإنَّ الدمَّ اليهودي والدمَّ المسلم أدنى مكانة من الدمِّ المسيحي، وامتلاك [الإنسان] لأي مقدار من أيٍ من هذين النوعين من الدماء يجعله عرضة للهرطقة والفساد الخُلقي. وعليه، فإنَّ كلَّ مَن ينحدر مِن أصلٍ يهودي أو مسلم، مهما كان بعيداً عن ذلك الأصل، يجب أن يُعزَل عن الكنيسة والمعاملات الدنيوية ومن أيَّة نقابة حرفية وأيَّة مهنة، وعلى وجه الخصوص يجب أن يُحرَم من الزواج بمسيحية"[6].**

---

6 سادت النظرة العرقية داخل إسبانيا نفسها، فقد ارتبط (العِرق) بمحاكم التفتيش التي تشكّكت في مسيحية كل مسلم وكل يهودي تحوَّل إلى المسيحية، وهم الذين سُمُّوا (المتحوِّلون) (conversos). قام مبدأ مراقبة هؤلاء على فكرة أنَّ المتحوِّل ليس مثل المسيحي الأصيل، فكل مسيحي جديد في الدين هو كائن مشوّه. نتج هذا التفكير عن تصوُّر بيولوجي يماثل بين المتحوِّل إلى المسيحية من المسلمين واليهود والكائن المتحوِّل بيولوجياً. وهي أطروحة مبكرة صاغها أحد الكتّاب الأوروبيين في نص اسمه "البُريق". والكلمة تحوير لكلمة "البراق"، ذلك المخلوق الذي حمل الرسول محمد إلى السماء في رحلة الإسراء، ويهدف تحوير الاسم إلى التقليل من من مكانة التراث الإسلامي ومكانة المتحوِّلين. في أطروحته تلك زعم الكاتب أنَّ المسلم واليهودي مثل ذلك المخلوق المركّب من عدة مخلوقات، ليسا سويّين مثل المسيحي المولود لأم وأب مسيحيَّين. انظر:

Greer, Margrette R.,Mignolo, Walter D. Quilligan, Maurean: *Reading ...,* p. 81.

على مدى فترة القرنين السادس عشر والسابع عشر اعتمد الإسبان في إدارتهم للمستعمرات على توظيف التمايز العِرقي بينهم وبين وشعوب المستعمرات، وفي داخل أوروبا اعتمد التفوُّق الإسباني على الإعلاء من مكانة العقيدة الكاثوليكية، وأدى ذلك إلى توظيف العنف في مجال العرق. وكانت أبرز التنظيمات التي ساهمت في ذلك محاكم التفتيش التي يمكن اعتبارها أبرز مؤسَّسات الحداثة في مرحلتها الباكرة، لكونها اطَّلعت بضبط وإدارة المستعمرات الإسبانية وإخضاع المواطنين لحُكم الغزاة. مثلما خدمت نظام الدولة بالتخلُّص من الخصوم السياسيين للحكام.

بعد أن عُمِّمت المشاركة في مشروع غزو العالم الذي كانت البابوية قد أعلنت عنه، وقُسَّمت بموجبه الأرض بين إسبانيا والبرتغال، وفي سياق الصراع بين دول غرب أوروبا على اقتسام العالم تمَّت تعبئة قوى أمم الشمال ضد إسبانيا لانتزاع مستعمراتها، لأنها كانت صاحبة النصيب الأوفر فيها. ولقيت الطريقة التي سيطرت بها إسبانيا على المستعمرات وحقَّقت بها نهوضها العسكري والاقتصادي إدانة واسعة من أمم شمال غرب أوروبا، وذلك بتصوير العنف والقسوة التي مارسها الإسبان ضد شعوب أميركا كحقبة سوداء في التاريخ البشري عُرِفت باسم "الأسطورة السوداء" في أدبيَّات القرن الثامن عشر. لكن أمم شمال أوروبا التي أدانت التاريخ الاسباني عتَّمت على ممارستها للعنف في مجال الغزو واسترقاق الأفارقة في مرحلة الحداثة التي قادتها فرنسا وبريطانيا في القرنين السابع والثامن عشر، ولم تكن أقلَّ همجيَّة من ممارسات إسبانيا في أميركا، وهذا يؤكِّد أنَّ ابتكار فكرة الأسطورة السوداء جاء في سياق سعي دول شمال غرب أوروبا لاقتسام مستعمرات إسبانيا، ولم يكن له علاقة بنقد الممارسات اللا إنسانية للأوروبيين في الخارج.

ما يؤكد أنَّ الصراع بين الأوروبيين ارتبط بالصراع على العالم كغنيمة يجب اقتسامها، أنَّ دولاً أوروبية أخرى ستأتي متأخِّرة لكي تُنازِع بريطانيا وفرنسا

وهولندا السيطرة على بعض المناطق، في دورة ثانية للصراع على المستعمرات، مثلما كانت تلك الدول قد صارعت إسبانيا من قبل. ففي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين استخدمت ألمانيا أسلوب التقليل من شأن الأمم الأوروبية التي يُراد منازعتها على المستعمرات، فقام النازيون بتوظيف فكر الاستعلاء العِرقي ضد شعوب شمال غرب أوروبا التي استخدمته قبل ذلك ضد الإسبان، بأن اصطنع الفكر القومي الألماني أسطورةً حول تفوُّق (العِرق) الآري على بقيَّة شعوب أوروبا ليحوز الألمان حق غزوها. وكان لهذا التوظيف انعكاساته في مجال المعرفة التاريخية التي ميَّزت بين ثورات جنوب غرب أوروبا وثورات شمال غربها.

في مجال المعرفة تزامنت لحظة إزاحة الإسبان عن تاريخ أوروبا الحديث مع اعطاء تاريخ بريطانيا وفرنسا مكانة عليا عبر الثورتين الفرنسية والصناعية، اللتين يُقال إنهما نتجتا عن نشر عصر التنوير للمعرفة العِلميَّة وفِكر التحرُّر والمساواة. إنَّ دافع قسمة التاريخ الأوروبي الحديث إلى عصر حديث مبكِّر وآخر متأخِّر هو اصطناع فاصل بين أمم جنوب غرب أوروبا وأمم شمالها، يُعطي بريطانيا وفرنسا حق أن تظلا ممسكَتَين بتسيير شأن العالم والهيمنة عليه، وهو انقسام حرَّض ألمانيا لاحقاً على أن تتَّخذ طريقاً مماثلاً.

لقد قُصِد من اصطناع فترة ثانية للعصر الحديث تحويل الصورة القمعية للحداثة إلى صورة ذات طابع تحرُّري فتم إحلال الصورة الجاذبة عن عصر التنوير محل الصورة السيئة عن إبادة مواطني أميركا وانتشار محاكم التفتيش. لا يعرض المؤرِّخون الأوروبيون اللحظة التي تمكَّنت فيها دول شمال غرب أوروبا من الإمساك بمركز النظام العالمي وإزاحة إسبانيا، إلا بفصل تلك الحظة عن مشروع غزو العالم، الذي تشاركته كل بلاد غرب أوروبا، شمالاً وجنوباً.

سعت أمم شمال غرب أوروبا للاستئثار بتاريخ العصر الحديث بأن جعلت "الحداثة" لحظة فارقة في تاريخ العالم تتَّصف بميزات مغايرة للحظة صعود إسبانيا. وفي الواقع لم يحدث أي تغيُّر في منطق السيطرة الأوروبية عبر الغزو، فعندما أُزيحت إسبانيا من قمة النظام العالمي حلَّت أيديولوجيا نشر الحضارة محل أيديولوجيا نشر المسيحية، وتبنَّت دول شمال غرب أوروبا ممارسات الغزو نفسها ولكن تحت غطاء "تمدين الشعوب البربرية" وتوظيف فكر التنوير لتبرير نمط العنف نفسه الذي مارسه الإسبان. فلم يختلف نمط السيطرة التي مارسها البريطانيون والفرنسيون عمَّا مارسه الإسبان إلا في تحويل المبرِّرات من دينية إلى عقلية. وكما اتَّخذ الإسبان من الدين مؤشِّر فرق بينهم وبين الآخرين، اتَّخذ البريطانيون والفرنسيون من الحضارة مؤشِّر فرق يميِّزهم عن الشعوب التي قاموا بغزوها، في وقت لم يكونوا فيه متحضرين أكثر منها.

كان التمييز بين الشعوب على أساس الدِين في إسبانيا أول محاولات تفسير الاختلاف الثقافي على أساس بيولوجي، فبما أنَّ المُسلِم الأندلسي أو اليهودي إذا تحوَّل إلى المسيحية يصبح مسخاً وليس مسيحياً أصيلاً، فهو مثل المخلوق المشوَّه بيولوجياً، لا ينتمي إلى نوع أصيل من الكائنات. ومن هذه الموازاة بين التشوُّه العقائدي والتشوُّه البيولوجي تطوَّرت فكرة أنَّ الثقافة تصلح لأن تكون مؤشِّراً على انحراف الطبع. وصار من الممكن الحُكم على سلالة الإنسان، أو عِرقه، بحسب سلوكه الثقافي، فاعتمد النقاء العِرقي على مراقبة السلوك الثقافي وضبط تنوعاته.

هنا يتأكَّد أنَّ المرحلة الثانية من الحداثة لم تختلف عن مرحلتها الأولى، ففي القرن العشرين بلغت نظريات النقاء العِرقي ومساعي اجتثاث التعدُّد في أوروبا قمتها مع صعود النازية وانفجار حرب غذَّتها نزعة تصفية التعدُّد. وكان هذا الانفجار نتيجة طبيعية لأيديولوجيا الحداثة التي لا ترى خارجها إلا التأخُّر

والتقليدية، فهي مثل أيديولوجيا النقاء العِرقي لا ترى إنسانية إلا لصانعيها، وترى تواريخ الآخرين ضلالاً يجب تصفيته وإحلال مسيرة الحداثة مكانه.

إنَّ أهمَّ وظائف قصَّة الثورات هي صون الفرق بين الأوروبيين والآخَرين، الذي كان قد تأسَّس على قاعدة نشر المسيحية في حقبة الحداثة الباكرة. فالقصَّة تزيح تاريخ إسبانيا، المرتبط بالحقبة المبكِّرة من الحداثة، لتعيد تأسيس الفرق على معيار نشر الحضارة والتقدُّم في المرحلة الثانية من تاريخ الحداثة، المرتبطة بتاريخ بريطانيا وفرنسا وألمانيا، بوصفها مرحلة عقلنة للفروق بوسعها اخفاء تاريخ العنف والتدمير. وبهذا فإنَّ فِكر التمييز بين البشر ما زال يسكن الفكر الحديث، وسيبقى كذلك ما لم يُفكَّك الأساس العميق لمنطق اصطناع الفروق بينهم، الملازم لمشروع الحداثة وفكرها السائد.

خاتمة

بحثَ هذا الكتاب الكيفية التي صِيغت بها صورة العصر الحديث في المعرفة التاريخية من جهة تركُّزها حول تواريخ كلٍ من بريطانيا وفرنسا وألمانيا، وإيطاليا بدرجة أقل. وكان السؤال الأساسي هو: ما الذي جعل تاريخ هذه الدول يشكِّل تاريخ العصر الحديث، المتميِّز عن العصور الأخرى بترابُط جميع بلاد العالم؟ ولأن القصَّة الأوروبية تقول إنَّ هذه الدول تحقَّقت فيها تحولات اتَّخذت طابع ثورات يعود إليها فضل إنتاج الحداثة؛ صار السؤال هو: كيف اصطُنِعت للعصر الحديث صورة إيجابية تخص تاريخ أوروبا وأُهمِلت جوانبه السالبة؟ وكانت الفرضية أنَّ قصة تلك الثورات تستهدف تقديم أمم غرب أوروبا إلى العالم بوصفها الأكثر جدارة بقيادته وتحقيق خلاصه، بما أنَّها صنعت العصر الحديث.

بعد أن رسم الفصل الأول صورة الأوضاع الحضارية التي كانت سائدة في العالم قُبَيل بداية العصر الحديث وأوضح التفوُّق الكبير للعالم غير الأوروبي، عرضَ الفصل الثاني قصة الثورات الأوروبية التي صاغت صورة لأوروبا في بداية العصر الحديث تقدِّمها بوصفها المنطقة الأكثر تطوراً في العالم. ولفهم هذا التعارُض بدأ القسم الأول بدراسَة الثورات الأقرب إلى الحاضر منتقلاً إلى الأقدم، فتناولَ الثورة الفرنسية وتوصَّل إلى فشلها الجزئي في تحقيق شعاراتها الإيجابية، لأن فرنسا لم توقِف تعدِّيها على الشعوب الأخرى، بل غزت

المزيد من البلاد. وقارنها بثورتين قريبتين منها زمنياً، حدثتا في بيرو وهاييتي، موضِّحاً أنَّ ثورة هاييتي تستحق مكانة عالمية أكثر من الثورة الفرنسية لأنها حرَّرت كل شعب هاييتي من الاستعباد والاستعمار، وحقَّقت لجميع فئاته الحرية والمساواة، بينما حقَّقت الثورة الفرنسية العدالة لجزء من الفرنسيين ولم تحقِّقه لآخرين. ثم تناولَ الفصل الثالث مكانة الثورة الصناعية، مبيناً أنَّ تقدُّم اقتصاد بريطانيا ارتبط بتدمير صناعة النسيج في الهند وتطوُّر صناعة السُكَّر في مستعمرات أميركا والبحر الكاريبي التي اعتمدت على استعباد مواطني غرب أفريقيا. وتناول الفصل الثالث ثورة العقلانية عارضاً نظرة فلاسفة التنوير لغير الأوروبيين، التي أرست مبادئ العنصرية وبرَّرت ممارسة التمييز ضدهم، وفي الوقت ذاته دعت إلى مساواة الأوروبيين ونشر العدل بينهم، فتوصَّل إلى أنَّ فكر التنوير ساهم في عقلنة التمييز وأنه لا يعكس تقدُّماً في نظرة الأوروبيين لغيرهم وإنما يعكس تطوُّر نظرتهم إلى أنفسهم. وفي عمومه، خلص القسم الأول إلى أنَّ التحولات التي عاشتها مجتمعات شمال غرب أوروبا بين القرنين السابع عشر والثامن عشر اتَّخذت صورة ثورات في مخيِّلة المؤرِّخين الأوروبيين لأنها حقَّقت حراكاً على خلفية جمود الواقع الأوروبي، فهي تكتسب دلالة ثورية فقط في ظل الأوضاع المحلية التي عاشتها أمم غرب أوروبا. وتناول الفصل الرابع الثورة العِلميَّة ممثَّلة في أعمال كوبرنيكس وغاليليو ونيوتن وديكارت في القرنين السادس عشر والسابع عشر، والتي نُسِبَ إليها أنَّها ربطت حياة الأوروبيين بممارسات عِلميَّة حديثة. وتوصَّل إلى أنَّه لا يمكن الجزم بأنَّه وُجِدت ممارسة متوافقة السمات في تلك الفترة شكَّلت كلاً متجانساً يمكن أن يسمَّى (العلم)، وبالتالي لا يُمكن وصفه بأنَّه شهد تحولاً جذرياً يمثِّل ثورة. وبعرض نماذج من ممارسات قمع العلماء اتضح أنَّ الأحداث القليلة، المتناثرة زمانياً ومكانياً، التي جمع بينها المؤرِّخون في بداية النصف الثاني من القرن العشرين ليصطنعوا منها قصَّة ثورة حررت العقلية العلمية، لا تتَّخذ أهميَّة إلا في التواريخ المحلية

لأمم غرب أوروبا؛ لأنها جاءت في ظلِّ أوضاع سياسية ودينية واجتماعية غلبَ عليها القمع والاستبداد، بينما لم تعِش أُمم العالم الأخرى أوضاعاً مماثلة تدعوها لأن ترى في ما جرى في أوروبا ثورة ما.

متعمِّقاً في الماضي، تعرَّضَ القسم الثاني لثورات القرنين السادس عشر والخامس عشر، بادئاً بالثورة الدينية المنسوبة إلى عصر الإصلاح، الذي شهد حراكاً فكرياً ودينياً استهدفَ تقييد السلطة البابوية. وخلص إلى أنَّ نشأة الكنيسة البروتستانتية والدول التي دعمتها، وما رافق ذلك من ظهور لمؤسسات جديدة في الحياة الاجتماعية، تؤكِّد حدوث تحوُّل تاريخي في بلاد شمال غرب أوروبا في مجال العقيدة والفكر الديني، أمَّا حدود ذلك التحوُّل وهل يشكِّل ثورة أم لا، فيبقى موضع نقاش، لأنَّ وصف الأوروبيين له بأنَّه "إصلاح" يشير إلى طابعه اللا ثوري. وتناول الفصل الثاني الثورة الجغرافية التي أُشيع عنها أنَّها حقَّقت بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر اكتشافات ومعارف علمية غيَّرت إدراك البشر للعالم. وبمقارنة المعرفة الجغرافيَّة الأوروبية بالمعرفة العربية في تلك الفترة تبيَّن تقدُّم المعرفة العربية على الأوروبية، وأن الرحلات البحرية كانت مجرَّد حملات غزو اعتمدت على خبرة عملية في مجال البحرية وحقَّقت مكاسب اقتصادية وعسكرية لأوروبا، لا غير. وخُتِمت سلسلة الثورات الأوروبية بفحص قصَّة الثورة التجارية، وتبيَّن أنَّها استهدفت تقريب لحظة بداية عصر النهضة، التي تحتل القرن الرابع عشر الميلادي، إلى حضارة الإغريق الواقعة بعيداً في القرن الخامس قبل الميلاد. وخلص القسم الثاني إلى أنَّ ثوراته الثلاث تكمن أهميتها لتاريخ أوروبا في أنَّها تلحِقه بتراث الإغريق، لأن اصطناع أصل أوروبي خالص لتاريخ العصر الحديث كان مستحيلاً من دون جسر يربط بلاد غرب أوروبا ببلاد الإغريق، البعيدة عنها جغرافياً وزمنياً. فمثَّلت إيطاليا ذلك الجسر لكونها بلد الرومان الذين اتصلوا بحضارة الإغريق، عندما غزوا بلادهم قديماً.

يشترك القسمان الأول والثاني في توصُّلهما إلى أنَّ ما يعدُّ تحولات ثورية في التاريخ الحديث لا يتَّخذ قيمة إلا في التواريخ المحلية لأمم أوروبا الغربية، لأنها تكتسب أهمِّيتها من أوضاع غلبَ فيها على أوروبا القمع السياسي والديني والفكري، وسادها صراع اجتماعي عنيف وعزلة تامة عن العالم الخارجي. ولأن تلك التحولات جرت على خلفية مظلِمة كهذه؛ بدت للأوروبيين لحظات مضيئة في التاريخ، أمَّا خارج سياق التاريخ الأوروبي فلم تكن كذلك.

سعى القسم الثالث لفهم تاريخ العصر الحديث من غير اعتماد على فكرة الثورات، فكشف عن مقدار ارتباط خبرتَي التطوير والتدمير بصعود أوروبا. وناقش وظائف قصة الثورات في الخطاب التاريخي الأوروبي، فخلص إلى أنَّها خدمت ثلاث وظائف تضامنت لترفع مكانة الأوروبيين على غيرهم من البشر: كانت الوظيفة الأساسية أنَّها أنشأت لماضي أوروبا صورة تاريخ نشط، تتقدَّم عبره مجتمعاتها إلى الأمام دوماً، بينما صُوِّرت تواريخ الأمم الأخرى في وضعيَّة جمود تُظهِر مجتمعاتها عاجزة عن التطوُّر، وكانت الوظيفة الثانية تصوير أوروبا بأنها تتطوَّر من تاريخها الخاص الذي يزوِّدها بأصالة الذات ونقاء الهويَّة. أمَّا الوظيفة الثالثة لقصَّة الثورات فهي فصل تاريخ الحضارة الأوروبية عن تواريخ حضارات الشرق باستبعاد مساهمة إسبانيا، ذات التراث الأندلسي، من لوحة تاريخ العالم الحديث.

يُستخلَص ممَّا سبق أنَّ قصص الثورات الأوروبية تقلب العلاقة بين ماضي وحاضر أوروبا لأنها تفسِّر تطوُّرها على أساس فكرتين: الأولى أنَّ بعث تراثها القديم كان سبب بدء تطوُّرها المعرفي والعلمي، والثانية أنَّ هذا التطوُّر سبَقَ نموها الاقتصادي ومهَّد لاستيلائها على النظام العالمي، وغزوها للعالم. وهاتان النتيجتان لهما أهمِّية بالغة على فهم العالم الذي سترسِّخه المعرفة الغربية الحديثة لدى جميع الشعوب، وبه ستسيطر على عقول النُخَب المتعلِّمة.

جملة ما توصَّلت إليه فصول هذا الكتاب، أنَّ المعرفة التاريخية الأوروبية المتركِّزة حول قصَّة الثورات ليست رواية موضوعية عن التاريخ العالمي لأنها تخلط بين نوعين من التحولات. التحوُّل الأول تمثِّله وقائع تاريخية محدَّدة زماناً ومكاناً ومحتوى، وهي الأحداث، ومثالها في التاريخ الأوروبي الثورة الفرنسية والإصلاح الديني، فهما حدثان محدَّدان لا خلاف على أنهما شكَّلا تحوُّلين مهمَّين في مسار صعود أوروبا نحو العصر الحديث. والنوع الثاني من التحولات هو الحِقب التاريخية، التي لا تمثِّل أحداثاً وإنما هي تدابير خالصة للمؤرِّخين تعتمد على مفاهيم معيَّنة ينظِّمون بها المواد التي يريدون تفسيرها. ولأن العصور فترات مصطنعة، فهي تكون أحياناً محل اختلاف ينتج عن تبايُن فكر المؤرِّخين واختلاف مفاهيمهم التي ينظِّمون بها المواد التي يعالجونها من منظور مجتمعاتهم، ومثال الحِقب في التاريخ الأوروبي: عصر التنوير والفترات التي تُنسَب إليها الثورة العِلميَّة والثورة الصناعية والثورة التجارية والثورة الجغرافيَّة. أي جميع بقيَّة التحولات في قصَّة الثورات الأوروبية. فهي لا تتضمَّن أحداثاً محدَّدة الزمان والمكان، ولا يتطابق محتواها مع الوصف المقدَّم لها.

بما أنَّ معظم التحولات في خطاب الثورات الأوروبية لا تتَّصف بطابع الموضوعية، فهي لا تصلح خارطة طريق لتطوُّر مجتمعات العالم لأن مصدرها خبرة حدَّدتها أوضاع المجتمعات الأوروبية ومصالحها في فترة غزوها للعالم. وهذا ينطبق أيضاً على الحدثَين اللذَين لا خلاف على أنهما شكَّلا تحوُّلَين مهمَّين، وهما الثورة الفرنسيَّة والإصلاح الديني. فالسمة المميِّزة لهما هي اتفاقهما في أنهما صراعان دارا بين قوى اجتماعية أوروبية، وتركَّزا على مطالب محدَّدة تاريخياً. فحراك الإصلاح الذي كان أوسع انتشاراً من الثورة الفرنسية حدَّدت مضامينه الظروف الخاصة بكل بلد أوروبي مستقلاً عن الآخر، وتبنَّى مصلحوه أفكاراً وممارسات متنوعة حسب أوضاع مجتمعاتهم، بقدر لا تفيد فيه محاولات

الجمع بينها وتحويلها إلى وصفة عالمية الصلاحية، كما يفعل الذين يشترطون لتحقيق الحداثة في الشرق أو الجنوب حدوث (عصر إصلاح ديني). بالطبع لا شيء يمنع المطالبة بإصلاح ديني في بلد معيَّن لضرورة داخلية تمليها معالجة أوضاعه، لكن لا يمكن أن يُتَّخذ الإصلاح الديني شرطاً مسبقاً لتحديث جميع البلاد أو نهوضها، لمجرَّد وجوده في تجربة التحديث الأوروبية.

هنا ينطرح السؤال الذي يقود إلى نتائج مهمَّة حول ما استخلصته فصول هذا الكتاب، وهو: لماذا يهمل المؤرِّخون الأوروبيون، والغربيون عموماً، دور إسبانيا في صعود أوروبا عتبة العصر الحديث؟ والإجابة هي: لأن ذلك يربط بداية الحداثة بالحضارة الأندلسيَّة، لا بتراث أوروبي إغريقي-روماني خالص. فالقول بأن نهضة أوروبا الحديثة نتجت عن اتِّصالها بالمجال الحضاري الذي كانت إسبانيا جزءاً منه حتى بداية القرن السابع عشر، سيدفع بالتأثيرات التي أنتجت حضارة أوروبا نحو منطقة شرق وجنوب المتوسِّط، وليس شمال أوروبا. من ناحية أخرى، فإنَّ استبعاد إسبانيا عن تاريخ العصر الحديث يخدمَ عملية الفصل بين تطوُّر أوروبا الغربية ونشر العنف الذي رافق غزوها لبلاد العالم. ولهذا ربَط بعض مفكري أميركا اللاتينية، من الذين يعترضون على إزاحة تاريخ إسبانيا عن بداية العصر الحديث، بين انطلاق الحداثة وسنة 1492م، التي شهدت ثلاثة أحداث حاسمة في تاريخ أوروبا الحديثة، هي: سقوط سلطنة غرناطة التي كانت آخر ممالك الأندلس، وتأسيس أول نظام دولة قومية في أوروبا، ووصول كولمبس إلى أميركا مستهِلّاً مشروع غزو العالم[1].

هذا الترابط بين التواريخ الأوروبية وغير الأوروبية في مطلع العصر الحديث يبيِّن أنَّ الحداثة كانت منذ بدايتها عالمية الطابع، بمعنى أنَّها ربطت بين مناطق العالم المختلفة. والنتيجة المستلزَمة من هذه الملاحظة هي أنَّ

---

1 Mendieta, Eduardo & Lage-Cherion, Pedro (eds.): *Latin America & Postmoderniy,* (New York: Humaniyty Books, 2001). pp. 17-18.

كتابة التاريخ التي تعكس صورة أكثر معقولية لمجرى الحداثة تتطلّب تنقُّلاً بين جغرافيات متنوِّعة تربط بين تواريخ الشعوب وتقاطعات الحضارات المختلفة.

فيما يخص الهدف الأساسي لهذا الكتاب، حسبما أشارت إليه المقدِّمة، وهو تصفية ترِكة خطاب الحداثة واستخلاص ما يجب أن يبقي منه وما ينبغي أن يذهب؛ فإنَّ أوَّل ما يُنتَظر تصويبه في ذلك الخطاب هو مصطلح الحداثة بمعناه السائد حاليّاً، الذي يصوِّرها مرحلة فارقة في التاريخ تصنِّف البشر في مجتمعات (حديثة) و(تقليدية)، فتُعلي مكانة الأولى وتحطُّ من مكانة الثانية. ولأن دلالة هذا المصطلح تحدِّدها تجربة المجتمعات الأوروبية وفهمها لتاريخها، وفق منظورها وما تقتضيه مصالحها؛ فمن الضروري عدم اتخاذه أداة لترتيب الشعوب.

أيضاً، من المهم الاستغناء عن اتخاذ الأحداث التي جرت في تاريخ أوروبا علامات على بداية تاريخ حديث تُنسَب فيه المعرفة الكلِّية والصحيحة إلى أوروبا. كأن يقال أنَّ "العلم الحديث" يبدأ بنظرية كوبرنيكس، وتبدأ "الفلسفة الحديثة" مع ديكارت، ويبدأ "الاقتصاد الحديث" بالرأسمالية الصناعية، وغير ذلك من أحكام قاطعة تسلِّم بأن بدايات التاريخ الحديث كلّها تحدِّدها التواريخ المحلِّية الأوروبية.

حين يتحقَّق هذا، ستتخلَّص المعرفة الغربية من أوهام انفرادها بتقديم المعرفة العلمية و"الحقائق الموضوعية" "والفكر العالمي" لكل شعوب الأرض، وتتخذ الحجم الطبيعي الذي لكل معرفة بشرية. وعندها سيكون ممكناً للجميع تلقِّي المعرفة الغربية دونما عوائق، لأنها ستصبح جزءاً من المعرفة البشرية السويَّة، التي لا تدَّعي امتيازاً وقدرة على معرفة الحقيقة في ذاتها، ولن يوجد ما يُبرِّر للأمم التي تنتجها الاستعلاء على بقية البشر والتحكُّم بمصائرهم.

أمَّا ما يستحقُّ أن يبقى من تركة الحداثة؛ شرط أن يُعاد تأسيسه على تساوي البشر، فهو تقليدها النقدي الذي يتوافق مع توجُّهات الحدِّ من السيطرة، والذي زوَّد أوروبا بقدرة عالية على فهم تغيُّرات واقعها. إنَّ النقد الذي يمارسه المفكِّرون والمصلحون والسياسيُّون الغربيون لمجتمعاتهم، ويديرون بموجبه حوارات حرَّة حول مشكلاتها والحلول المقترحة لها، يمكن أن يصبح ميراثاً للإنسانية يخدم تحرُّرها.

إنَّ صعوبة أن يقبل الفكر الأوروبي الغربي بعدالة معرفية عالمية في وقتنا الحاضر تفتح الباب أمام الذين استُبعِدوا عن تاريخ العالم ليُسهِموا في تحويل التقليد النقدي إلى ميراث عام دونما انتظار لمبادرة أوروبا التي قد تتأخَّر، أو قد لا تأتي إذا استمر مفكِّروها في التمسُّك بمركزية الحداثة المرتبطة بأسطورة الثورات. لذا، فإنَّ فضّ الأوهام المؤسِّسة لتاريخ العصر الحديث يعتمد على مشروع تحرُّر يؤدِّي إلى تساوي البشر من جهة أنّهم مجتمعات ذات وضعيَّات وخبرات وثقافات متماثلة، من حيث حقّها في الاختلاف، وعدم الخضوع لأي نوع من التراتب.

المراجع

أبو الفداء (عماد الدين بن اسماعيل بن محمد): **تقويم البلدان،** (باريس - بيروت: دار صادر، 1830)

إدوارد كار: **ما هو التاريخ؟** ترجمة ماهر كيالي وبيار عقل، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980).

أرنولد توينبي: **تاريخ البشرية،** ج 2، (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، 1988).

إنريك دوسل: ما بعد المركزية الأوروبية - النظام العالمي وحدود الحداثة، في: فردريك جيمسون وماساو ميوشي (محرِّران): **ثقافات العولمة،** (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004).

إيمانويل والرشتين، وآخرون: **الاضطراب الكبير،** ترجمة عصام خفاجي وأديب نعمة، (بيروت: دار الفارابي، 1991).

برتراند رسل: **حكمة الغرب، الجزء الثاني: الفلسفة الحديثة والمعاصرة،** (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1983).

بندكت أندرسون: **الجماعات المتخيلة: في أصل القوميَّة وانتشارها،** (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014).

توماس جولدشتاين: **المقدِّمات التاريخية للعلم الحديث من الإغريق القدماء إلى عصر النهضة،** (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، 2003).

توماس س. كوهن: **بنية الثورات العلمية، ترجمة علي نعمة،** (بيروت: دار الحداثة، 1986).

تيري إيجلتون: **أوهام ما بعد الحداثة**، ترجمة ثائر ديب، (سوريا: دار الحوار، 2000).

تييري هنتش: **الشرق المتخيَّل: رؤية الغرب إلى الشرق المتخيل**، (بيروت، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة - دار الفارابي، 1988).

جاك دريدا: **أحادية الآخر اللغوية، أو في الترميم الأصلي**، ترجمة عمر مهيبل، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون ومنتشورات الإختلاف، 2008).

جاك لوغوف: **التاريخ الجديد**، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007).

الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن): **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج 3، (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1998).

ج. ف. ف. هيغل: **محاضرات في فلسفة التاريخ، الجزء الأول**، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1980).

جورج قرم: **تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب**، (بيروت: دار الفارابي، 2009).

جورج ليفير: **عصر الثورة الفرنسية**، تعريب جلال يحيى، (بيروت: دار الكتب الجامعية، 1970).

جون سيرل: **العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي**، ترجمة سعيد الغانمي، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون- منشورات الاختلاف - المركز الثقافي العربي، 2006).

جيرار لكرك: **الأنثربولوجيا والاستعمار**، ترجمة جورج كتورة، (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1983).

جيرمندر ك. بامبرا: **إعادة التفكير في الحداثة: نزعة ما بعد الاستعمار والخيال السوسيولوجي**، ترجمة ابتسام سيد علام وحنان محمد حافظ، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2016).

حسين نصار: **نشأة التدوين التاريخي عند العرب،** (بيروت: منشورات إقرأ، 1980).

دونالد ر. كيلي: **بدء الآيديولوجية في الغرب: دراسة في الوعي والاجتماع،** ترجمة محمد جعفر داؤود (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1990).

دونالد ماكري: **ماكس فيبر،** ترجمة أسامة حامد، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1975).

ديفيد أرنولد: **الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية،** ترجمة مصطفي ابراهيم فهمي، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، 1998).

روبرت يانج: **أساطير بيضاء: كتابة التاريخ والغرب،** ترجمة أحمد محمود، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003).

روجيه غارودي: **الأصوليات المعاصرة،** (باريس: دار 2000، 1992).

ر. ج. كولنجوود: **فكرة التاريخ،** ترجمة محمد بكير خليل، (لجنة التأليف للترجمة والترجمة والنشر، 1961).

ريموند وليامز: **طرائق الحداثة: ضد المتوائمين الجدد،** (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1999).

زينب عصمت راشد: **تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر،** (القاهرة: جامعة عين شمس، 1976).

سلمى الخضراء الجيوسي (محرر): **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس،** ج 1-2، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998).

سمير أمين: **بعض قضايا للمستقبل: تأملات حول تحديات العالم المعاصر،** (بيروت: دار الفارابي، 1990).

طريف الخالدي: **بحث في مفهوم التاريخ ومنهجه،** (بيروت: دار الطليعة، 1980).

غاستون باشلار: **تكوين العقل العلمي: مساهمة في التحليل النفساني للمعرفة الموضوعية**، ترجمة أحمد خليل، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1982).

فرانتز فانون: **معذبو الأرض**، (بيروت: دار القلم، د. ت.).

قيس ماضي فرّو: **المعرفة التاريخية في الغرب: مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية**، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).

كارل ماركس: **أشكال الانتاج ما قبل الرأسمالية**، تُرجم باشراف صادق جلال العظم، (بيروت: دار ابن خلدون للطباعة والنشر، 1981).

كارل ماركس: **الثامن عشر من برومير- لويس بونابرت**، (موسكو: دار التقدُّم، 1972).

كارل ماركس: **رأس المال (نقد الاقتصاد السياسي)**، ترجمة محمد عيتاني، (بيروت: مكتبة المعارف د. ت.).

كارل ماركس وفردريك إنجلس: **في الاستعمار**، (موسكو: دار التقدُّم، د. ت.).

لوي التوسير: **مونتسكيو: السياسة والتاريخ**، ترجمة نادر ذكرى، (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 1981).

ليفي بروفنسال: **حضارة العرب في الأندلس**، ترجمة ذوقان قرقوط، (بيروت: منشورات مكتبة الحياة، د. ت).

مجموعة مؤلِّفين: **نقد مجتمع الذكور**، ترجمة هنرييت عبودي، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1982).

مجموعة مؤلفين: **الانفجار العربي الكبير: في الأبعاد الثقافية والسياسية**، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012).

مهدي عامل: **في علمية الفكر الخلدوني**، (بيروت: دار الفارابي، 1985).

ميشيل فوكو: **فلسفة التنوير**، ترجمة محمد عبد الرحمن حسن، (الخرطوم: دار سلوم للنشر، 2009).

نايجل سي. غبسون: **المخيِّلة بعد الكولونيالية**، ترجمة خالد أبو هديب، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).

هاري ماجدوف: **الإمبريالية من عصر الإستعمار حتى اليوم**، (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1981).

هربرت ماركيوز: **العقل والثورة: هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية**، ترجمة فؤاد زكريا، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979).

هنري د. إيكن: **عصر الآيديولوجية**، ترجمة فؤاد زكريا، (القاهرة: الإدارة العامة للثقافة، د. ت.).

هنري لوفيفر: **ما الحداثة**، (بيروت: دار بن رشد، 1983).

وجيه كوثراني: **تاريخ التأريخ: اتجاهات، مدارس، مناهج**، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).

ولتر ستيس: **فلسفة هيجل- المجلد الأول: المنطق وفلسفة الطبيعة**، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 1983).

يورغن هابرماس: **القول الفلسفي للحداثة**، (دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1995).

الدوريات العربية:

تيموثي ميتشل: مدرسة دراسات التابع ومسألة الحداثة، **ألف: مجلة البلاغة المقارنة**، خطاب ما بعد الكولونيالية في جنوب آسيا، العدد 18، (1998)، 100 - 121.

الكتب الإنجليزية:

Abu Lughod, Janet L.; 'On the Remaking of History: How to Reinvent the Past', in: Kruger, Barbara and Mariani, Phill (eds.): *Remaking History*, (New York: The New Press, Dia Art Foundation, 1998).

Arendt, Hannah; *The Origins of Totalitarianism,* (Cleveland: The World Publishing Company,1962).

Arendt, Hannah; 'Is America by Nature Violent?', In McGiffert, Michael (ed.); *The Character of The Americans*, (Homewood, Illinois: The Dorsey press, 1970).

Ayala, Cezar J.; *American Sugar Kingdom: The Plantation Economy of the Spanish Caribbean, 1898-1934*, (Chapel Hill and London: The University of North Carolina Press, 1999).

Baines, Edward: *History of Cotton Manufacture in Great Britain,* (Cambridge: Cambridge University Press, 2015).

Bainton, Roland H.; *Hunted Heretic: The life and Death of Michael Servetus, 1511-1553,* (Blackstone & UUHS, 2011).

Baptist, Edward E,: *The Half Has Never Been Told: Slavery and the Making of American Capitalism*, (New York: Basic Books, 2014).

Berger, Peter L., Berger, Brigitte and Kellner, Hansfried: *The Homeless Mind: Modernization and Consciousness*, (England: Penguin, 1974).

Binton, Crane: *The Shaping of Modern Thought,* (Englewood Cliffs: Prentice Hall Inc, 1963).

Braudel, Fernand; *Memory and the Mediterranean,* (New York: Alferd A. Knopf, 2001)

Britanica Concise Encyclpedia: Constantine the African (Chicago, London: Encyclpedia Britanica, 2006).

Buck- Morss, Susan; *Hegel, Haiti, and Universal History,* (United States of America: University of Pittsburgh Press, 2009).

Chase, Cynthia; *Romanticism,* (London and New York: Routldge, 1996).

Coleman, D.C.; *Myth, History and the Industrial Revolution,* (London and Rio Grande: The Hambledon Press, 1992).

Corfield, Penelope J.; *Britain's Political & Industrial Revolutions: As seen by Eighteenth- Century Observers and later Historians,* (UK: Royal Holloway University of London and Newcastle University, 2013).

Dean, Trevor (ed.); *The Towns of Italy in the Later Middle Ages,* (Manchester and New York: Manchester University Press, 2000).

Duby, Georges; *The Early Growth of the European Economy: Warriors and Peasants from the Seventh to the Twelfth Century,* (Ithaca-New York: Cornell University Press, 1997).

Embree, Ainslie T. and Gluk, Carol; *Asia in Western and World History: A guide for Teaching,* (London and New York: Routledge, 1997).

Fernandez-Armesto, Felipe; *Before Columbus: Exploration and Colonization from the Mediterranean to the Atlantic 1229-1492,* (Philadelphia, University of Pennsylvania Press,1987).

Furgson, Nial: *The Six killer Apps of Western Civilizations,* (London: Penguin Books, 2012).

Gerard, John: *The Autobiography of A hunted Priest,* (San Fransico: Ignatus Press, 1988).

Giglioni, Guido et al. (eds.): *Francis Bacon on Motion and Power,* (Switzerland: Springer, 2016).

Goloboy, Jennifer (ed.); I*ndustrial Revolution: People and Perspectives,* (Santa Barbara, Denever: ABC- CLIO, 2008).

Gould, Richard A; A*rchaeology and the Social History of Ships,* (Cambridge: Campridge University Press, 2011).

Greer, Margrette R.,Mignolo, Walter D. Quilligan, Maurean, Reading the Black Legend: The Discourse of Religious and Racial Difference in the Renaissance Empires (Chicago: University of Chicago, 2007).

Hale, J.R. ; *Renaissance Europe : Individual and Society 1480-1520,* (Berkley, Los Angles: University of California Press, 1977).

Hall, Robert A.; *The Scientific Revolution, 1500-1800, The Formation of the Modern World Scientific Attitude,* (Boston: Beacon Press, 1966).

Hanna, Nelly: *Artisan Entrepreneurs in Cairo and Early modern Capitalism* (1600-1800), (New York: Saracuse University Press, 2011).

Hauser, Arnold: *The Social History of Art, Vol. II: Renaissance, Mannerism, Baroque*, (London and New York: Routledge, 1999).

Heather, Peter: *Empire and the Barbarians: The Fall of Rome and the Birth of Europe,* (New York: Oxford University Press, 2010).

Hobsbawm, Eric; I*ndustry and Empire; The birth of the Industrial Revolution,* (New York: The New Press, 1999).

Hobsbawm, Eric ; *The Age of Empire 1875-1914,* (New York: Vintage books,1987).

lden, Stuart and Mendieta, Eduardo, (eds.): *Reading Kant's Geography,* (United States of America: State University of New York Press, 2011)

Imamuddin, S.M.; *Muslim Spain 711-1492 A.D., A sociological Study,* (Leiden: E. J. Brill, 1981).

Issac, Benjamin: *The Invention of Racism in Classical Antiquity,* (Princeton and Oxford: Princeton University Press, 2004).

Jameson, Fredric and Miyoshi, Masao (eds.); *The Cultures of Globalization,* (Durham and London; Duke University Press, 1998).

Jameson, Fredric; *The Cultural Turn: Selected Writings on the Postmodern 1983- 1993*, (London, New York, Verso, 1993).

Jennings, Francis; *The Invasion of America: Indians, Colonialism, and the Cant of Conquest,* (United States of America: University of North Carolina Press, 1975).

Jardine, Lisa: *Worldly Goods: A New History of the Renaissance,* (New York, London: W.W. Norton & Company, 1996).

Jones, Derek (ed.); *Censorship: A world Encyclopedia, Vol.1-4,* (New York: Routledge, 2001).

Jöns, Heike. Meusburger, Peter and Heffernan, Michael (eds.): Mobilities of Knowledge (Springer: Switzerland, 2017).

Jöns, Heike - Meusburger, Peter and Heffernan, Michael (eds.): *Mobilities of Knowledge* (Springer: Switzerland, 2017).

Judy A. Hayden (ed.): *Travel Narratives, The New Science, and literary Discourse, 1569-1750,* (England and USA: Ashgate, 2012).

Kant, Immanuel; An Answer to the Question: What is Enlightenment?, in: Reiss,Hans (ed.); *Kant: Political Writings,* (Cambridge: Cambridge University Press).

Kingdon, Robert M.: 'Was the protestant reformation a revolution? The case of Geneva', in Robert M. Kingdon (ed) *Transition and Revolution: Problems and Issues of European Renaissance and Reformation History* (Minneapolis, Minnesota: Burgess Publishing Company, 1974).

Kinsman, Robert (ed.); *The Darker Vision of the Renaissance: Beyond the Fields of Reason*, (Los Angles: University of California, 1974).

Koeingsburger: *Early Modern Europe, 1500-1789,* (London: Longman, 1989).

Koundoura, Maria: *The Greek Idea,* (London, New York: Tauris & Co Ltd, 2007).

Koyre, Alexander; *From the Closed World to the Infinite Universe,* (Create Space Independent Publishing Platform, 2012).

Kristeller, Paul Oscar; *Renaissance Thought and the Arts,* (Princeton, New Jersey: Princeton University Press, 1990).

Kruger, Barbara and Mariani, Phill (ed.): *Remaking History,* (New York: The New Press, Dia Art Foundation, 1998).

Laidlaw, Zoe; *Colonial Connections 1815-45: patronage, the information revolution and colonial government*, (Manchester and New York: Manchester University Press, 2005).

Landes, David S.; *The Wealth and Poverty of Nations: Why Some are Rich and Some are So Poor,* (New York, London: W. W. Norton & Company, 1998).

Lanre-Cherion, Pedro & Mendieta, Eduardo (eds.): *Latin America & Postmodernity,* (New York: Humanity Books, 2001).

Le Goff, Jacques; *The Birth of Europe,* (UK: Blackwell Publishing, 2005).

Lewis, David Levering: *God's Crucible: Islam and the Making of Europe, 570-1215.* (New York, London: Norton, 2008).

Lopez, Robert S.; *The Commercial Revolution of the Middle Ages 950-1350,* (Cambridge: Cambridge University Press, 1976).

Lugard, Fredrick; *The Rise of Our East African Empire, Vol. 1, Nyasaland and Eastern Africa,* (Edinburgh, 1893).

Mack, Phyllis and Jacob, Margret C. (eds.); *Politics and Culture in Early modern Europe: Essays in Honor of H. G. Koenigsberger* , (London, New york: Cambridge University Press, 1987).

MacLoed, Christine; *Inventing the Industrial Revolution: the English Patent system, 1660-1800,* (New York: Cambridge University press, 1988).

Mamdani, Mahmood; *Citizens and Subjects: Contemporary Africa and the Legacy of Late Colonialism*, (New Jersey: Princeton University Press, 1996).

Marder, William; *Indians in the Americas: The Untold Story*, (San Diego: The Book Tree, 2005).

Marx, Karl: *Capital,* (Moscow: progress publishers, 1972).

Mignolo, Walter D. and Escobar, Arturo (eds.): *Globalization and the Decolonial Option,* (New York: Routldge, 2010).

Mill, John Stuart; *Principles of Political Economy,* (London: Longmans, Green, 1909).

Mirandola, Giovanni Pico Della: *Oration on the Dignity of Man,* (Chicago: GateWay, 1956).

Mokyr, Joel (ed.); *The Economics of the Industrial Revolution,* (U. S. A., Roman & Littlefield Publishers, 1985).

Nicolson, Sherry Weber (ed.): *Urgen Habermas; The New Conservatism, Cultural Criticism and the Historical Debate*, (USA, MIT Press 199).

Open the Social Sciences: Report of the Gulbenkian Commission on the Restructuring of the Social Sciences, (USA, Stanford University Press, 1996.

Pagden, Anthony; Peoples and Empires, (New York: The Modern Library, 2003).

Park, Maarten; *Early Modern Capitalism; Economic and Social Change in Europe 1400-1800,* (New York: Routledge, 2001).

Passmore, John: *A Hundred Years of Philosophy*, (England: Penguin Books, 1975).

Pigafetta, Antonio; *The First Voyage Round the World By Magellan,* (London: The Hakluyt Society, 1874).

Proudhon, Pierre-Joseph; *The Idea of the Revolution of the Nineteenth Century,* (New York: Haskel Hpuse Publishers,1969).

Porter, Roy and Teich, Mikuláš (eds.): *The Scientific Revolution in National Context,* (Cambridge: Cambridge University Press, 1992).

Prichard, Alex; Justice, Order and Anarchy: *The International Political Theory of Pierre-Joseph Proudhon,* (London and New York: Routldge, 2013).

Rabasa, Jose: *Inventing America,* (Oklahoma: University of Oklahoma press, 1994).

Rabinow, Paul (ed.); *The Foucault Reader,* (New York: Pantheon Books, 1984).

Roth, Cecil; *The Spanish Inquisition*, (New York: The Norton Library, 1964).

Russell, Bertrand: *Marriage and Morals,* (New York: Liveright, 1929).

Saliba, George; *Islamic Science and the Making of European Renaissance,* (Cambridge, Massachusetts: The MIT Press, 2007)..

Shapin, Steven; *The Scientific Revolution,* (Chicago and London: The University of Chicago Press, 1998).

Sheridan, Richard B.; *Sugar and Slavery: An Economic History of the British West Indies 1623-1775,* (Barbados and Jamaica: University of the West Indies, 2000).

Sismondo, Sergio: *Science without Myth: On Constructions, Reality and Social Knowledge,* (New York: State university of New York Press, 1996).

Stavig, Ward and Schmidt, Ella: T*he Tupac Amaru and Catarista Rebellions: An Anthology of Sources*, (Indianapolis, Cambridge: Hackett, 2008).

Talbot, Ann; *"The Great Ocean of Knowledge" The Influence of travel Literature on the Work of John Locke,* (Boston: Brill, Liden. 2010).

Teich, Mikuláš: *The Scientific Revolution Revisited,* (Cambridge, Open Book Publishers, 2015).

Thomas, Lindsay M.: *A History of the Reformation, Vol. 1: The Reformation in Germany From its Beginning to the Religious Peace of Augsburg*, (Edinburg: T & t Clark, 1906).

Todorov, Tzvetan; *Theories of the Symbol,* (Ithaca, New York: Cornel University Press, 1984).

Valls, Andrew (ed.): *Race and Racism in modern Philosophy,* (Ithaca and London: Cornell University Press, 2005).

Vasari, Giorgio; *Lives of the Most Eminent Painters Sculptors & Architect*, (London: Mackmilan and Co. Ld. & The Medici Society, 1912).

Voltaire: *Philosophical Dictionary,* (London: Jaques and Co., 1802).

Watt, Montgomery; *The Influence of Islam on Medieval Europe,* (Edinburg: the University Press of Edinburg,).

Walker, Charles F.; *Tubac Amaru Rebellion,* (U. S. A., Pelknap Press, 2014(.

Wallerstein, Immanuel: *European Universalism: The Rhetoric of Power*, (New York and London: The New Press, 2006).

Wallerstein, Immanuel: *Unthinking Social Sciences,* (Philadelphia: Temple University Press, 2001).

Watt, Montegomery; The Infuluence of Islam on Medieval Europe, (Edinburg: The University Press of Edinburg).

Weiner, Norbert; *The Human Use of Human Beings, Cybernetics and Society,* (Anchor Books, 1950).

Winfree, Arthur T. ; *The Geometry of Biological Time*, (New York: Springer, 2001).

Wolf, Eric R. : *Europe and the People without History,* (Berkley: University of California Press , 1982).

الدوريات الانجليزية

Adamson, Walter L.: Beyond “Reform or Revolution”: Notes on Political Education in Gramsci, Habermas and Arendt, *Theory and Society* , vol. 6, no. 3 (Nov., 1978). 429-460.

Bray, Francesca; Technology and Culture in Chinese History, Chinese Science, *Internatuional Society of East Asian Science*, no. 12 (1995), 13-17.

Brint, Michael- Weaver, William G. and Garmon, Meredith: What Difference Does Anti-Foundationalism Make to Political Theory? *New Literary History*, vol. 26, no. 2 (Spring, 1995). 225-237.

Dussell, Enrique ‘Beyond Eurocentrism: The World-System and the Limits of Modernity’, in: Jameson, Fredric and Miyoshi, Masao (eds.); *The Cultures of Globalization*, (Durham and London: Duke University Press, 1998)

Ekelund Jr., et al.; An Economic Analysis of the Protestant Reformation, *Journal of Political Economy*, vol. 110 no. 3, (2002), 646- 671.

Fisher, Linford: “Why shall we have peace to bee made slaves’: Indian Surrenders During and After King Philip’s War, *Ethnohistory*, vol. 64, no. 1 (2017), 91-114.

Garcia, Jose Maria Rodriguez; Scientia Potestas est- Knowledge is Power: Francis Bacon to Michel Foucault, *Neohelicon,* vol. 28, no. 1 (January 2001), pp. 109-121.

Gossman, Lionel: History as Decipherment: Romantic Historiography and the Discovery of the Other, *New Literary History*, vol. 18, no. 1, (Autumn, 1986), pp. 23-57.

Hamilton, Peter J.: Germanic and Moorish Elements of the Spaish Civil Law, *Harvard Law Review*, vol. 30, no. 4, (Feb., 1917), pp. 303-318.

Higman, B. W.; The Sugar Revolution, *The Economic history Review*, New Series, vol. 53, no, 2 (May, 2000).

Jami, Catherine; Introduction: science in Early Modern East Asia; State Patronage, Circulation, and Production of Books, *Early Science and Medicine*, vol. 8, no. 2, (2003), 81-87.

Karagöz, Ufuk and Ozveren, Eyüp; Braudel’s Mature Mediterranean: Civilization and Capitalism, *Journal of Mediterranean Studies*, vol. 24 no. 1 (2015). 69-86.

Kuhn, Dieter; Reflections on the Current State and Significance of the History of East Asia Technology, *East Asian Science, Technology, and Medicine*. no. 25 (2006), 9-26.

Laichen, Sun; Military Technology Transfer from Ming China and The Emergence of Northern Mainland Southeast Asia (1390-1527), *Journal of Southeast Asian Studies*, vol. 34, no. 3 (Oct. 2003), 495- 517.

Lin, Justin Lifu: The Needham Puzzle: Why the Industrial Revolution Did Not Originate in China, *Economic Development and Cultural Change*, vol. 43, no. 2 (Jan., 1995), 269-292.

Marshal, Peter: (Re)defining the English Reformation, *Journal of British Studies*, 48 (July 2009), 564-586.

Mokyr, Joel; Why was the Industrial Revolution A European Phenomenon?, *Supreme Court Economic Review*, vol. 10, (Fall 2003). 27-63.

Mossuz-Lavau, Janine: Women and Politics in France, *French Politics and Society*, vol. 10, no. 1 (Winter 1992), 1-8.

Spang, Rebecca L.: Paradigms and Paranoia: How Modern Is the French Revolution?, *The American Historical Review*, vol. 108, no. 1, (February 2003).124-148.

Stump, James B; History of Science Through Koyre's Lenses, *Stud. Hist. Phi*l. Sci., vol. 32, no. 2, (2001). 243-263.

Tame, Chris R.; The Revolution of Reason: Peter Gay, The Enlightenment and the Ambiguities of Classical Liberalism, T*he Journal of Libertarian Studies*, vol. 1, no. 3, (Summer 1977). 217-227.

Thomas, Peter: Modernity as "Passive revolution": Gramsci and the Concept of Historical Materialism, *Journal of Canadian Historical Association*, vol. 17, no. 2, (2006). 61-78.

Taylor, Sarah; Early Chinese Iron Technology: Some Social and Historical Implications, *China,* no. 21, XXX The European conference of Chinese studies Proceedings, (1988) , 319-338.

Raina, Dhruv; Revisiting Social Theory and History of Science in Early Modern South Asia and Colonial India, Extreme-*Orient Extreme-Occident*, no. 36 (2013), 191-210.

Ward, J. R.; The Industrial Revolution and British Imperialism 1750-1850, *The Economic History Review*, New Series, vol. 47, no. 1 (Feb. 1994). 44- 65.

White, Hayden: Interpretation in History, *New Literary History*, vol. 4, no. 2, (1973), 281-314.

الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت):

Becker, S.O., Pfaff, S., & Rubin, J.: Causes and consequences of the Protestant Reformation. ESI Working Paper 16-13 (2016). http://digitalcommons.chapman.edu/esi_working_papers/178.

Encyclopedia Britanica: Refoermation, published: May 15, 2020.

https://www.britannica.com/event/Reformation. Accessed: 26/12/ 2020.

Encyclopedia Britanica: Revolution, published: February 24, 2020.

https://www.britannica.com/event/Revolution. Accessed: 26/12/ 2020.

فهرس الأعلام

(أ)

أبُقراط: 34.
ابن الجزَّار القيرواني: 33.
ابن رشد، أبو الوليد: 31 - 32، 34، 159، 163، 167.
ابن سينا، أبو علي: 33 - 34، 166.
ابن الشاطر، أبو الحسن علاء الدين: 159 - 160.
ابن العباس: 33.
ابن عمران: 33.
أبوت، جورج: 167.
إرازموس، ديزدِريوس: 180 - 181.
أرسطو: 32، 34، 163، 167.
أرندت، هانّا: 266 - 267.
أركرايت، ريتشارد: 96، 98.
الأكويني، توما: 32، 176.
الرازي: 33.
ألفونسو الحكيم 35.
أمارو، توباك: 76، 77، 80.
إنجلس، فردريك: 88، 265.
إيزاك، بنيامين: 129.

ب

بابتست، إدوارد: 263.
باشلار، غاستون: 150، 153.
باستيداس، ميكالا: 76.
بامبرا، جيرمندر ك.: 11.
بايل، بيير: 119.
بترفيلد، هربرت: 151 - 152.
برنال، ج. د.: 152.
براهي، تيكو: 162، 164.
بِركلي، جورج: 122 – 126.
برودون، بيير جوزيف: 174.
بفّون، جورج - لوي: 136.
بك - مورس، سوزان: 12.
بلانكوي، ج. أدولف: 88.

بوبر، كارل: 115، 146.
بوترو، جيوفاني: 268.
بودلير، شارل: 234.
بول، لويس: 98.
بولو، ماركو: 23.
بونابرت، نابليون: 69.
بيترسون، ديفيد: 255-256.
بيكون، روجر: 26.
بيكون، فرانسيس: 50، 121 - 122، 162، 164 - 166، 260، 268.

(ت)

تشابن، ستيفن: 153.
تشارل، الخامس: 182.
تشارل، العاشر: 69.
تشارلس، ويتني: 121.
توينبي، أرنولد: 88.
توينبي، ج. أرنولد: 90، 265.

(ج)

الجبرتي، عبد الرحمن: 71-72.
جفرسون، توماس: 95 - 96، 126..
جنغز، فرانسيس: 257.
جوتنبرج، يوحنا: 39.

(د)

دا غاما، فاسكو: 22، 28، 49، 204 - 205.
دا سيلفا، خافيير: 37.
دامبير، وليام: 199.
دوبي، جورج: 217 - 218.
دو لا هير، فيليب: 37.
دي أنغيرا، بيتر مارتير: 192 – 195، 197.
دي تراسي، دستي: 83.
دي، تسو: 27.
ديدرو، دنيس: 129 – 131، 134.
ديكارت، رينيه: 14، 50، 83، 126، 149 - 150، 163، 167، 282، 287.

(ر)

راباس، جوزيه: 267.
رودنسون، مكسيم: 116.
روسو، جان جاك: 132 - 134، 143، 145.

(س)

سرفت، ميغويل: 166 – 167.
سنج، جاي: 36 - 37.
سلفستر الثاني: 29.

سوزي، ر: 261.
سيسموندو، سرجيو: 155.

(ط)

الطوسي، نصير الدين: 160، 197.

(ع)

العرضي، مؤيد الدين: 159 – 160.

(غ)

غابرييل، جوزيه: 76.
غاليلي، غاليليو: 149، 160، 164 - 165، 282.
غرامشي، أنطونيو: 223 - 224.

(ف)

فانيني، لوشيليو: 167.
فرانسيس (الأول): 180.
فردريك (العظيم): 118
فوريه، فرانسوا: 82.
فوكو، ميشيل: 116، 122.
فولتير: 118، 128 – 129، 145.
فيبوناتشي، ليوناردو: 217.
فيتوريا، فرانسيسكو: 130.

(ق)

قُرم، جورج: 12.
قسطنطين الأفريقي: 32.

(ك)

كالفن، جون: 162، 166 – 167.
كانط، إمانويل: 119، 129، 135، 138 - 140، 168، 230، 268.
كبلر، يوهانز: 149 – 150، 162.
كتارا، الأخوان: 80.
كوبرنيكس، نيكولا: 14، 50، 83، 150، 158 – 160، 162 - 164، 287.
كولمبس، كريستوفر: 29 ،49، 76، 129، 188، 287.
كونتاريني، كاسبارو: 193، 195.
كرومبتون، صامويل: 98.
كورتس، هرناندو: 267.
كوفييه، جورج: 140.
كولريدج، صامويل: 230.
كونتراكت، هرمان: 30.
كوندورسيه: 144.
كوندياك، إيتين: 83.
كوير، ألكسندر: 150 - 152.

كيسر، كونراد: 26.
كيفت، وليم: 255.
كيلي، دونالد: 178، 181، 183 - 184.

(ل)

لكرك، جيرار: 143 - 144.
لوبيز، روبرتو ساباتينو: 211 – 216، 219، 223.
لوثر، مارتن: 162، 166 – 167، 173، 178 – 181.
لوفِرتور، توسيان: 79.
لوك، جون: 124، 126، 168، 268.
لويس (السادس عشر): 66.

(م)

ماجلان، فرديناند: 192، 198، 204..
ماركس، كارل: 19، 67 – 68، 74، 88، 92 - 93، 101، 109، 113، 135، 213، 220 - 221، 223.
ماغنو، البرتو: 26.
ماركوز، هربرت: 235.
مل، جون ستيوارت: 90، 235، 239.
منتز، سيدني: 104.
موريتز، كارل: 231.
موسى بن ميمون: 32.
مونتسكيو: 127 – 128، 135.

(ن)

نرفال، جيرار: 234.
نيبور، أوتو: 159.
نيدام، جوزيف: 20.
نيكام، الكسندر: 31.
نيوتن، إيزاك: 50، 83، 149 – 150، 182.

(هـ)

هابرماس، يورغن: 116، 236.
هارنجتون، جيمس: 269.
هازارد، بول:116.
هال، روبرت: 152.
هاملتون، ألكسندر: 96.
هاوزر، أرنولد: 213.
هردر، غوتفريد: 137 – 138، 239.
هوبسبوم، إريك: 88.
هي، تسنغ: 25.
هيغل، جورج فردريك: 12، 19، 95، 71، 135، 139، 185، 233 - 238، 289.

(و)

واط، جيمس: 98.

واط، مونتغمري: 34.

والرشتين، إمانويل: 68، 100، 108 - 111، 229، 246.

واينبرغر، جيري: 121.

واينر، نوربرت: 92.

ووردزورث، وليام: 230.

ويات، جون: 98.

وينفري، آرثر: 196.

(ي)

يوانتسهانغ، تسو: 25.

يونغ، آرثر: 88.

رقم الإيداع 2020/0140